باسمة كيال



تطور المرأة

عبر التاريخ

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

تَطوُّر المَرْأة
عبر التاريخ

تَطوُّرُ المَرْأَة
عَبرَ التَاريخ

بَاسِمَة كيّال



مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر
هاتف: ٢٧٣٦٣٦-٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧- ص.ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت - لبنان

مقدمة

منذ درج الإنسان على هذه الأرض ومشكلة المرأة بين مدّ وجزر، وأخذ وعطاء باعتبارها النصف الثاني المكمّل لحياة الفرد في المجتمع الذي يعيش فيه، سواء أكان هذا المجتمع بدائياً أو متطوراً أو تقدمياً أو رجعياً.

وباعتقادنا أن هذه المشكلة قد ولدت مع ولادة الإنسان الأول الذي يسمى بالعرف الديني والتاريخي آدم أبو البشر والذي كما يقال ولدت من ضلعه حواء ثم طردت معه من الجنة وهبطا سوياً إلى الأرض حيث تناسلا وأوجدا البنين والبنات. وإن كنا من الوجهة العلمية العقلانية لا نقول بهذا الرأي لعوامل شتى، وأسباب لا مجال لذكرها طالما تتعلق وترتبط بالولادة الروحانية والولادة الجسمانية، كوننا نرى أن الله سبحانه وتعالى بما أنه أوجد موجودات كثيرة ومتنوعة، باستطاعته أن يوجد مجموعة من الذكور، ومجموعة من الإناث ليتناسلوا وينجبوا البنين والبنات.

وإذا تلفتنا إلى التاريخ العام الذي دون تاريخ المرأة بشكل خاص منذ وجودها على هذا الكوكب باعتبارها النصف المتمم للرجل في حياته الإجتماعية والعملية، نلاحظ منذ بدء الخليقة أن الرجل البدائي كان بحكم قوته صاحب السيطرة التامة على نصفه الآخر بما يلازم هذا

النصف من مشاكل الحياة ومتاعبها بوصفه الشريك الأضعف، لذلك لا بد لهذا الرجل من الحصول على العديد من النساء، سواء عن طريق الزواج أو الاسترقاق أو السبي، دون أن يكون لنظام الزواج في ذلك الوقت أي إعتبار.

ومن الملاحظ أيضاً أن الرجل كان يحتل المكان الأول في الأسرة، فهو قوام الأسرة وربها المسؤول عن حياتها ورزقها وشؤونها، وهو المكلف بالدفاع عنها والزود عن حماها، والمطالب بالثأر والغرامات، وهو المخاطب في المسؤوليات الإجتماعية المتنوعة، وهو صاحب الرأي والكلمة النافذة والمظهر البارز. ولهذا اعتبرت المرأة من حيث العموم تابعة للرجل ومنسوبة إليه، وتحت حمايته ومسؤوليته، ومسيّرة بأمره، وأنه هو الذي يمثلها في مصالحها، والمسيطر سيطرة تامة على كافة مقدراتها. ولم يكن للمرأة البدائية أي حق في التصرف بالقضايا الإجتماعية، والإقتصادية والزوجية، بل كانت على الغالب تؤكل حقوقها، وتبتز أموالها، وتحرم من إرثها وحريتها، وتضطهد وترهق وتعامل معاملة سيئة لا رأي لها ولا قرار، وإنما تكون أبداً ودائمًا تابعة لبعلها تنفذ إرادته، وتلبي رغباته، وتربي أطفاله بدون أن يكون لها الحق في حرية الإعتراض أو التذمر أو الرفض، بل كانت كالآلة تنفذ كافة رغبات صاحب الآلة ومديرها.

ولا بد لنا من الإشارة إلى أن هناك عاملين أساسيين قد حددا للمرأة مكانها في العصور البدائية القديمة، أحدهما أنها أنثى أهلتها الطبيعة لإداء مهمة معينة، وهي تنهد إلى إدارة شؤون البيت، وطبخ الطعام، وتربية الأطفال والإعتناء بشؤونهم. والعامل الآخر توفير الطمأنينة لزوجها الذي كان يقضي أيامه ولياليه في الغزو ومحاولة كسب عيشه عن طريق الغارات، والسلب والنهب والظفر في المعارك التي يخوضها مع الأعداء.

ولقد كان لهذين العاملين أثرهما الفعّال في رسم الوضع

الاجتماعي للمرأة البدائية، ولحضارة الانسان الأول. وكانت متطلبات هذه الحياة البدائية، حياة الغزو والسلب والنهب، قد تطورت دعائمها حتى أصبحت عنصراً أصيلاً يكوّن الإطار العام لحضارته.

ولعل أهم ما يسترعي إنتباهنا الآن ونحن في عصر التطور والرقي، فنتساءل كيف وجد هذا الإنسان البدائي في العصور القديمة المأوى والمأكل والملبس والمشرب وهو في بداية تطوره العقلي للتدرج في سلم الحياة التصاعدي بطيئاً نحو الأكمل والأمثل والأحسن؟ وقد ننسى أحياناً بأن الجنس البشري منذ بدء الخليقة لم ينعم بأسباب التقدم والحضارة والرقي إلاّ بصعوبة فائقة تدريجياً ومع مرور الوقت وتتالي الأزمان. وقد ننسى أن أجدادنا كانوا محرومين تلك الأسباب، ولم ينعموا بمثل ما ننعم به نحن الآن. وقد ننسى كذلك أن الإنسان الأول إنما تقدم وارتقى على سلم الحضارة تدرجاً لا دفعة واحدة.

فلو رجعنا بمخيلتنا إلى القرون الوسطى مثلاً، لوجدنا في المدن وخارجها طرق غير معبّدة، وبيوت بعض الناس بسيطة متواضعة، ومثل ذلك يقال في الأمن والإطمئنان الذي لم يتمتع به كثيراً أهل ذاك الوقت، إذ كثرت الجرائم والسرقات في أيامهم بحيث لم يجسروا على الخروج من المدن المسورة ليلاً، ولم يجرأوا على السفر بعيداً منفردين بالرغم من توافر التنقل والدفاع عن أنفسهم. فكيف لو استرسلت مخيلتنا في الرجوع قليلاً إلى الوراء، إلى ما قبل القرون الوسطى، إلى الدولة الرومانية، وإلى الدويلات اليونانية، لوجدنا الفساد عام وشامل بين الأنثى والذكر على مختلف أشكالها، وبين الرجل والمرأة بشكل عام، ولوجدنا عبادة الأوثان سائدة، ولوجدنا التفرقة الكبيرة بين طبقات من الناس وأخرى؟. هذا قبل العصر الوسيط فكيف بالعصور التي سبقت الرومان واليونان بآلاف من السنين، أي عصور ما قبل التاريخ، العصور القديمة التي يفصل بيننا وبينها آلاف من السنين حيث لا عقيدة

ولا دين يردعهم، ولا يعرفون إلّا شريعة الغاب، وقوة الفرد الجبارة؟!.

وبما أن المرأة على مر الأجيال والأزمان، هي العنصر الضعيف دائمًا وأبداً تجاه الرجل، فإنها دائمًا تخضع لإرادته ومشيئته حيثما أراد هو، لا حيثما تريد هي، وهذه القسوة من الزوج والأب والأم والأخ وكل ما هو يمتلكها، جعلاها تكبت في داخل أعماقها عما يجول بفكـرها من ألم وعذاب لا يضاهيه آلام وعذاب حيوانات الغاب، وقسوة الأقدار التي هيأتها لأن تكون الأم والإبنة والخادمة لهم جميعاً بدون أن تنبث بأية كلمة، وتنفث عما يجول بخاطرها ومشاعرها من أحاسيس يعجز اللسان عن الإفصاح بها، وبما أن حريتها مكبلة، وإرادتها ضعيفة أمام الأقوى الذي سلبها إياها، فهي تعيش على هامش الحياة وكأنها سلعة أو متاع تباع وتشترى حسب البيئة الإجتماعية الموجودة فيها.

والمرأة منذ العصور الأولى ومنذ بدء الخليقة وحتى الآن في عصرنا الحالي كائن حي، يحس ويشعر ويتألم ويتعذب بصمت وبتؤدة، تقوم بكل أعباء الحياة الزوجية على أكمل وجه. ولا بد من التساؤل ما دمنا قد وصلنا إلى هذا الحد عن ماهية الأعمال التي ألقتها الطبيعة على عاتق المرأة وأجبرتها بموجب إعرافها وقوانينها وتقاليدها على أن تقوم بها؟ فهل هـذه الأعمال تعني بـالنسبة للمـرأة الأمومـة وتربيـة الأطفال التـربية الصحيحة ليكونوا عناصر فعالة في المجتمع الذي يعيشون فيه؟ أم خدمة الزوج وتلبية رغباته والسهر الدائم على راحته وتوفير السعادة له؟ أم وقفت نفسها وجهودها الجسمانية والعقلية عـلى الطبـخ والنفخ وتهيئـة الطعام فقط لأسرتها بدون أن تفكر بأنها عنصر فعّال في المجتمع ينهد إلى المساهمة الفعّالة في كل خطوة من خطواته نحو الرقي والتمدن إلى جانب الرجل تشاركه في أعماله وتساهم معه مساهمة فعّالـة في بناء الأسرة والمجتمع؟.

والإجابة عـلى هذه التسـاؤلات تنطلق من مـدى تطور المـرأة

وتقدمها في المجالات الثقافية والإجتماعية والعلمية، فمتى تحقق للمرأة المساواة والمشاركة مع الرجل لكي تستطيع أن تصل بسرعة إلى ما تصبو إليه من تقدم ومثالية.

وليس على المرأة إلا أن تحاسب **نفسها بنفسها لعلها تتمكن أن تجد** أمامها فسحة من الأمل تخوّلها لأن **تعيش حياة حرة تتساوى فيها مع** شريكها الرجل وتقوم بواجباتها على **أكمل وجه بدون كلل أو ملل.** وعندما تتكوم هذه المشاعر والأحاسيس في اعماق المراة العصريه، فلا شك أنها واصلة إلى تحقيق كافة أحلامها، فتصمد شامخة أمام عتو الرجل وظلمه واستعباده لها.

ولا نقول بأن هذا من الأمور المستحيلة، بل بإمكان كل امرأة أو أنثى باعتبارها كائن حي، تتمتع بكامل قواها العقلية، أن تحقق آمالها وأحلامها مهما اعترضت دروبها من عقبات، وتكوكبت في مسالكها الأشواك، فبإرادتها الصلبة ووعيها الكامل يمكنها التقدم والصعود في سلم المثالية والتطور.

وفي هذا المجال يقول الكاتب الفرنسي (أندريه مالرو): «لا بد للإنسان من أن يفهم أنه هو ربيب المعنى، وأنه لولاه لصار الوجود واقعاً غفلاً لا يعني شيئاً! وماذا تعني الحياة البشرية في النهاية إن لم يكن هو الإعتراف بأن الإنسان أعظم وأقوى من لا معقولية الأشياء!».

يعني على الفرد أنثى أو ذكر أو مجموعة أن يتسلطوا على الأشياء الموجودة على سطح السفينة ويخضعوها لإرادتهم، ويكونوا يداً واحدة محبة في تكوين مجتمع حي يبرز إلى الوجود والتطور بروح رياضية يربطهما الحب والتفاني في خدمة الكل الذي أوجدهم على سطح هذه السفينة بما فيها، حتى يكونوا فعالين في المجتمع والبيئة التي يحيانها، إنها بحاجة لهم وهم بحاجة لها لصعودهم إلى أوج الرفعة والسؤدد، والإرتقاء بالذات الإنسانية إلى الشعاع السرمدي الذي أنار طريقهم وأمدهم بالإمدادات

الخلقية المناقبية ليعرفوا ما هم عليه من حاجة ماسة إلى فهم الحياة بما تحمل في طياتها من معاني سامية خالدة إلى أبد الدهر.

وفي هذا الكتاب الذي نعالج فيه مشاكل المرأة عبر التاريخ، اعتمدنا على أوثق المصادر التي عالجت هذه الناحية الهامة من المجتمع الانساني، فعسى أن نوفق إلى تقديم صورة صحيحة عن المرأة في إطار عقلاني تاريخي يمكن القارىء من الإفادة من المعلومات والنصوص التي ندرجها في صفحات هذا الكتاب والله من وراء القصد.

بيروت في ١٩٨١/٦/٢٩
باسمة كيال

المجتمعات البدائية والأسرة:

يعتقد علماء الأنتروبولوجيا أن الأسرة كانت بالمجتمعات البدائية تقوم على الزواج التعددي الجماعي، والإتصال الجنسي الغير شرعي، والغير منظم ولا محدد. هذا الرأي يجعلنا أن نصف الإنسان البدائي بالتوحش وعدم إدراك حقيقة الحياة الإجتماعية إذا كان ما يقوله هؤلاء العلماء ينطبق على الواقع والحقيقة. ولكن الإكتشافات الحديثة التي قام بها بعض العلماء الإجتماعين تؤكد تفاهة هذه الآراء وعدم توافقها مع الواقع والحقيقة، باعتبار أن الإنسان إذا ما حاول التعرف على نظام الأسرة عند القبائل البدائية كقبائل جزر (أندامان) في المحيط الهندي، وقبائل (فيوجيان) في أقاصي جنوب أمريكا الجنوبية، وقبيلة (نامبيكوارا) في أواسط البرازيل، ورجال الغابات وسكان الأدغال في جنوبي أفريقيا، وغير هذه الأماكن التي لا يزال الإنسان يعيش فيها بصورة بدائية لا تختلف في شكلها وصورتها عن الصورة البدائية التي كان يعيش فيها الإنسان الأول، أو إنسان العصر الحجري، نجد أن هؤلاء يعيشون في زمر أو مجموعات صغيرة شبه بدائية، ومع هذا لهم بعض التنظيمات السياسية والإجتماعية بالرغم من إنعدام مستواهم التقني حيث لم تتيسر لهم معرفة الحياكة أو صنع الأواني، وحتى بناء الأكواخ بصورة جيدة.

أما من ناحية تكوين الأسرة لديهم، فهي تقوم وفق نظام الزواج الأحادي الذي يقوم أساساً على الاكتفاء بزوجة واحدة لرجل واحد، أو بالأحرى زوجاً واحداً لامرأة واحدة.

وإذا ما حاولنا التعرف على هذه الجماعات، نلاحظ أن الزوجين يرتبطان برباط عاطفي وثيق، وتعاون إقتصادى كبير، بالإضافة إلى إرتباطهما بتربية أولادهما الناتجين عن إتحادهما.

وهناك كما يلاحظ طريقتان لتفسير المكانة الرفيعة التي بلغتها الأسرة كوحدة إجتماعية قديماً وحديثاً في سلم تطور المجتمعات البشرية. فلقد زعم البعض أن الشعوب البسيطة يمكن اعتبارها من العصر الذهبي الذي مضى على الجنس البشري قبل أن تفسده الحضارة وتعقيداتها.

ويقول (كلود لفي شتراوس) في كتابه الإنسان والحضارة: «لا بد وأن الإنسان قد عرف نعمة الأسرة من الزواج الأحادي في تلك المرحلة الباكرة من التطور، ولكنه فقدها فيما بعد ليكتشفها مرة ثانية في الفترة المسيحية. وقد أخذ الإتجاه العام ـ عدا ما يدعى بمدرسة فيينا ـ يضم إلى صفوفه أعداداً متزايدة من علماء الأنتروبولوجيا الذي أخذت تتوافر لهم القناعة بأن الحياة العائلية موجودة عملياً في كل المجتمعات البشرية، حتى ضمن المجتمعات التي لها عادات ثقافية وجنسية تبتعد عن عاداتنا إلى حد كبير. وهكذا بعد أن زعموا على مدى الخمسين عاماً أن الأسرة في شكلها الحديث ليست إلاّ مؤسسة حديثة وثمرة تطور بطيء استغرق زمناً طويلاً جداً».

ويبدو أن علماء الأنتروبولوجيا أخذوا يتطلعون إلى قناعة مناقضة وهذه القناعة تعني بمفهومهم أن الأسرة القائمة على رباط دائم نوعاً ما، والموثقة إجتماعياً من رجل وامرأة وأطفالها، ما هي إلاّ ظاهرة عامة، وقائمة في كل المجتمعات وأنواعها.

ويبالغ كل من هذين الموقفين المتطرفين في التبسيط، فمن المعروف أنه لا يمكن الإدعاء بوجود الروابط العائلية في بعض الحالات النادرة كما هو عليه الحال لدى قبيلة (نايار) الكبيرة التي تعيش على ساحل (مالابار) في الهند. ففي القديم لم تكن تسمح حياة الغزو لرجال هذه القبيلة بتأسيس الأسرة، وكان الزواج مجرد احتفال رمزي ولم يكن ينتهي إلى رباط دائم بين الرجل والمرأة. ولقد كان يسمح في الحقيقة للنساء المتزوجات بالحصول على العدد الذي يرغبن به من العشاق، وينتمي الأطفال إلى نسب الأم، كما أن السلطة العائلية والتسلط على الأرض لم يكن يمارسها الزوج المؤقت بل أخوة الزوجة. وبما أن الأرض كانت تحرسهاطبقات إجتماعية دنيوية خاضعة للطبقة الحاكمة في القبيلة، فقد كان أخوة الزوجة أحراراً كزوجها المؤقت أو عشاقها ليكرسوا كل جهودهم للنشاطات الحربية.

لقد أسيء فهم حالة هذه القبيلة عدة مرات:

أولاً: لا يمكن اعتبارها دليلاً عن التنظيم الإجتماعي البدائي الذي ساد قديماً في أوساط الجنس البشري، بل على النقيض تماماً، تدل على نوع خاص من البناء الإجتماعي المعقّد، ولذلك لا يمكن إعتبارها دليلاً البتة.

وثانياً: هنالك بعض الشكوك حول تمثيل هذه القبيلة لاتجاه متطرف غالباً ما يتواتر في المجتمعات البشرية أكثر مما نظن.

وثمة أعداد كبيرة من المجتمعات البشرية قد حددت اعترافها بأشكال أسروية مختلفة رغم أنها تشتطّ بعيداً كقبيلة (نايار) في إنكار دور العائلة كوحدة إجتماعية. فمثلاً اعترفت كل من القبيلتين الأفريقيتين (ماساي وتشاكا) بالأسرة كوحدة إجتماعية، ولكن وللسبب نفسه الذي لدى قبيلة نايار لم يكن هذا صحيحاً بالنسبة للطبقة الفتية من الراشدين الذين كانوا يكرسون حياتهم للنشاطات الحربية أيضاً، ولذلك لم يكن

يُسمح لهم بالزواج وتكوين الأسرة. فلقد كانوا يعيشون في تنظيمات شبه عسكرية، وكان يسمح لهم بإقامة علاقات جنسية لا شرعية مع الفتيات الراشدات خلال تلك الفترة. وهكذا فضمن هذه المجتمعات كانت الأسرة قائمة جنباً إلى جنب مع العلاقات اللاشرعية: أي نوع من العلاقات اللاشرعية بين الجنسين.

ولقد ساد هذا النموذج المزدوج لأسباب عديدة في قبيلة (بورورو) وغيرها من القبائل في أواسط البرازيل، وفي قبيلة (موريا) وغيرها من قبائل الهند وآسام.. الخ. ويمكن ترتيب كافة الأمثلة المتوفرة لدينا بطريقة ما تجعل قبيلة (نايار) تبدو أكثرها تطرفاً، وتنظيماً، ومنطقية، لحالة قد تظهر ثانية في المجتمع الحديث ولو في حالة جنينية، وهذا ما وقع تماماً في ألمانيا النازية حيث بدأ يظهر صدع مماثل في وحدة العائلة. فالرجال من ناحية يكرسون أوقاتهم للنشاطات السياسية والعسكرية مع توفر حرية كبيرة لهم ناتجة عن وضعهم الرفيع كذكور. والنساء من الناحية الثانية يقمن بأعمال المنزل كالطبخ والكنس وتربية الأطفال. ويمكن للمرء أن يلاحظ جيداً أن هذا الإتجاه لو ساد لقرون عديدة بالرغم من الفصل الواضح بين مهمات الرجال ومهمات النساء بالإضافة إلى التمييز المرافق لمراتبهم الاجتماعية، لأدى إلى نوع من التنظيم الإجتماعي لا تنال فيه الأسرة إلاّ قليلاً من الإعتراف بها، كما هي عليه الحال ضمن قبيلة (نايار).

ولقد تجشّم علماء علم الإنسان الكثير من المتاعب خلال السنوات الحديثة لكي يبينوا أنه حتى بين الشعوب التي تمارس إعارة الزوجات إما مؤقتاً كما في الاحتفالات الدينية، أو على أساس رسمي، حين يسمح للرجال بالدخول في نوع صداقة الجمعيات التي ينتج عنها إعارة الزوجات بين الأعضاء، فإن هذه العادات لا يجب تفسيرها على أنها من بقايا الزواج الجماعي، لأنها في الحقيقة توجد جنباً إلى جنب مع وجود

الأسرة، بل وتتضمن الإعتراف بها، ولكي يعير الزوج زوجته يجب أن تتوفر له الزوجة أولاً.

ومن الملاحظ أن بعض القبائل الاوسترالية كقبيلة (وونا مبال) في الجزء الشمالي الغربي من تلك القارة يوصم الرجل الذي لا يعير زوجته إلى أزواجها المحتملين في الإحتفالات على أنه زوج شره جداً، أي أنه يحاول أن يحتفظ لنفسه فقط بامتياز تقصد به المجموعة الإجتماعية أن يشارك فيه عدة أشخاص، ولهم الحقوق المتساوية نفسها فيه. وبما أن هذا الموقف من الإتصال الجنسي بالمرأة هو من صلب العقيدة الرسمية، فإن الأزواج ليس لهم أي قسط في النسل الفيزيولوجي - وهكذا ينكرون بشكل مضاعف أي نوع من الإرتباط بين الزوج وأطفال زوجته - وتصبح الأسرة مجرد مجموعة إقتصادية يجلب فيها الرجل نتاج صيده، والمرأة نتاج جمعها من الأغذية.

وعلماء علم الإنسان الذين يزعمون أن هذه الوحدة الإقتصادية القائمة على مبدأ (خذ واعط) هي برهان على وجود الأسرة حتى بين أدنى المتوحشين؛ ولا يستندون بالتأكيد إلى قاعدة أصلب من أولئك العلماء الذين يعتقدون أن مثل هذا النوع في الأسرة ليس له علاقة بالأسرة أكثر من الإسلام.

وإذا ما تطلعنا إلى الأسرة المتعددة الزوجات أو الأزواج، أي ذلك النظام الذي يسمح بعدد من الزوجات لزوج واحد، أو عدد من الأزواج لزوجة واحدة، نلاحظ بأن الأسر ذات الزواج الأحادي ليست سوى مجالاً يلعب فيه الزوج دور الأزواج المتعددين. فعلى سبيل المثال في بعض قبائل (البانتو) الأفريقية تعيش كل زوجة في كوخ منفصل مع أطفالها لا تقترب بأية حال من الأحوال من مجموعة النساء الأخريات اللواتي يخصّن زوجاً واحداً هو نفسه زوجها بالذات، رغم أن هذا الزوج نفسه يلعب دور الأزواج المتعددين وكذلك يلعب دور الزوج

الأحادي مع كل زوجة من زوجاته.

وإلى جانب هذا المثال الذي قدمناه توجد أمثلة أخرى لا يكون الموقف فيها على هذه الصورة. ففي قبيلة (تيوبي) الموجودة في وسط البرازيل ربما تزوج الزعيم عدة زوجات، وقد يكنّ أخوات، وحتى أم وبنات لها من زواج سابق، ويربي الأطفال الذين يعيشون مع بعضهم البعض مع الزوجات اللواتي لا يبدو عليهن كبير اهتمام إن كان الأطفال أطفالهن أم أطفال غيرهنّ، كما أن الزعيم يعير عن طيب خاطر زوجاته لإخوته الصغار، أو لبعض ضباط حاشيته، أو يضعهن تحت تصرف زواره. وليس في هذه الحالة كما يقول (كلود لفي شتراوس) جمع لتعدد الزوجات والأزواج إنما هذا الإختلاط يزداد حتى أكثر من ذلك إذا ارتبطت الزوجات بروابط وثيقة قبل زواجهن من الرجل نفسه، وقد شاهد (كلود) امرأة وابنتها وهما متزوجتان من رجل واحد وكانتا تعنيان بأطفاله من زوجته السابقة.

وقد تتعدد الأمثلة على تعدد الأزواج من منطقة إلى أخرى أو من إقليم الى إقليم، فتتخذ أشكالاً متطرفة أحياناً كما هو الأمر في قبيلة (تودا) حيث يشترك عدة رجال - وإخوة عادة- بزوجة واحدة. والأب الشرعي للأولاد هو من يقوم باحتفال خاص، ويصبح أبا شرعياً لكافة الأطفال الذين سيولدون حتى يقرر أب آخر أن يحصل على حق الأبوة بالأسلوب نفسه.

وفي التيبت ونيبال يتعلل تعدد الأزواج بعوامل مهينة من النوع ذاته الذي وصفت به قبيلة (نايار): فبما أن الرجال يعيشون حياة شبه بدوية كمرشدين وحمالين، فإن تعدد الأزواج يهيء فرصة طيبة بحيث يكون زوج واحد - في كل الأوقات - جاهزاً ليعتني بالأمور البيتية. إذا كان من الممكن الحفاظ على شخصية الأسرة الشرعية والإقتصادية والعاطفية حتى في إطار تعدد الأزواج أو الزوجات، فليس من المؤكد

أن الشيء نفسه يمكن أن يكون صحيحاً حين وجود تعدد الزوجات جنباً إلى جنب مع تعدد الأزواج. لقد كان هذا هو واقع الأمر، كما رأينا من قبل، إلى حدّ ما ضمن قبيلة (تيوبي - كـواهب) حيث وجد تعـدد الزوجات - كإمتياز للزعيم على الأقل - بالإضافة إلى وجود نظام معقد لإعارة الزوجات الأصغر سناً، للمساعدين والضيوف من قبائل أخرى.

وهنا يمكن للمرء أن يقول أن الرباط بين المرأة وزوجها الشرعي كان يختلف في شدته أكثر منه في نوعيتـه، عن سلسلة من الروابط الأخرى التي يمكن ترتيبها طبقاً لقوتها المتناقضة، من الرباط الشرعي، إلى عشاق نصف دائمين، إلى العشاق المؤقتين. ولكن حتى في تلك الحالة كان يتحدد وضع الأطفال بالزواج الشرعي، وليس بأي نوع من الإرتباطات الأخرى.

ويحـاول (كلود لفي شتـراوس) الاقتـراب ممـا يسمى بـالـزواج الجماعي، فيرى أن قبيلة (تودا) خلال القرن التاسع عشر قد طبقت نظام تعدد الأزواج بسبب أسلوب قتل البنات، ولكن الإدارة البريطانية قد رفضت هذا النظام باعتبارها كانت تسيطر على تلك البلاد، فأعادت الاعتبار الطبيعي الجنسي لهم، ولكن هذه القبيلة قد واصلت العمل بنظام تعدد الأزواج، غير أنها اقتصرت من عدد الأخوة الذين يشاركون بامرأة واحدة، وأجازت لهم أن يتزوج كل واحد منهم بعدد من النساء. وعلى هذه الصورة نلاحظ أن أشكال التنظيم التي تبدو أبعد ما يكون عن العائلة الثنائية، لا تحدث في أكثر المجتمعات البدائية قدماً، ولكن في الأشكال الحديثة نسبياً والمعقدة إلى حد متـطرف من أشكال التـطور الاجتماعي.

وانطلاقاً من هذه الآراء المتعلقة بالأسرة الواحدية والثنائية، يمكننا أن نؤكد بأن تكوينات الأسرة البدائية لعناصر الجنس البشري قد عرفت منذ وجود الإنسان على هـذه البسيـطة الحيـاة الإجتماعيـة بمفهومهـا

الأحادي، والمتعدد. والأمثلة التي قدمناها تعطينا الدليل الواضح بوجود مجتمع بشري راسخ منذ القدم، وقد تطور هذا المجتمع بأشكاله المختلفة والمتنوعة حتى أصبح كما هو عليه في عصرنا الحاضر يتألف في عناصره الأساسية، من الزوج والزوجة والأطفال الذين جاؤا إلى هـذا العالم نتيجة ذاك الزواج وأصبحوا نواة الخلايا الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع الحديث وفق نظام وقانون يحدد واجبات الزوج والزوجة نحو أطفالهم ونحو مجتمعهم ويشد بعضهم إلى بعض بموجب علاقات شرعية حقـوقية وواجبـات اقتصاديـة ودينية تحـدد معالم العـلاقـات الجنسيـة والأحاسيس النفسية المتعددة، والعواطف المتبادلة بين الشريكين اللذين تعاهدا على الاخلاص والوفاء مدى العمر.

الحياة الزوجية والأسرة:

إذا قلنا بأن الزواج في العصور السابقة كان اما أحادياً أو متعدداً، فلابد لنا من الإشارة إلى أن الزواج الأحادي ليس متواتراً أكثر من الثنائي فحسب، بل كان أكثر من أن يكون ابتكاراً خاطفاً للمجتمعات البشرية وتقليداً عاماً تسير بموجبه أغلب الخلايا الاجتماعية التي كانت معروفة في ذلك الوقت والتي كانت تعرف بالمجتمعات ذات الـزواج المتعدد.

ويبدو من خلال دراسة تلك الأنظمة ذات النظام المتعـدد أن الزوجة الأولى التي كانت وحدها هي الزوجة الحقيقية، تتـمتع بكامل حقوقها الشرعية، بينما الزوجـات الأخريـات اللواتي كنّ لسنا سـوى محظيات في أكثر الأحيان. لذلك بمقدورنا إستناداً على هذه الحقائق أن نعتبر صاحبة الامتياز الأول في الأسرة البدائية هي الزوجة الأولى، وهذا ينطبقعلى الغالب على أكثر المجتمعات التي عرفت بتعدد الزوجات والتي لا يتمتع فيها بكامل الحقوق الشرعية والعرفيـة إلاّ بعض الزوجـات بصورة إستثنائية. وهذا واضح بكل سهولة لأن عدد الرجال والنساء في

أي تجمع اعتباطي هو نفسه على الغالب بمعدل طبيعي يقارب ١٠٠ إلى ١١٠ لصالح أحد الجنسين، لذا وجب أن تتوفر بعض الشروط لكي يصبح تعدد الزوجات ممكناً:

١ ـ أما ان أحد أطفال الجنسين يقتل إرادياً، والمثال على ذلك كما كان يجري في قبيلة (تودا) كما أسلفنا سابقاً، أو أن ظروفاً خاصة تبرر اختلاف متوسط أعمار أحد الجنسين كما هي عليه الحال بين الأسكيمو وبعض القبائل الأوسترالية حيث يموت العديد من الذكور شباباً بسبب حرفهم وأعمالهم الخطرة كصيد الحيتان عند الأسكيمو، والحروب عند القبائل الأوسترالية.

٢ ـ عندما يتوفر مجتمع هرمي يتكون من الزعماء ورؤ ساء القبائل والكهنة والسحرة حيث يحتكر أمثال هؤ لاء المتزعمين أكبر عدد ممكن من النساء على حساب الشبان الفقراء.

وهذه البوادر ظاهرة في المجتمعات الأفريقية حيث يتمتع المتزعم أو الرئيس بالمال الوفير وبالغناء الفاحش مما يسهل له الوصول الى أكبر عدد ممكن من الزوجات والمحظيات كونه قادراً على دفع ثمن الزوجة التي يختارها من أفراد العشيرة أو القبيلة.

ومما يلاحظ أن هؤ لاء الأغنياء إنما كانوا يقدمون على الاكثار من الزيجات لمنافع مادية خالصة على الغالب كون المرأة التي تصبح زوجة جديدة تضاف إلى زوجات هذا الغني، لها قيمةاقتصادية، ومنافع مادية تزيد في ثروته حتى يتمكن من استخدام العديد من النساء اللواتي يساعدن في الانتاج والعمل وتضخيم الثروة.

وانطلاقاً من هذه الآراء يمكننا أن نقول بأن الممارسة المنظمة بتعدد الزوجات مقيدة آلياً بتغيير بنية المجتمع التي من الممكن أن يؤ دي إليها

هذا النظام الذي كان يسود بعض المجتمعات البدائية، لذلك لا نستغرب شيوع الزواج الأحادي في المجتمعات البشرية وسيادته.

ويحدثنا (كلود لفي شتراوس) عن هذه المشكلة فيقول: «ويدل تعدد الزوجات بأشكال مختلفة وفي نماذج عديدة من المجتمعات على أن الزواج الأحادي ليس متأصلاً في طبيعة الانسان، كما أن انتشاره ناتج عن حقيقة وجود زوجة واحدة تقريباً لكل رجل واحد ما لم تنشأ ظروف خاصة إرادية أو لا إرادية. وأن الأسباب الاخلاقية والدينية والاقتصادية في المجتمعات الحديثة قد صدقت الزواج الأحادي (وهو قانون يطبق عملياً ولكنه يُخرق بوسائل عديدة كحرية ما قبل الزواج، والبغاء، والزنى). ولكن في المجتمعات التي هي في مستويات حضارية أدنى وحيث لا يوجد تحيز ضد تعدد الأزواج أو الزوجات - بل ويسمح بالتعدد عملياً، أو هو أمر مرغوب على الأقل - يمكن أن نصل الى النتيجة نفسها بسبب فقدان التمايز الاجتماعي أو الاقتصادي حيث لا تتوفر للرجل، لا الوسائل ولا القدرة على أن يحصل على أكثر من زوجة واحدة، وحيث يصبح كل إنسان بالنتيجة مجبراً على أن يعمل من الحاجة فضيلة».

ويضيف (لفي شتراوس) الى ذلك قائلاً: «واذا كان ثمة نماذج مختلفة تلاحظ في المجتمعات البشرية - سواء كانت ذات زواج أحادي أو متعدد، أو كليهما معاً، وسواء كان الزواج بالمقايضة أو بالشراء، وسواء كان بالاختيار الحر، أو مفروضاً من العائلة.. - فالحقيقة الساطعة هي وجود تمييز في أي مكان ما بين الزواج والشاري (أي عقد مصدق من الجماعة بين رجل وامرأة) وبين نوع الارتباط الدائم أو المؤقت الناتج عن الصنف أو الموافقة، ولا فرق في أن يكون تدخل الجماعة بارزاً أو طفيفاً، والشيء الهام هو أن لكل مجتمع طريقته في التمييز ما بين الارتباطات الحرة والارتباطات الشرعية، كما أن هنالك مستويات متعددة

لصياغة هذا التمييز:

أولاً: كل المجتمعات تقريباً تمنح الزواج منزلة رفيعة، وحيثما وجدت درجات الأعمار، إما عن طريق مؤسسات أو كأشكال تجمع غير متبلورة، فقد قام ارتباط وثيق ما بين المجموعة المراهقة الشابة والعزوبة، وثمة مجموعات أصغر سناً ومتزوجون بلا أطفال، وحالة بلوغ بكامل الحقوق إلى حين ولادة الطفل الأول. ولقد اعترف بهذا التمييز الثلاثي ليس بين عدة قبائل بدائية فحسب بل وأيضاً في المجتمع الفلاحي لأوروبا الغربية - حتى ولو كان بهدف الولائم والاحتفالات فقط حتى بداية القرن العشرين».

ويلاحظ (لفي شتراوس) أن شعور التقزز الذي يسيطر على بعض المجتمعات نحو العزوبة وخاصة ضمن القبائل البدائية التي تعتبر حياة العزوبية معدومة فيها أو بالأحرى شبه معدومة نظراً لأن العزوبة تكسب الفرد إهمال نفسه وجسده فتداهمه الأمراض مما يضطره إلى الإبتعاد عن كل ما يتعلق بمجتمعه من عادات وتقاليد، وفي أغلب الأحيان ينزوي في خيمته والحسرة تملأ قلبه وهو يستعرض أيام شبابه الماضية كيف لا وقد أصبح وحيداً بلا زوجة تشرف على شؤونه، ولا ولد يحمل اسمه وينافح عن سمعته وقبيلته.

هذا هو واقع الرجل العازب في الحياة القبلية، أما حقيقة الرجل العقيم، فإذا كان بمقدوره بالفعل أن يكسب رزقه غير أن شعوره بأنه ليس كاملاً بالمعنى الحقيقي كرجل يتمتع بكامل صفات الرجولة كتلك التي يصل إليها الجد أو الجدة عن طريق الأحفاد.

وهذه الحالة تنطبق على الرجل اليتيم أيضاً كونه يعامل في مجتمعه القبلي كما يعامل الرجل العازب أو الفرد المصاب بأية عاهات جسدية منعته هذه العاهات من الزواج وتكوين العائلة وإنتاج البنين والبنات.

ويعتبر أمثال هؤلاء المنبوذين من المجتمع القبلي كأنهم قد أصيبوا بلعنة سحرية أو بتأثير القوى الماورائية.

وعلى العموم يمكننا أن نقول بأن الزواج لم يعد مجرد ظاهرة سيكولوجية تهم الفردين اللذين اختار كل منهما الآخر، ولكنه أصبح عبارة عن ظاهرة اجتماعية ينبغي على المجتمع قبولها والتصديق بها. لذلك نلاحظ أن أغلب المجتمعات الإنسانية تعترف بشريعة الزواج أو عدمها، وهذا الإعتراف يجسد الصفة الجمعية التي يتخذها الزواج حينما يصبح عقداً رسمياً مسجلاً لدى الدوائر المسؤولة في الدولة أو المجتمع.

وعندما يوقع هذا العقد ويعترف به رسمياً لم يعد مجرد مسألة فردية تخص شخصاً أو شخصين، وإنما يصبح ركيزة ثابتة من نظام الدولة والمجتمع. وفي الحقيقة أنه لما كان للزواج نتائج تتعدى الزوجين وتشمل الأبناء الذين هم نتيجة لهذا الزواج، فقد أصبح من الضروري أن تتدخل المجتمعات في إرادة الأفراد، لصيانة مستقبل الأبناء وحمايتهم من الأخطاء الناتجة عن الإهمال أو التربية السيئة من قبل الآباء.

لهذه الأمور أوجبت معظم القوانين والشرائع من أجل حماية الأسرة أن يكون الزواج قائماً على الثبات والاستمرار، لأن في هذا الاستمرار مصلحة الوالدين من ناحية، ومصلحة الأبناء من ناحية أخرى، ولا يمكن أن يعطي الزواج كل ثماره إلّا إذا نظر إليه على أنه رباط أبدي لا انفصام له، وإلا لكان في إمكان أي طرف من الطرفين ولأتفه الأسباب أن يعود عنه في أية لحظة.

ولهذا لا بد للرابطة الزوجية من أن تكون دائمة حتى يتسنى للوالدين أن ينهضا بتربية أبنائهما، ومن مصلحة المجتمع أن تكون الرابطة الزوجية متينة غير معرضة للانهيار وإلّا لأصبح الإتحاد الحرّ هو الشرعة السائدة في المجتمع نتيجة لوجود الطلاق. ومن المؤكد أن

المجتمع الذي تسيطر عليه الصلات الجنسية الحرة لا بد من أن تتولد فيه أدوار اجتماعية خطيرة تؤدي بصورة حتمية إلى الانهيار الخلقي. وهذه الأسباب جميعها هي التي تجعل من الأسرة نظاماً اجتماعياً تحرص كل المجتمعات في كافة الظروف والأوقات على التمسك به واستبقائه قوياً صلباً لا تؤثر فيه عواتي الأيام، وظروف الأحمال، كونه دعامة متينة للمجتمعات السليمة.

ويذهب علماء الاجتماع إلى أن الأسرة ليست سوى مجمع صغير يتشكل من والدين يتبادلان المحبة ويتقاسمان المسؤولية، ومن أبناء يقوم الوالدان على تربيتهم واعدادهم لمستقبل يضمن لهم وسائل العيش المادية والاجتماعية والنفسية. والأسرة في مجتمعاتنا الحالية يمكن أن تقوم بعدة وظائف مفيدة وهامة نلخصها بما يلي:

١ ـ إنها تكفل للعلاقات الجنسية أكبر قيمة عاطفية ممكنة.

٢ ـ إنها تتعهد الأطفال بالتربية في وسط تعاطفي قائم على الحكمة والتعقل.

٣ ـ إنها تعد الفرد للحياة الجمعية القائمة على الأخذ والعطاء.

٤ ـ إنها تعد الطفل بطريقة لا شعورية لحياة زوجية مرضية في المستقبل.

وهذا يعني أن الأسرة ـ لا الفرد ـ هي الخلية الإجتماعية الأولى أو الوحدة الجمعية الحقيقية. وعلى الرغم من أن المجتمع الأسري قد أصبح في هذه الأيام هدفاً للكثير من التجنيات، فضلاً عن أنه قد تعرض لأخطار الانحلال في بعض المجتمعات الأوروبية والأمريكية، فإن الأسرة لا زالت هي الخلية الاجتماعية الأولى.

ويرى علماء الاجتماع أن الآراء قد اختلفت حول الأصل الذي صدر عنه نظام الأسرة، فظهرت في هذا المجال نظريتان رئيسيتان:

النظرية التطورية والنظرية الاجتماعية. وسنستعرض لبعض معالم هاتين النظريتين تعميمًا للفائدة.

إن الفكرة الأساسية التي تقوم عليها النظرية التطورية هي أن الأشكال العليا للتفكير والحضارة مثلها كمثل الأشكال العليا للكائنات الحية قد صدرت بطريق التطور عن الأشكال الدنيا. وانسجاماً مع ذلك فإننا اذا رغبنا أن نجد الأصل الذي صدرت عنه البشرية، فليس علينا إلّا أن نصف النماذج البشرية المختلفة أو النظم الاجتماعية المتعددة معتمدين على درجة كل منها من الكمال، وعندها سوف نعثر على أن أكثرها نقصاً هو بالضرورة أقربها إلى البدائية.

وعندما نحاول أن نطبق هذه الفكرة على النظام العائلي نلاحظ أنه لا بد أن يكون الاجتماع البشري قد بدأ باتخاذ صورة فوضى جنسية تشبه الحالة التي يحيا عليها الحيوان. ثم لم يلبث الأبناء إن التفوا حول الأم، بينما ظلّ الأب مجهولاً أو بالأحرى شبه مجهول، فظهر النظام الأموي، وتطور نظام الأسرة من جديد، فظهر النظام الأبوي الذي أصبح فيه الرجل هو رأس الأسرة.

ولقد قام النظام الأبوي في الأساس على تعدد الزوجات، ثم لم يلبث إن استحال إلى نظام واحدي يقترن فيه الرجل بزوجة واحدة. ولكن الأسرة بعد أن وصلت الى نهاية مراحل تطورها، لن تلبث أن تنحدر من جديد، فيعود الاتصال الجنسي الحرّ إلى الظهور، بعد أن تكون الأسرة قد اجتازت مرحلة انتقال يتخذ فيها الطلاق ظاهرة اجتماعية مشروعة.

وإذا ما حاولنا الاطلاع على تاريخ البشرية نلاحظ أن الشيوعي (كارل ماركس) قد حاول أن يدخل هذه النظرية في صميم ماديته التاريخية، فذهب إلى أن الزواج الواحدي ليس إلّا« بناء فوقياً» للاقتصاد الرأسمالي، لأن أهداف الوالدين هي توريث أبنائهم من بعدهم كل ما

يمتلكون، لهذا توجهت البشرية إلى الأخذ بالنظام الواحدي في الزواج.

ولقد دافع عن هذه النظرية بعد ماركس (انجلز وبيبل) واعتبراها نظرة اشتراكية الى الأسرة حتى تزول الرأسمالية، لذلك لا بد من أجل تكوين الأسرة من أن يخضع هذا التكوين لتغير جوهري. وحينما تتحول أدوات الانتاج الى الملكية المشتركة، فإن الأسرة الفردية لن تعود هي الوحدة الاقتصادية للمجتمع.

وهذه النظرية تفسر لنا أن الاقتصاد العائلي سرعان ما يستحيل إلى اقتصاد اشتراكي، وتصبح التربية اللازمة للأبناء عملاً جماعياً تقوم وتشرف عليه الدولة، وسيكون على المجتمع أن يأخذ على عاتقه رعاية الأطفال جميعاً شرعيين كانوا أو غير شرعيين.

وانطلاقاً من هذه الأفكار الماركسية الشيوعية لا بد من أن يكتب على قمم الأعقاب، الزوال والانقراض بسبب الباعث الاجتماعي الجوهري الذي لا زال حتى هذه الأيام يقف سداً منيعاً بين الفتاة وبين أن تمنح نفسها بدون خوف أو تردد لذلك الرجل الذي تريده.

ويعتقد علماء الاجتماع الذين ناقشوا هذه النظرية التطورية حول تعليل نشأة الأسرة، أنها لا تستند على وقائع ثابتة، بل تقوم على مسلمة لا دعم لها من الحقيقة والواقع. وليس أدل على صحة هذا النقد من أن البحوث الأنتروبولوجيا التي قام بها علماء الأجناس لم تكن مؤيدة لهذا الهدف التطوري.

وفي الحقيقة أن الافتراض الذي يرى أن النظام الأسري قد عبر مرحلة الفوضى الجنسية، ثم مرحلة النظام الأموي، ثم مرحلة النظام الأبوي، هو مجرد فرض لا ينهض على صحة أو دليل. ذلك ما أكدته الدراسة التي قام بها بعض علماء الاجتماع والذين ذهبوا الى أن النظرية التطورية ليست سوى حالة وهمية لا نجد لها نظيراً في أي مجتمع من

المجتمعات، وأنه ليس ثمة ما يثبت أن هذه الحالة قد وجدت في أية مرحلة من مراحل تطور البشرية.

ويبدو أن الذي دفع أصحاب نظرية التطور الى افتراض وجود مثلها هو أنهم وجدوا في الزواج الواحدي أعلى صورة من صور النظام العائلي، فكان لا بد لهم من أن يفتشوا عن أدنى صورة من صور الزواج حتى يجعلوا منها نقطة البدء في هذا النظام الاجتماعي المعقد.

واذا حاولنا معرفة جذور النظام العائلي من خلال المعلومات التي تتوفر لدى أصحاب المدارس الاجتماعية، لمسنا أن بعض هؤلاء العلماء يذهب إلى أن الأسرة لا تقوم على صلات الدم أو رابطة القرابة، وإنما انبثقت جذورها من وحدة التوتم، أي عن طريق انتماء وانتساب الأفراد في العشيرة أو القبيلة أو الفخذ الى توتم واحد. والتوتم كما هو معروف عبارة عن مثال نباتي أو حيواني، أو أي مظهر من مظاهر الطبيعة، تجعله العشيرة أو القبيلة رمزاً لها، ويجسد معها وحدة اجتماعية وتمنحه كل صفات القدسية[١].

وانسجاماً مع هذه النظرية التوتمية فإن المجتمعات البدائية لم تعرف الفوضى الجنسية أو بالأحرى الزواج الجمعي، وإنما كانت تمارس منهج التطوريين الاتنوجرافي، الذي يعني أن الرجل كان في هذا المنهج التطوري مجبراً على الزواج من خارج عشيرته، كون نظام التحريم والمنع كان يشمل كل نساء العشيرة ممن يتبعن توتم عام واحد.

وانطلاقاً من هذه الأفكار يرى علماء الاجتماع أن أول شكل من أشكال الاجتماع العائلي كان يجسد في العشيرة التوتمية التي تتألف من أفراد يعتقدون بينهم وبين أنفسهم أنهم ينحدرون من أصل واحد تجسده وحدة التوتم. ثم لم يلبث النظام الأموى أن ظهر الى عالم الوجود،

---

(١) الأسرة والمجتمع ـ علي عبد الواحد ـ ص (٥ـ ٧).

فأصبحت الأم هي الواسطة التي تنتقل عن طريقها الحقوق المختلفة الى الأفراد وأصبح الطفل يتخذ توتم أمه مع كل ما يتوجب عليه من حقوق.

ولهذا نفهم من علماء الاجتماع ان الابن كان يرث عن أمه لقبها، فيصبح اسمه مقترناً باسمها. ثم تطور النظام العائلي بطريقة تدريجية حتى بلغ مرحلة النظام الأبوي التي تعطي الأبناء حق اكتساب لقب الأب، أو بصورة أوضح توتم الأب. وبعد أن كان السلف في هذا النوع من الأسرة هو الرئيس والحاكم المطلق، أصبحت الجماعة العائلية أو المجتمع الأسري يتكون من الزوجين وأبنائهما، وأصبح الأب هو عميد الأسرة التي جعلته مع الزوجة يتمتعان بحقوق متساوية.

وانطلاقاً من هذه الصورة أصبحت المواريث في أغلب البلاد الأوروبية تنتقل عن طريق النساء كما تنتقل عن طريق الرجال، وأصبح حق المرأة المتزوجة مكفولاً تمارسه ضمن حقوقها المدنية.

ولكن هذه الأفكار على الرغم من انتشارها الواسع على مختلف الأشكال فإنها قد لاقت بعض النقد والمعارضة من قبل بعض علماء الاجتماع واعتبرت مبالغاً فيها ولا تنسجم مع الحقيقة والواقع. فالاعتقاد بأن العشيرة تستوعب الأسرة خطأ لا يمكن أن يدلنا على الطريق القويم، لأن العشيرة لم تتمكن في يوم من الأيام أن تستأصل الأسرة أو تحل محلها، بل كانت في الحقيقة مجرد وحدة أخرى تزيد من صعوبة الروابط الاجتماعية بزياداتها لصلات الفرد الواحد.

ولم يكن نظام العشيرة بمثابة نظام كلي ساد عند كافة الشعوب البدائية. أما نظام الأسرة فقد كان على العكس من ذلك مطبق بعناية ودقة عند كافة هذه الشعوب البدائية. لهذا فقد رأينا انطلاقاً من هذه المبادىء أن التوتمية ليست هي الصورة البدائية للأسرة، والأدلة على ذلك كثيرة يمكننا أن نستخلصها من بعض القبائل والشعوب البدائية

التي عرفت كلها نظام الأسرة الواحدية القائمة على تساوي الحقوق وثباتها. ولهذا بمقدورنا أن نؤكد بأن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية الأولى، لا في المجتمعات الحديثة فقط، وإنما في المجتمعات البدائية أيضاً.

وإذا كانت الأسرة قد وجدت منذ وجود هذا الكون، وظهر فيها هذا النظام وخاصة عند بعض الحيوانات العليا، فإنه لا بد من أن يكون لهذا النظام الاجتماعي دلالة وأهمية.

ويعتقد علماء الاجتماع الذين ناقشوا هذه الأمور كثيراً أن هذا النظام انبثق من حاجة الفرد، دون أن يكون قد فرض عليه فرضاً، فلا بد من أن يكون نظاماً قوياً متين الدعائم والمرتكزات.

واذا كانت الطبيعة نفسها - حتى قبل تدخل اليد البشرية - قد عملت على ظهور المجتمع العائلي، فإنه ينظر إلى هذا النظام الاجتماعي الغريب على الرغم من مرور الأيام وتعاقب الدهور على أنه عبارة عن معالم تدل على أن الأم كانت مجبرة على رعاية أبنائها والاستقرار معهم ضمن حياة عائلية منتظمة، تتولى ادارة شؤون الأسرة، كما كانت الملكية تنتقل منها إلى أولادها.

كيفية اختيار الزوجة:

إذا اعتبرنا عملية اختيار الزوجة عملية سيكولوجية يؤديها الفرد عندما يحدد «موضوع حبه» معتمداً على بعض العوامل الإجتماعية والأخلاقية والنفسية، نكون قد وصلنا إلى التقرير الواضح الذي يرى أنه ليس هناك ثمة انتقاء مطلق الحرية في هذا الموضوع. فالرجل كما هو معروف في أغلب الأحيان يختار زوجته من الوسط الذي يعيش فيه وفق بعض الشروط المتعلقة بالسن، والحالة الاقتصادية، والبيئة الثقافية، والمكانة الاجتماعية.

ولكن من الملاحظ في هذا العصر المتقدم أن آفاق الرجل قد أخذت بالإتساع، فأضحى يتصل ببيئات جديدة، ويكوّن صداقات عديدة، كما أصبح يغض الطرف عن بعض الشروط الاجتماعية التي كان ينظر اليها نظرة هامة كأجداده، ومع كل هذا فإن إختيار الشريك لا زال مقيداً ببعض الشروط الإجتماعية التي يفرضها المجتمع على أفراده.

ومن الملاحظ عبر تاريخ الإنسانية الطويل أن الرجل كان يأخذ شريكة حياته، أو الفتاة التي يريدها أن تكون زوجة له وأم لأولاده عن طريق الخطف معتمداً على القوة، ثم تطور هذا النظام مع مرور الأيام فأصبح الرجل يشتري زوجته بالمال، أو عن طريق المبادلة. وكان الشاب طالب الزواج يدفع هو أو أبوه، أو أسرته مبلغاً من المال يحدده ذوي الفتاة مقابل الحصول عليها ليتزوجها، وإذا كان عاجزاً هو أو أسرته عن دفع هذا المبلغ يشتغل طالب الزواج عدداً من السنوات في أملاك أهل الفتاة حتى تصبح الفتاة ملكاً له، كما فعل يعقوب عندما حصل على راحيل زوجة له.

وبعد مرحلة من تطور المجتمع في تلك الأوقات اشترط للزواج موافقة الأهل أو المسؤول عن الفتاة، فأضحى رأي العائلة أساس كل عقد زواج، ولم يكن للفتاة أن تتخذ أي قرار للاعراب عن قبولها أو رفضها، وإنما كان عليها أن تطيع وتنفذ أوامر رب العائلة، الذي لم يكن بدوره يراعي في قبوله أو رفضه سوى مصلحة الأسرة وسمعتها وشرفها الاجتماعي.

وأخيراً وبعد مخاض عسير وطويل أصبح الزواج مبنياً على الموافقة الشخصية التي تعلن عنها الفتاة، ولم يبق في مقدور أحد ـ في معظم المجتمعات الحديثة ـ أن يفرض على المرأة قبول زوج لا ترغب فيه، ولم يعد في وسع الآباء أن يتدخلوا تدخلاً مباشراً أو غير مباشر في تحديد مصير ومستقبل بناتهم الزوجي.

ورغم كل هذا التقدم والتطور الذي أصاب المجتمعات الحديثة، فلا يمكننا أن ننفي ما للعادات والتقاليد الاجتماعية من دور فعال في تحديد أسلوب كل مجتمع من المجتمعات، بل وكل بيئة من البيئات، في عملية «الاختيار الزوجي».

وتبدو معالم المجتمع واضحة في تحديد سن الزواج، حيث أن بعض المجتمعات لا زالت تؤيد الزواج المبكر، بينما نلمس مجتمعات أخرى قد ابتعدت عن هذا الأسلوب المتأخر، ووافقت على ضرورة اقتران الزواج باكتمال النضوج في الشخصية.

المرأة وحرية الاختلاط:

إذا نظرنا إلى تاريخ المجتمعات البشرية منذ البدء نلاحظ أن حرية الاختلاط بين الجنسين هي الطابع الغالب على المجتمعات القبلية، فإن الإتجاه نحو تقييد هذه الحرية هو على العكس الطابع الغالب على المجتمعات المدنية.

وقد نتساءل عن الأسباب التي تؤدي إلى هذا التحول في النظرة إلى العلاقات بين الجنسين؟ وفي اعتقادنا أن هذا التطور يرجع في الدرجة الأولى إلى الرغبة في ضمان عفة النساء، وبالتالي في تحقيق الهدف الذي تعلق عليه المجتمعات المدنية أهمية بالغة، إلا وهو شرعية النسل. ففي المجتمعات المدنية على خلاف الحال في المجتمعات القبلية، ويعلق الرجل أهمية كبيرة على أن يكون الأولاد الذين يولدون له من زوجته قد جاءوا حقيقة من صلبه.

ومن الملاحظ أن فرصة المرأة في المجتمع المدني للاتصال بغير زوجها دون إفتضاح أمرها أكبر منها في المجتمع القبلي، حيث أن المجتمع في المدينة على خلاف المجتمع في المضرب أو القرية، واسع

الأرجاء لا يكاد يعرف بعضه بعضاً، ولا يفني البعض نفسه بشؤون البعض الآخر.

وإذا عرفنا أن المجتمعات المدنية يسودها على الأقل في فترات معينة جو من الانحلال والترخص الجنسي بسبب كثرة الأرقاء لا سيما من النساء، أدركنا لماذا يستبد القلق بالرجال ويسيطر عليهم الخوف من عدم وفاء زوجاتهم، وبالتالي الخوف من أن تلد زوجاتهم أولاداً ليسوا من صلبهم. ومن الطبيعي في مثل هذه الظروف أن يفكر الرجال في وسيلة يزيلون بها مخاوفهم، ويؤمنون عن طريقها شرعية نسلهم، وكانت حصيلة هذا التفكير وسائل متعددة. ففي بعض الشعوب ابتكر الرجل حزاماً خاصاً ـ وهو ما يعرف بحزام العفة ـ وهو حزام ذو قفل روعي في تصميمه أن يسمح للمرأة بقضاء حاجتها وأن يحول في نفس الوقت دونها، وأن لا تكون طرفاً في اتصال جنسي. وقد شاع استعمال هذا الحزام في أوروبا في العصر الوسيط كما كان معروفاً في اليابان. وفي شعوب أخرى سعى الرجال الى تقييد حرية النساء تدريجياً وانتهى الأمر باخضاعهن للحجاب.

المرأة عند الأشوريين:

يعتبر الأشوريون من أقدم الشعوب التي أخضعت النساء للحجاب، وذلك ما أكدته الحفريات في آشور القديمة حيث عثر على لوحات طينية ترجع إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد تحتوي على قواعد قانونية أقدم من ذلك عهداً. وفي إحدى فقرات اللوحة الأولى منها نرى بياناً مفصلاً عن نظام الحجاب، نلمس منه أن الحجاب كان مطبقاً على الحرائر دون الإماء والعواهر والداعرات. بل كانت توقّع على الأمة أو العاهر التي تتحجب عقوبات شديدة. فالأمة كانت تصلم أذنها على سبيل المثال، والعاهر كانت تجلد خمسين جلدة ويصبّ القطران على رأسها.

وكان من الواجب على كل مواطن يشاهد أمة أو عاهراً أو داعرة متحجبة أن يقبض عليها ويأتي بها إلى محكمة القصر، وكان يكافأ على عمله بمنحه ثيابها. وعلى العكس من ذلك إذا شاهد مواطن أمة أو عاهراً، أو داعرة متحجبة ولم يقبض عليها تعرض لعقاب شديد، فكان يجلد بخمسين جلدة وتثقب أذناه وتربطان بخيط يعقد عند ظهره، ويأخذ من أقام عليه الدعوى ثيابَه ويسخر في خدمة الملك شهراً. بينما نلاحظ أن الأمة اذا خرجت مع سيدتها وجب عليها أن تتحجب. كذلك تفعل العاهر أو الداعر إذا تزوجت.

وتبين فقرة أخرى في نفس اللوحة الاجراءات التي ينبغي اتباعها عندما يريد الرجل إعطاء سريته صفة الزوجة، فينبغي عليه أن يستدعي خمسة أو ستة من معارفه ويحجبها أمامهم قائلاً: إنها زوجتي، فتصبح زوجة له.

المرأة عند الأغريق:

عندما نتصفح تاريخ المرأة الأغريقية نلمس بأنها كانت مسلوبة الحرية والارادة وحتى المكانة الاجتماعية وفي كل ما يرجع إلى الحقوق الشرعية وفق نظامهم وتشريعاتهم وفي كل ما يتعلق بالمرأة من حقوق وواجبات.

والظاهر أن المرأة الأغريقية كانت في القرون الوسطى تحل في المنازل الكبيرة محلاً منفصلاً عن الطريق جانبياً، بالكاد يكون له نوافذ ضيقة، محروس الأبواب، لا يسمح لها بمغادرة البيت بل تقوم فيه بكل الأعمال التي يحتاجها من غسيل وطبخ وتربية الأولاد وكنس ومسح، بانتظار وصول الزوج صاحب الارادة والقوة المسيطر عليها.

ومن هنا يتبين لنا بأن المرأة الأغريقية لم تتلق حتى التدريبات الأولية للقراءة أو الكتابة مما يجعلها محرومة حتى من الثقافة العامة. ولكن

هذا كله عكس الأندية التي اشتهرت في الحواضر اليونانية بالغانيات الشهيرات والمثقفات مما دفع الزوج إلى الخوض في غمارهن والسباحة في بحرهن بحجة أن امرأته لا تغادر المنزل ومصاحبته إلى الأندية أو إلى المحافل المهذبة، لأن مجتمعه متزمت وبيئته لا تسمح للمرأة ربة البيت بأن تغادر منزلها الزوجي إلى أي مكان، مما دفع بالمرأة الأغريقية أن تتكوكب عليها العقد النفسية والشكوك التي تعصف رأسها في أنها غير كاملة. وقد يدفعها تهورها هذا إلى عمل طائش قد يؤ دي إلى فقدان حياتها. وكانوا يهدرون منزلتها ويعتبرونها حيواناً يباع ويشترى، وكانوا يسلبونها أهلية التصرف. ويرونها تصلح لخدمة البيوت وتربية الأطفال، وليست بطهر الحيوان بل دنسة ومحتقرة حتى سموها رجساً من عمل الشيطان[1].

وأما من الوجهة القانونية فقد حرمها القانون اليوناني حقها في الإرث وسلبها الحرية فأصبحت لا قيمة لها في المجتمع من الناحية الإجتماعية والشرعية، ولا يجوز لها أن تحصل على الطلاق بل تظل خادمة مطيعة لسيدها ورب بيتها.

ولكن في إسبرطة منحت المرأة بعض الحقوق المدنية المتعلقة بالبائنة والإرث وأهلية التعامل مع المجتمع الذي تعيش فيه، ولم تكن هذه الميزة للمرأة الإسبرطية وليدة تشاريع أو نصوص قانونية، وإنما كانت بسبب وضع المدينة الحربي حيث شغف الرجال بخوض المعارك مما أفسح المجال أمام المرأة لتخرج من عزلتها في بيتها لشراء حاجاتها أثناء غياب زوجها، لذلك يمكن أن نعتبرها أفضل من المرأة التي كانت تعيش في أثينا وبقية البلدان اليونانية الأخرى.

وهذه الحرية الجزئية التي تمتعت بها المرأة الأسبرطية جعلت أرسطو

(١) كتاب الإسلام والمرأة المعاصرة ـ ص ١٠ـ والمرأة بين البيت والمجتمع ص ٧

يحمل على رجال إسبرطة ويتهمهم بالتساهل مع نساء مدينتهم بحيث يمنحونهن بعض الحقوق التي أشرنا إليها. ويرد سقوط إسبرطة واضمحلالها إلى هذه الحرية وهذا الإسراف في الحقوق[1].

ولما أخذت الحضارة الاغريقية تتطور وتتقدم تبدلت أوضاع المرأة الاغريقية بشكل جذري وسريع، فراحت ترتاد الأندية وتختلط بالرجال مما أدى إلى إشاعة الفاحشة والزنى، واعتبرت دور البغايا مراكز للسياسة والأدب، واتخذت التماثيل للنساء العاريات باسم الأدب والفن.

وليس بمقدورنا أن ننكر بأن أسباب الكبث التي عانته المرأة اليونانية ،ولد لديها القلق في فترة من فترات التاريخ فعمر قلبها بالحقد، واشتعلت نفسها بالكراهية لصنف الرجال فراحت تحرق نفسها بنفسها كشمعة لتنير دروب التقدم والتطور للمرأة الاغريقية.

ورغم كل هذه الأمور لا بد لنا من أن نتساءل هل المرأة الاغريقية قد نالت حقوقها كاملة من الرجل مع تقدم حضارة بلادها أم لا؟ وجوابنا على هذا السؤال يتلخص في أن المرأة الأغريقية لم تنل حقوقها كاملة، ولم تحصل على اهتمام الرجل رغم تقدم الحضارة ونبوغ الفلاسفة والعلماء في بلاد الاغريق، ومع هذا الاهمال فقد حصلت على بعض الامتيازات في عصور الترف والبذخ، وكانت هذه الامتيازات نتيجة حتمية للوجاهة الاجتماعية والنهود إلى المتعة والشهوة.

وبالرغم من الحياة الاغريقية الباذخة لم تحصل المرأة الاغريقية على كامل حقوقها التشريعية والقانونية نظراً لانشغال القادة والمفكرين والفلاسفة بالمجون والترف، مما أدى إلى انتشار الفسق والفجور في المجتمعات اليونانية دون أن يلتفت إلى هذا المجون أي مصلح اجتماعي محاولاً إيقافه عند حده ولو عن طريق نص بعض القوانين والتشريعات

---

(١) كتاب المرأة بين الفقه والقانون ـ ص ١٤.

التي تحد من إنغماس المرأة في هذه الحرية المصطنعة الغير منضبطة.

ومما يلفت النظر بأن أثينا وأغلب بلاد اليونان قد فرضت الحجاب على النساء الحرائر، ورفعته عن الإماء والبغايا. ففي بيوت الحريم على سبيل المثال كانت المرأة أو الفتاة التي لم تتزوج بعد، تقبع في ركن الحريم لا تغادره حتى زواجها حيث يتم نقلها إلى بيت الزوجية، ولم يكن الزوجان يرى أحدهما الآخر إلّا ليلة الزفاف. ولم يكن الزواج يخول للمرأةحرية الاختلاط بالرجال ولا حرية الخروج من المنزل. فلم تكن المرأة تستقبل في دارها سوى النساء أو أقاربها الأقربين من الذكور. ولم يسمح لها باستقبال ضيوف زوجها أو مجالستهم، أو تناول الطعام معهم ولو بحضور زوجها، بل كان مجرد حضور الزوج مصحوباً بأحد أصدقائه سبباً في اختفاء المرأة من الجزء الخارجي من الدار لتحتمي في الغرف المخصصة للنساء. وعندما قدم (كورينلوس تيبوس) المؤرخ الروماني لزيارة اليونان في القرن الأول قبل الميلاد، أدهشته حياة العزلة والانفصال التي تعيشها المرأة اليونانية وهو الذي تعود في بلده على اختلاط الجنسين، فكتب يقول: «كثير من الأشياء التي نظمها الرومان بلباقة يرى فيها اليونانيون منافاة لحسن الآداب. فأي روماني يستشعر العار من اصطحابه زوجته إلى مأدبة؟، والرومانيات يشغلن عادة الحجرات الأولى من المنزل والأكثر تعرضاً للرؤ ية حيث يستقبلن كثيراً معارفهن. وأما عند اليونانيين فالأمر على النقيض. فنساؤ هم لا يشتركن في مأدبة إلا إذا كانت لدى أقاربهن، وهن يشغلن دائمًا الجزء الأكثر انزواء من المنزل والذي دخوله محرم على كل رجل غير قريب».

ولم يكن يسمح للمرأة أن تخرج من دارها إلّا بإذن زوجها، ولم يكن ذلك عادة إلا لسبب وجيه، كزيارة قريبة أو عيادة مريض، أو أداء واجب العزاء. وفي الحالات التي كان يسمح فيها للمرأة بالخروج كانت التقاليد تلزمها بوضع حجاب يخفي معالم وجهها.

ويصف ديكايرش حجاب نساء طيبة إحدى المدن اليونانية، فيقول: «إنهن كن يلبسن ثوبهن حول وجههن بطريقة يبدو معها هذا الأخير وكأنه قد غطى بقناع، فلم يكن يرى سوى العينين». وفضلاً عن ذلك كان من اللازم أن يرافقها أحد أقاربها من الذكور أو أحد الأرقاء. وكان بعض الأزواج لا يكتفي بما كانت تفرضه التقاليد على حرية المرأة، فكانوا يضعون أختامهم على أبواب دورهم عندما يتغيبون رغبة في زيادة الإطمئنان.

ومما يلفت النظر أن بعض الفلاسفة والحكماء اليونانيين قد طالبوا بإلغاء هذه التقاليد والعادات وخاصة ما يتعلق منها بنظام الحجاب. فيذكر (ميناندر) على سبيل المثال، ان على الزوج أن يخفف من إحاطة زوجته بالرقابة المتطرفة والحبس في أعماق المنزل لأن عيوننا تحب التطلع إلى متع الخارج، فلا تضيعوا على المرأة لذة التمتع بالمناظر الموجودة في الخارج، بل إتركوها ترى كل شيء وتذهب حيث تشاء. فإن حب الإستطلاع سيشبع رغباتها، ولن تعود إلى التفكير في فعل الشرور وارتكاب الموبقات. فالأشياء التي اعتدنا أن نحجبها عنها، يزيد فيها الرغبة وحب الإستطلاع، وهذا ما ينطبق على الرجل والمرأة سواء بسواء. فالزوج الذي يبقي زوجته خلف الأبواب ووراء السجف والستائر يعتقد بأنه ينهج منهج الرجل الحكيم بدون أن يدري أنه ليس سوى أحمقاً وليست هذه الحكمة التي يتبجح فيها سوى نوع من أنواع الجنون. ولم يكن هذا الحكيم الاغريقي الوحيد الذي نادى بضرورة منح المرأة اليونانية بعض الحرية، ولكن هناك فيلسوف آخر هو المعلم أفلاطون الذي طالب بوجوب منح المرأة اليونانية كامل حريتها وإتاحة الفرصة أمامها لتغترف وتعبّ من الثقافة والعلوم كما يعبّ منها الرجل حتى تتمكن من إداء واجبها الوطني، وتقدم للوطن نفس الخدمات التي يؤ ديها الرجل.

ولم يقف نشاط أفلاطون عند هذا الحد، بل أوجب أن تكون المدارس ودور العلم مشتركة بين الجنسين حتى يتم التفاهم بينهما، ويخبو إحساس الفتيان والفتيات ولو قليلاً نحو القضايا الجنسية نتيجة احتكاكهما بعضهما مع البعض منذ الطفولة. وإذا ما أتيحت للمرأة اليونانية هذه الفرصة خف الإهتمام والإكتراث عن طريق التعارف والتفاهم وانطفئت بصورة تلقائية جذوة الخلاف والشقاق بين الجنسين لا سيما أثناء الزواج وتأسيس منزل الزوجية.

وإذا ما تلفتنا بتروي وإمعان إلى جذور الحضارة الإغريقية التي كانت من أعرق وأقدم الحضارات في العالم، يمكننا أن نتبين أهمية المرأة ومركزها في تلك الحضارة، وليس أدل على عمق ما نقول مما ذهب إليه الحكيم سقراط حيث قال: «إن وجود المرأة هنا، هو أكبر منشأ ومصدر للأزمة والإنهيار في العالم، إن المرأة تشبه شجرة (مسمومة) حيث يكون ظاهرها جميل ولكن عندما تأكل العصافير تموت حالاً».

المرأة عند الرومان:

وعندما نسبر أعماق التاريخ البشري نلاحظ بأن المرأة الرومانية قد حصلت على بعض حريتها في القانون الروماني بعكس ما كانت عليه المرأة الإغريقية، ورغم حصولها على هذه الحقوق فقد كانت خاضعة لسلطة رب العائلة إذا كانت عزباء، ولسلطة وسيادة زوجها عليها إذا كانت متزوجة. وأما المرأة الرقيق فكانت خاضعة لسلطة سيدها أو معتقها، وترتبط به برباط الولاء والخضوع لكل متطلباته مهما كانت.

ومما يلفت النظر بأن المرأة الرومانية كان لها الحق في الخروج للقيام بالزيارات ولمشتريات حاجاتها المنزلية من الأسواق دون أن تتعرض لأي رقابة أو حراسة، فهي حرة بأن تتجول في المكان الذي تحتاج إلى التجول فيه لقضاء حاجاتها بشرط أن تأخذ أذناً مسبقاً من زوجها إذا كانت متزوجة أو من ولي أمرها إذا كانت عزباء

وهنا نرى أنه من الطبيعي أن تفقد المرأة بعض حقوقها إذا لم يسمح لها زوجها، أو ولي أمرها بالخروج، وهذا دليل واضح على أن المرأة الرومانية لم تكن تتمتع بكامل شخصيتها القانونية، نظراً لخضوعها لصاحب السلطة عليها الذي يمكنه أن يحدد نشاطها أو أي عمل تقوم به.

هذا ما يعطينا فكرة صريحة على أن المرأة كانت تعتبر من الأمور الهامشية في القانون الروماني نظراً لانعدام أهليتها وانضغاط حقوقها، مثلها مثل كل امرأة وجدت في هذا الكون قبل ظهور الديانات السماوية، والشرائع القانونية التي منحت المرأة بعض الحقوق وفرضت عليها بعض الواجبات لتكون عنصر فعال في المجتمع.

وما دام وضع المرأة كان على هذه الصورة، فمن البديهي أن يعتبر ولي أمرها هو رئيسها الديني المباشر، يرشدها ويعظها بما يشاء، وكذلك حاكمها السياسي الذي يسوسها بما يريد، وبنفس الوقت مديرها الإقتصادي الذي تعود إليه كافة حقوقها الإقتصادية والإجتماعية، فهو وحده الذي يملك ويبيع ويشتري وينفي ويعذب ويقاصص ويظلم في أغلب الأحيان.

إن هذه السلطة التي منحتها القوانين الرومانية للرجل يمكن أن نعتبرها من الناحية القانونية سلطة وجاهة لا حماية، وتحكم ذاتي من قبل الرجل في كافة المناحي الحياتية للمرأة، بينما المرأة تقف إلى جانبه عاجزة عن القيام بأي عمل دون الرجوع اليه.

والجدير بالذكر أن هذه الحالة التي كانت عليها المرأة الرومانية، لم تستمر لفترة طويلة إذ سرعان ما حصلت على بعض حقوقها الهامة عندما أطلّ التقدم والتطور على البلاد الرومانية، فكان من الطبيعي أن يشمل هذا التقدم وذلك التطور المرأة، فأخذت تحصل على بعض حقوقها

بالتدريج، واحتلت مكانة لا بأس بها في المجتمعات الرومانية حيث أعطيت الحق في التصرف بأموالها الخاصة، ومتاعها بدون إجازة مسبقة من ولي أمرها، وبنفس الوقت تستشار في اختيار زوجها.

والزواج في العرف الروماني نوعان: زواج مع السيادة، أي من آثاره أن تنفصل الزوجة عن أسرتها وتعتبر ميتة بالنسبة لهم وتدخل سلطة زوجها، وتعتنق ديانته وتخضع لسيادته أو لمن له سلطة على الزوج كأب الزوج مثلاً. والزوج في ذلك الوقت له الحق في أن يبيعها، وأيضاً له الحق في عقابها كيف يشاء، وتطليقها إذا أراد. واكتساب الحقوق كلها عنها.

وأما الشكل الثاني من الزواج الذي هو بدون سيادة، ففيه تشارك الزوجة زوجها مركزه الاجتماعي والعملي، ولها الحرية بأن لا تنضم إلى أسرة زوجها، ولكن عليها الطاعة لزوجها واحترام رغباته، هذا إذا كانت مستقلة أصلاً بحقوقها وأموالها المنقولة وغير المنقولة عن أهلها، ولها حرية التصرف والرأي، وإذا أخطأت أو زنت وجب على زوجها تأديبها إلى حد قتلها بدون أي اعتراض.

ورغم استمرار التقدم والتطور الروماني فلم يصيب المرأة من هذا التقدم أي شيء يستحق الذكر، بل ظلت خاضعة لرب الأسرة أو الزوج في أن يختار وصي عليها من بعده، فإن لم يتوفر الوصي عين القاضي وصياً عليها، وكانت الوصاية متأتية عن اعتقاد المشرع الروماني بعدم أهليتها أو عجزها عن القيام بواجباتها. وقد طبق هذا التشريع لدى أكثر الأسر الرومانية التي ترتبط بالماضي المتزمت رغم التطور والتقدم الذي طرأ على المجتمعات الرومانية.

وعلى الرغم من تطور وتقدم البلدان الرومانية، فقد بقيت المرأة الرومانية ينظر إليها بصورة عامة كما ينظر إلى الرقيق والجواري والقيان.

بل كانت أقل من كل هؤلاء احتراماً وتقديراً من قبل الأزواج والأقرباء، وقد ظهر الفرق بين الحرائر من النساء وبين الجواري والقيان من نسوة الأندية ودور الملاهي في معاملات كافة البلدان الرومانية لهن.

المرأة عند الفراعنة القدماء:

تدلنا النصوص التاريخية القديمة واللوحات المكتشفة نتيجة الحفريات التي أجريت في مصر على أن المرأة الفرعونية كانت تتمتع بحريتها الكاملة تخرج من منزلها بدون رقيب، وتتجول وتتنزه، وتزور من تشاء من الناس دون أن يعترض سبيلها أي معترض من أقربائها أو أوليائها وتتجول بين الأزقة والشوارع سافرة الوجة تساهم بنصيب وافر في الحياة الاجتماعية، ذلك ما تؤكده النقوش التي ظهرت في المقابر الأثرية الفرعونية في مصر والتي تجسد مظاهر الحياة الاجتماعية المختلفة.

ويستدل من هذه النقوش أن المرأة من عامة الشعب كانت تذهب إلى الأسواق سافرة تحمل إليها ما تريد بيعه، وتأتي منها بما ترغب في شرائه. وتخرج إلى الحقل لمساعدة زوجها في البذر والحصاد. وكانتالمرأة تخرج في صحبة زوجها لزيارة الأقارب والأصدقاء أو القيام بنزهة للصيد. وكذلك كانت تستقبل مع زوجها الضيوف من الجنسين. وكانت العادة أن يصطف الرجال إلى جانب والنساء في الجانب الآخر، لكن ذلك لم يكن قاعدة مطلقة فقد يحدث أن يختلط الرجال والنساء. وللرجل عندئذ أن يجلس إلى جوار زوجته إذا شاء

وقد ظلت المرأة المصرية تتمتع بكامل حريتها في الغدو والرواح طيلة العصر الفرعوني، فعندما قدم هيرودوث إلى مصر في القرن الخامس قبل الميلا، أدهشته حياة التحرر والاختلاط التي تحياها المرأة المصرية ـ وهو رجل قد اعتاد في بلده على رؤية النساء يقعدن في البيوت

ويتحجبن من الـرجال ـ فكتب في كتـابه عن تـاريخ العـالم يقول: «المصريون نظراً إلى مناخ بلادهم الخاص، وإلى أن نهرهم له طبيعة خاصة مغايرة لطبيعة سائر الأنهار، قد اتخذوا لأنفسهم عادات وسنناً مخالفة من كل الوجوه تقريباً لما يتخذه سائر الشعوب.. فالنساء عند المصريين يذهبن إلى الأسواق ويمارسن التجارة، أما الرجال فيبقون في البيوت وينسجون».

ومما يلفت النظر أن الحجاب قد عرف طريقه إلى مصر في بعض العصور. ولا شك أن هذه العصور هي تلك التي تميزت بالاضطرابات والفتن الداخلية، أو تلك التي خضعت فيها مصر للغزو الأجنبي. ففي مثل هذه الظروف لم تكن المرأة تأمن على نفسها إذا خرجت، ولذلك كانت تقبع في بيتها. وإذا أحبت الخروج منه تخفت في ثيابها فأمنت التعرض لها. ويدلنا عـلى ذلك بعض النقـوش التي تعود الى عهـد رمسيس الثالث يفخر فيها بالانتصار على أعدائه، وإقرار الأمن في ربوع البلاد. وقد جاء فيها ما يلي: «لقد أمكن كل امرأة الآن أن تسير خارج منزلها كما تريد رافعة قناعها بلا خوف ولا وجل، لأنه لم يعد أحد يتعرض لها». وأيضاً «لقد جعلت المرأة المصرية تذهب كما تشاء مكشوفة الأذنين فلا يتعرض لها أجنبي أو غيره».

المرأة في شريعة حمورابي:

أما المرأة في شـريعة حـمورابي كانت تحسب في عـداد الماشيـة المملوكة، ويدل على ذلك في تقدير مكانة الأنثى، أنها كانت تفرض على من قتل بنتاً لرجل، كان لزاماً عليه أن يسلم ابنته للمجني عليه إما ليقتلها أو ليمتلكها.[١]

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون ـ ص ١٨.

المرأة في الحضارة الصينية:

ومما يذكر عن المرأة الصينية في الكتب الدينية القديمة بأنها سميت بالمياه المؤلمة التي تغسل السعادة والمال.

ولقد عرفت المرأة في الأدب الصيني بأنها مزلّة من الرجل دائمًا، وليس لها أي حق من الحقوق، وبإمكان الرجل دائمًا متى شاء أن يسلب شخصية زوجته وبيعها كالجارية. وأما المرأة المترملة كانت تصبح كجزء من الثروة المتعلقة بعائلة زوجها ولم يكن لها أي حق من التزوج مرة ثانية! ومع هذا كله كانت تعامل كالرقيق، وليس لها حق في الحياة من نفسها، وكان للزوج حق بدفنها وهي حية بدون أي اعتراض من أي جهة كانت، وحتى سنة ١٩٣٧ كان يوجد في الصين حوالي ثلاثة ملايين جارية.

وإن أعجب من كل ما ذكر وأفجع، هو أنه لغاية السنين القريبة الماضية كانوا يصنعون للبنات الصينيات أحذية مخصوصة حتى تبقى أرجلهم صغيرة لكي لا تصل إلى رشدها ونموها الطبيعي.

ومن الملاحظ بأن الكتلة الصينية كانت من قبل الفي سنة وحتى قيام الحرب العالمية الثانية أسيرة في مخالب الاقطاعيين الكبار، وكانت أكثر هذه المشاكل تنوط بنظريات وآراء كونفوشيوس الرجل الحكيم الذي كان مانعاً للترقي والتقدم. وكان يعلم الناس درس الطاعة ويؤكد على حفظ الوضع الموجود في ذلك العهد.

المرأة عند الهندوس:

ومما يروى عن المرأة الهندية أنها لم تعرف الاستقلال أو الحرية لا في بيت أهلها ولا في منزل زوجها، لأن علماء الهند الأقدمون يرون أن الإنسان لا يستطيع تحصيل العلوم والمعارف ما لم يتخلّ عن جميع الروابط العائلية.

ومما يذكر أن شريعة «مانو» في الهند لم تكن تعرف للمرأة حقاً مستقلاً عن حق أبيها أو زوجها أو ولدها. فإذا مات هؤلاء جميعاً وجب عليها أن تنتمي إلى رجل من أقارب زوجها وتخضع لحكمه كما خضعت سابقاً في حياة زوجها الحي، المائت. وتعد المرأة الهندية قاصرة في معاملة الآخرين لها طيلة حياتها.

والجدير بالملاحظة أن المرأة الهندية إذا مات بعلها ولم يوجد قريب له تكون في رعايته وتحت كنفه وجب عليها أن تموت بموت زوجها حية، وأن تحرق وإياه على موقد واحد. وهذه العادة القديمة ظلت سارية المفعول من عهد الحضارة البرهمية وحتى القرن السابع عشر حيث أبطلت على كره من رجال الدين وزعماء الهند.[١]

ومن المؤكد على هضم حقوق المرأة الهندية القديمة هي عقيدة (نيوك) التي هي في الواقع نوع من الإهانة لطهارة المرأة، وهذه الإهانة والتحقير كانت بصورة حيث تعذب روح وضمير المفكرين الهنود.

إن ما يقوله المؤيدون لعقيدة نيوك القائلة: «تتمكن المرأة أن تضطجع مع رجل أجنبي من أجل إنجاب الأولاد إذا لم يكن عندها ولد».

وأن العادات المتبعة في الزواج بين الهنود القدامى على صورة (أسورا) لا تعبر بأي شكل من الأشكال بغير بيع البنت بواسطة الأب، وبالسبب الذي لا يلحق النساء أي سهم من الإرث، ولم يوجد أي قانون في ذلك الزمان حتى يتمكن من أخذ حقوقهن بواسطته.

ومما يذكر أن في الهند وفي الأدوار السالفة، وحتى عصرنا الحاضر كانت البنات وقفاً للآلهة، وكانت العادة أن يبقونهن كصورة للزواج تحت اختيار الآلهة في المعابد. وكذلك كانوا يسمحون للنساء المتزوجات أن

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون ـ ص ١٩.

يكنّ في خدمة الآلهة. وعلى هذه الصورة كانت البنت الهندية القديمة في المعابد تحت اختيار أمناء المعابد بصورة غير مباشرة بانتظار عدتها للزواج والانجاب. أو تقديمها للمعابد كهدية لتقبل عند الآلهة، وللنساء المتزوجات مهمة الخدمة لمسؤولي ومأموري المعابد.

وكانت النساء تحسب جزءاً من الغنائم الحربية، وبعد النصر كانت تقسم بين الأفراد الفاتحين جبراً.

ونلاحظ بأن فريق من الكتاب الأوروبيين وبعض الهنود على السواء، ذهبوا إلى أن الحجاب لم يكن معروفاً في الهند قبل الفتح الاسلامي، وأن الهندوس قد نقلوه عن المسلمين عندما استوطن المسلمون بلادهم واختلطوا بهم. ومع ذلك فإن دراسة كتب الفقه الديني القديمة والآثار الأدبية التي تعود الى القرن الرابع والثالث قبل الميلاد تكشف بما لا يدع مجالاً للشك عن حدوث تطور في هذا الموقف نحو تقييد المرأة في الاتصال بالرجال. فقد ظهر في الفقه الديني أن الإبن يؤول في العالم الآخر الى والده الحقيقي سواء كان زوجاً لأمه أو لم يكن. وإن القرابين التي يقدمها الإبن لا يفيد منها سوى هذا الوالد. ولذلك نجد الفقهاء على مر العصور يحثون الأزواج على بذل أكبر قدر من الاهتمام في مراقبة سلوك زوجاتهم حتى يحولوا دونهن والاتصال برجال آخرين لكي لا يكون إنجابهن أولاداً عديم الفائدة بالنسبة لهم.

ويروى بأن الفقيه (أبا شمبا) مثلاً يشبه المرأة بالوعاء الذي يحتوي على رائب لتقديمه كقربان ويوصي بحراستها من كل نجاسة لأنه كما أن القربان لا يمكن أداؤه برائب من لبن غير طاهر، فكذلك لا يمكن أداء القربان بواسطة الزوجة أو أولادها اذا كانت غير طاهر.

وفي كتاب فقيه آخر هو (مَنوُ) نقرأ ما يلي: «لا يمكن لأي رجل أن يحرس النساء حراسة كاملة بالقوة، لكن من الممكن حراستهن باستخدام

الوسائل التالية: ليشغل الزوج زوجته في جمع وإنفاق ثروته، وفي إبقاء كل شيء نظيفاً، وفي إداء الواجبات الدينية، وفي إعداد طعامه والعناية بالأدوات المنزلية». كما نقرأ فيه من ناحية أخرى: لا ينبغي للمرء أن يجلس في مكان منعزل مع أمه أو أخته أو ابنته فالشهوات غلابة وهي تتسلط حتى على الرجل العالم.

ومما يؤكد بوجوب الحجاب في هذه الفترة من الزمن ما ورد في أحد النصوص الأدبية من أن الملك (راما) خرج يوماً من قصره مع زوجته (سيا) فوجد أن رعاياه ينتظروهما أمام باب القصر بفارغ الصبر لالقاء نظرة عليهما ولما شاهد الملك هذا الجمهور الذي يرنو إليه بلهفة، التفت الى زوجته وقال: إرفعي يا سيدة حجابك! ثم توجه إلى الحشود وقال لهم تطلعوا ومتعوا أنظاركم بهذا الوجه الجميل فلا غضاضة من النظر إلى وجوه النساء عند التضحية وأثناء حفلات الزفاف، وأثناء المصيبة، وعندما يكن في الغابات.

واذا نظرنا إلى العقائد الدينية التي كانت معروفة بين الهنود مثل عقيدة (ساتي) التي ترى أنه ينبغي على كل زوجة يموت زوجها أن يحرق جسدها إلى جوار جسد زوجها، غير أن بعض النساء الهنديات كن يعزفن عن تطبيق هذه العقيدة مما يجعلهن في موضع إهانة وتحقير من قبل أتباع هذه العقيدة.

أما عقيدة (مانو) فترى أنه لا يجب على المرأة الهندية أن تبحث عن الاستقلال أبداً، ولا عن الحرية، بل عليها أن تعود إلى زوجها في كل شاردة أو واردة من حياتها الاجتماعية أو الاقتصادية.

وفي الشرائع الهندوسية نصوص منعت البنت أو المرأة الشابة أو حتى الامرأة العجوز أن تقوم بأي عمل مستقلاً عن زوجها أو ولي أمرها، فعلى البنت اطاعة والدها، وعلى الفتاة الإخلاص لزوجها

وخاصة بعد موته حيث ينبغي عليها أن تلتحق بأولاد زوجها ولا يسمح لها بأن تستقل عن أفراد العائلة.

ومما يلفت النظر بالتشريعات الهندية وخاصة تشريع (بهاكوداكينا) الذي يرى بأن المرأة ليست سوى بئرة للأرواح الخبيثة المجرمة التي ولدت على هيئة امرأة.

المرأة عند اليهود:

يذكر التاريخ الذي يتحدث عن العبرانية أن اليهود الأول كانوا يعتبرون المرأة لعنة استناداً على ما ورد في توراتهم وبعض كتبهم المقدسة، لذلك نرى أن بعض الطوائف اليهودية قد اعتبرت المرأة دون مرتبة أخيها ومكانته في الحياة الاجتماعية بحيث ليس في مقدورها أن ترث إذا كان لها أخوة ذكور، وقد أعطت الحكمة اليهودية الأب حق بيع ابنته القاصر، وأما إذا كان الميراث يؤول إليها في حالة عدم وجود أخ ذكر لها فقد حال القانون اليهودي بينها وبين الزواج من سبط آخر، لذا لا يجوز لها نقل ميراثها لغير سبطها هذا اذا كانت عزباء.

وأما المرأة اليهودية عندهم فلم تكن شيئاً يذكر، إنها مثل أثاث المنزل، تقبع في زاوية تنتظر مصيرها المجهول. ولقد جاء في التوراة: «المرأة أمر من الموت، وأن الصالح أمام الله ينجو منها، رجلاً واحداً بين ألف وجدت، وأما امرأة فبين كل أولئك لم أجد».[1]

ومما جاء في سفر التكوين اصحاح أول عدد ٢٧، ٢٨ ما يلي: «فخلق الله الانسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكر أو أنثى خلقهم وباركهم الله وقال لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض واخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان

(١) المرأة بين الفقه والقانون ص ١٩- والمرأة في القرآن ص ٧٦.

يدب على الأرض. وفي العدد ٢٤ من سفر التكوين: لذلـك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسداً واحداً.

وجاء في اصحاح متى ١٩ عدد ٣: وجاء الفريسيون الى عيسى (ع) ليجربوه قائلين له: هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب؟ فأجابهم قائلاً: أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى. وقال: من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأتـه ويكون الاثنان جسداً واحداً، إذاً ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان. قالوا: فلماذا أوصى موسى أن يعطي كتاب طلاق فتطلق؟ أجابهم عيسى: إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم. ولكن من البدء لم يكن هكذا. وأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزني والذي يتزوج بمطلقة يزني. قال له تلاميذه: إن كان هكذا أمر الرجل تبع المرأة فلا يوافق أن يتزوج. أجابهم: ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذي أعطي لهم لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم. ويوجد خصيـان خصـاهم الناس. ويـوجد خصيـان خصـوا أنفسهم لأجـل ملكـوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل.

ووردت أحكام الزنا في التوراة بسفر اللاويين إصحاح ١٨ عدد ٢٠ ما يلي: «إذا زنى رجل مع امرأة، فإذا زنى مع امرأة قريبة فإنه يقتل الزاني والزانية، وإذا اضطجع رجل مع امرأة أبيه فقد كشف عورة أبيه إنهما يقتلان كلاهما. دمهما عليهما. واذا اتخذ رجل امرأة وأمها فذلك رذيلة بالنار يحرقونه وإياها لكي لا يكون رذيلة بينكم.

وفي سيفير مصؤ وت جادول جاء كما يلي: «يجلد الزاني بيهودية غير متزوجة، أما من زنى بيهودية متزوجة أو بوثنية فجزاؤ ه القتل، ومن يحكم عليه بالقتل لا يحكم عليه بعقاب أخف».

ويبدو أن الحجاب كان معروفاً ومطبقاً لدى اليهود، فالثلمود مثلاً

يحرم نظر الرجل إلى كعب امرأة غير زوجته، أو لمس يدها، أو الحديث معها، كذلك يحرم على الرجل اذا تحدث الى زوجته أن يطيل الحديث.

وهناك من يرى أن المرأة اليهودية هي ملعونة أبدية من طرف الإله، لأن الذنب قد بدأ من طرفها وهي التي تسبب للرجال الموت. ولذلك يعتبر اليهود المرأة مسؤولة عما يرتكبه الرجل من أفعال شريرة، لذلك فإنها عندما تقع فريسة المرض ينبغي عليها أن تسجن نفسها في بيتها فلا تلمس أية آنية من أواني البيت حتى لا ينتقل الشر إلى تلك الأواني.

وإذا ما ألقينا نظرة خاطفة على النظام الأبوي عند اليهود، نرى أن اليهودية قد عرفت نظام الأسرة الأبوية الكبيرة على نحو ما نعرفه عند قدماء العبريين. وإذا ما تطلعنا إلى التوراة وخاصة العهد القديم نجد وصفاً دقيقاً لأمثال هذه المجتمعات العائلية الكبيرة، كأسرة إبراهيم أو إسحاق أو يعقوب.. والذي يميّز هذه الأسر جميعاً هو أن الآباء فيها كانوا يهتمون اهتماماً كبيراً بالأبناء، كما أن الأبناء كانوا يحفظون لأبائهم كل احترام وتقدير. وقد ورد في الوصايا العشر التي حملها موسى إلى بني إسرائيل وصية هامة توجب احترام الوالدين: «أكرم أباك وأمك لكي تطول أيامك على الأرض». وهذا المبدأ الذي قدمته الأسرة العبرية للعالم قد عمل على توطيد دعائم النظام العائلي لأنه أسبغ على الأسرة قسطاً وافراً من الاتحاد والتماسك. والواقع أنه حيثما انعدم احترام الأبناء لوالديهم، فقد تزعزع أركان ذلك المجتمع الكبير الذي ينتسب إليه هؤلاء الأفراد.

وقد كان من نتائج توافر الاتحاد والوفاء في الأسرة العبرية أن تمتع المجتمع العبري بقدرة هائلة على التماسك والبقاء.

---

(١) سفر الخروج ٢٠: ١٢.

ولولا تلك الوحدة العائلية المتمسكة لفنى ذلك المجتمع عن آخره، ولما قامت له قائمة. ولكن المهم أن قوة المجتمع العائلي في هذا النظام الاجتماعي قد عملت على ظهور مبدأين عامين أخذت بهما الديانتان الاسرائيلية والمسيحية. والظاهر أن الدور الذي كان يقوم به عائل الأسرة أو شيخها الكبير هو الذي عمل على ظهور فكرة أبوة الله للناس جميعاً. وأما فكرة أخوة الناس بعضهم لبعض فقد كان ظهورها نتيجة لترقي المسؤولية الاجتماعية في الأسرة العبرية.

المرأة عند المسيحية:

عندما انتشر الدين المسيحي كان لظهوره في ربوع الدولة الرومانية وبين شعوبها الموزعين في أطراف المعمورة أثر كبير على المرأة حيث منحها الدين الجديد الثقة بالنفس للعمل على تطوير مركزها الاجتماعي لتتمكن من التخلص من القيود التي كانت تحدّ من حيويتها حقبة طويلة من الزمن، باعتبار أن المرأة بصورة عامة كما ذكرنا فيما تقدم كانت مضطهدة ومنبوذة لا تتمتع بأية مكانة مرموقة وفي مجتمعها وفي نطاق علاقاتها مع الرجل، كما أنها كانت مسلوبة الحقوق لا يوجد أي قانون يحدد لها أي حق من حقوقها.

ولكن عندما انتشر الدين المسيحي بسرعة أخذت المرأة بعض حقوقها الاجتماعية والاقتصادية اعتماداً على تعاليم الدين الجديد الروحية والخلقية مما دفعها لمواكبة عصرها متسلحة بهذه المبادىء السامية مما رفع عن عاتقها بعض القيود التي كانت تحد من حيويتها وتقف عقبة في طريق تقدمها.

فالدين المسيحي قد أعطاها بعض الحقوق وفرض عليها بعض الواجبات، فخفّت أمامها القيود وارتفعت مكانتها إلى المكانة التي كان عليها الرجل باعتبارهما متممان بعضهما البعض.

ومما يروى عن السيد المسيح قوله عندما تحدث إلى امرأة سامرية، والتفّ حوله تلامذته وهم يستغربون هذه البادرة منه وكانت هذه المرأة قد أدخلها عليه بعض الكتبة والفريسيون أمسكت في الزنا، ولما أقاموها في الوسط قالوا له يا معلم هذه المرأة أمسكت وهي تزني في ذات الفعل. وموسى في الناموس أوصانا أنّ مثل هذه ترجم. فماذا تقول أنت؟ قالوا هذا ليجربوه لكي يكون لهم ما يشتكون به عليه. وأما يسوع فانحنى إلى أسفل وكان يكتب بأصبعه على الأرض. ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم من كان منكم بلا **خطيئة فليرجمها** بحجر. ثم انحنى أيضاً إلى أسفل وكان يكتب على الأرض. وأما هم فلما سمعوا وكانت ضمائرهم تبكتهم خرجوا واحداً فواحداً مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين. وبقي يسوع وحده والمرأة واقفة في الوسط. فلما انتصب يسوع ولم ينظر أحداً سوى المرأة قال لها يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليك. أما دانك أحد؟ فقالت: لا أحد يا سيد. فقال لها يسوع:ولا أنا أدينك. اذهبي ولا تخطيء أيضاً»[1].

ومما يروى عنه أيضاً أن أحد الفريّسيين سأله أن يأكل معه، فدخل بيت الفريسي واتكأ. واذا امرأة في المدينة كانت خاطئة إذ علمت أنه متكىء في بيت الفريسي جاءت بقارورة طيب ووقفت عند قدميه من ورائه باكية وابتدأت تبلّ قدميه بالدموع وكانت تمسحها بشعر رأسها وتقبل قدميه وتدهنهما بالطيب. فلما رأى الفريّسي الذي دعاه ذلك تكلّم في نفسه قائلاً لو كان هذا نبياً لعلم من هذه الامرأة التي تلمسه وما هي؟ إنها خاطئة. فأجاب يسوع وقال له: يا سمعان عندي شيء أقوله لك. فقال: قلّ يا معلّم. كان لمداين مديونان. على الواحد خمسمئة دينار وعلى الآخر خمسون. وإذا لم يكن لهما ما يوفيان سامحهما جميعاً . فقل. أيهما يكون أكثر حباً له؟. فأجاب سمعان وقال: أظن الذي سامحه

---

(١) إنجيل يوحنا ـ (٧ـ ٨) الإصحاح الثامن من العدد٢.

بالأكثر. فقال له: بالصواب حكمت. ثم التفت الى المرأة وقال لسمعان: أتنظر هذه المرأة! إنّي دخلت بيتك وماء لأجل رجلي لم تعط. وأما هي فقد غسلت رجلّي بالدموع ومسحتهما بشعر رأسها. قبلة لم تقبلني. وأما هي فمنذ دخلت لم تكفّ عن تقبيل رجلّي. بزيت لم تدهن رأسي. وأما هي فقد دهنت بالطيب رجلّي. من أجل ذلك أقول لك قد غفرت خطاياها الكثيرة لأنها أحبت كثيراً. والذي يغفر له قليل يحب قليلاً. ثم قال لها مغفورة لك خطاياك. فابتدأ المتكئون معه يقولون في أنفسهم من هذا الذي يغفر خطايا أيضاً. فقال للمرأة إيمانك قد خلّصك. إذهبي بسلام»[1].

وإلى جانب هاتين الروايتين توجد رواية أخرى تقول بأنه عندما جاء إلى السيد المسيح الفرّيسيون ليجربوه قائلين له: «هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب؟ فأجابهم: أما قرأتم ان الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى. وقال: من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويتبع امرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً!، إذ ليس بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه انسان»[2].

ومن الملاحظ عند الاطلاع على تاريخ ذلك العهد أن السيد المسيح كان يكرم أمه ويحسن معاملتها، وكانت علاقته بها علاقة البر والرحمة هذا ما شجع أتباعه على منواله وإعطاء المرأة بصورة عامة بعض حرياتها المفقودة وتقديرها واحترامها، مما جعلها تتبوأ المكان اللائق بها كأم وزوجة وإبنة.

وانطلاقاً من هذه الروايات التي وردت في الإنجيل وغيره من الكتب المسيحية المقدسة نلمس بأن تلامذة المسيح ورؤساء الكنيسة من

---

(١) انجيل لوقا ـ (٧ـ ٨) الإصحاح السابع من (٣٦ـ ٥٠)

(٢) مع المسيح في الأناجيل الأربعة: متى (١٩ـ ٣)ـ مرقس ١٠ـ (٢ـ ١٢) لوقا ١٦ـ (٨ـ ١٩)

بعده قد كرّموا المرأة في كل اتجاه، وشد بنيان الأسرة، ورفع معنوياتها الخلقية والاجتماعية.

ولكن بولس الرسل فقد انتحى منحى ترهبي تقشّفي ولم يعر هذه الناحية المزيد من الاهتمام ولكنه لم يستنكر الزواج، وفصم عراه، بل يراه حسناً. ومنذ ذاك الوقت ألغيت السيادة الزوجية، وخفت على التدريج السلطة الأبوية حتى ألغيت تماماً. وجعلت الميراث على أساس العلاقة الفعلية، وصلة الدم، وأعطت الحق للمرأة بأن ترث الزوج والعكس بالعكس. وساد التفاهم بين الجميع ممن فهموا معنى رسالة السيد المسيح وآمنوا بها إيمانهم بأنهم أحياء يرزقون، وتبدلت الأجواء فيما بينهم، وساد جو راق من المحبة والتفاهم والاخلاص بين المرأة والأم والأب، وبين الزوج والزوجة والأولاد، والأخت مع أخيها. وهكذا عرف المجتمع بأنهم كلهم وجدوا من نفس واحدة من ذكر وأنثى، وسيسيرون على درب واحدة حتى يقطعوا القيود التي قيدتهم بها النزعة القبلية زماناً طويلاً.

والجدير بالذكر أن الشريعة المسيحية قد حرمت على الآباء نبذ الأولاد وإعدامهم أو بيعهم، أو إعدام الزوجة حتى ولو كانت في حالة الزنى، بل نبذها لوحدها حتى تحاسب نفسها بنفسها، وتعي واقعها وتقيّمه حسب مفهومها الروحي لهذه الزلة التي قامت بها، وتتوب عما بدر منها. ويحق للزوج في هذه الحالة أن يهجرها أو يطلقها اذا استطاع أن يقدم شهوداً لاثبات زلتها وفق الشروط التي فرضتها الكنيسة.

ومما يلفت النظر أن وصايا المسيح للرجال بحسن معاملة النساء، وللنساء بحسن معاملة الرجال، وللأولاد بضرورة إطاعة الوالدين، قد تكررت كثيراً في الأناجيل لأن هذا يرضي الله.

وأما ما يتعلق بالفراق أو الطلاق بين الزوجين، فإن المشرع

المسيحي قد أوجد شروطاً قاسية تدل على أن الانفصال والطلاق في أكثر الأوقات من الأمور المستحيلة اذا لم تتوفر للمطلق أو المطلقة الأدلة والبراهين وفق الشروط التي فرضتها الكنيسة.

والتشريع المسيحي قد جعل من المرأة شخصية متساوية مع الرجل في الحقوق والواجبات من حيث المبدأ. أما من الناحية التطبيقية، فالشريعة المسيحية والقانون الكنسي أقر للزوج الحق في الاشراف والنيابة القانونية عن الزوجة في ادارة أموالها، ولا يحق للزوجة بأن تبعثر أموالها وتنفقها دون إذن مسبق من زوجها.

المرأة في الجاهلية:

تدلنا النصوص التاريخية القديمة التي اضطلعنا عليها والتي تتحدث عن المجتمعات القبلية، أو بالأحرى عن المجتمعات التي تعيش في ظل ظروفها الأصلية التي لم تتأثر معتقداتها وتقاليدها بتعاليم دين معين، أو حضارة معينة. ولم تعرف المجتمعات العربية بصورة خاصة في العصر الجاهلي نظام الفصل بين الجنسين، بل كانت العلاقة بين الرجال والنساء طبيعية، لا تخضع لتلك القيود الثقيلة التي تفرضها بعض المجتمعات في ذلك العهد، وخاصة ما يتعلق منها بسلوك المرأة الاجتماعي وتبيان بعض حقوقها وواجباتها المتعلقة بالأسرة والإرث والحرية، لأن المرأة العربية كانت تخضع خضوعاً تاماً لنظام الأسرة القبلي الذي كان سائداً في العصر الجاهلي حيث كانت تتكون القبيلة من الأسرة أو العشيرة بمعناها الواسع، وتضم جميع الأقارب ومن تربطهم صلة الدم أو القربى أو علاقة الولاء.

ومما يلفت النظر أن المرأة العربية في العصر الجاهلي كانت تستقبل ضيوف زوجها أو أخيها أو أسرتها في بيتها، وتجير من يلوذ بها من الرجال. ومن النساء من كانت تستقبل خطيبها، أو الراغب في الزواج

منها فتحادثه وتناقشه لتتبين شخصيته، وتتعرف على ذكائه وفطنته بدون قيود.

وهذا دليل واضح على أن المرأة في العصر الجاهلي كانت تتمتع ببعض الحرية الناتجة عن الثقة في سلوكها الاجتماعي، مما خولها حق المساهمة في وجوه النشاط الفكري والعقلي والأدبي والشعري وحتى المساهمة في النشاطات الحربية والعسكرية التي جسدت مدى شجاعتها ورجولتها في الحروب والمعارك القبلية والغزوات، فخاضت غمار المعارك واكتوت بلهيبها، فكان منهن من يلحقن بأبناء القبيلة يحرضنهم على القتال وخوض المعارك، ويبعثن فيهم النخوة والحمية حتى لا تخور عزائمهم، ويقدمن لهم الماء والطعام، ويعالجن المصابين والجرحى[1].

ويذكر التاريخ بأن الشعور الجماعي عند الجاهلية أقوى مما كان عند الأمم القديمة التي كانت ضرورات الحياة ترغمها على الحياة المجتمعة، وتفرض على كل فرد منها أن يقدس جماعته، ولا يحس بكيانه الفردي كما هي الحال في عصورنا الحديثة.

ولا نستغرب اذا كان الشعور الجماعي غالباً على المجتمع العربي في الجاهلية خاصة. فالحياة البدوية لا يقوى عليها الفرد. ولا يحافظ عليها إلّا من انصهر في بوتقة جماعته أو قبيلته أو عشيرته، فجعل منهم عدته وجعلوا منه عدتهم، واتخذوه سلاحاً في حياة تقوم على الصراع الدموي، والغزوات والغارات لكسب لقمة العيش.

وكان لكل قبيلة شيخها أو زعيمها أو قائدها المحرك لها الذي يوجهها حسب مصالح العشيرة أو القبيلة، كما كان لكل حي زعيمه ولكل بيت ربه، ورب البيت هو الأب، فله على كل من فيه سلطة

---

(١) كتاب ـ مجمع الأمثال للميداني جـ (١ـ ٢) وبلاغات النساء لابن طيغور ـ والأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ـ جـ (١٤ـ ١٩).

مطلقة، وكان أعظم سلطانه على زوجه. فكان مكان المرأة من زوجها مكان الخادم من سيده.

ونلمس من خلال هذه الوقائع ان المرأة كانت تفقد بعض حريتها وكثير من حقوقها، كالإرث مثلاً، وليس لها على زوجها أي حق شرعي باعتبار أن الحقوق الشرعية للمرأة لم تكن مسنونة ولا معروفة في ذلك العصر إلّا انطلاقاً من بعض التقاليد والعادات التي كانت معترف بها في ذلك الوقت عند بعض القبائل والعشائر حسب البيئة التي كانوا يعيشون فيها.

ومما يلاحظ بأن المرأة في بعض القبائل والعشائر كانت تعتبر كالسائمة، تورث مع سوائم زوجها وتصبح ملكاً خاصاً لورثة الزوج، وربما أجبرت على ارتكاب الموبقات والفجور لتزيد من ثروة المسيطر عليها. وكان للرجل أن يختار من النساء العدد الذي يرضاه لنفسه بلا تحديد، وذلك حتى يبلغ النسل غاية مداه، لأن كل من زاد نسله وكثر عدد أولاده، تمتع بالقوة والسطوة واحتل مكاناً مرموقاً بين قبيلته أو عشيرته، لأن البدوي في ذلك الوقت كان يحرص أشد الحرص على كثرة البنين ليشدوا أزره ويساعدوه على حماية أسرته وقبيلته.

والجدير بالذكر أن نظام تعدد الزوجات كان معروفاً ومشهوراً لدى بعض القبائل التي تسمح للرجل الجمع بين الزوجات، علمًا بأن بعض زعماء القبائل وشيوخها كان يحوز منهن العشرات بل المئات.

ومن المؤكد أن تعدد الزوجات الذي تتخذه هذه الصورة هو مجرد مظهر من مظاهر التباهي والتفاخر بين شيوخ وزعماء القبائل. ومن الطبيعي أن إكثار الأغنياء والوجهاء في القبائل من حيازة النساء من شأنه أن يقلل فرص الآخرين في الزواج، أو يضيّعه عليهم. والزوجات اللاتي يصل عددهن إلى العشرات والمئات، زوجات تعيسات جداً، لا تنالهن من الزواج سوى قيوده والتزاماته دون حقوقه ومزاياه.

واذا استثنينا زعماء القبائل وقادتها، لوجدنا أن الوضع العادي لتعدد الزوجات هو الجمع بين زوجتين أو ثلاث. ومن سمات تعدد الزوجات في ذلك العهد عند البدوي وجود زوجة ينظر إليها بوصفها الزوجة الأولى أو الكبيرة. وهي تتمتع بامتيازات لا تتمتع بها الزوجات الأخريات، بل إنهن مدينات لها بالاحترام والتبجيل. وقد يعترف لها في بعض القبائل بسلطة الأمر والنهي عليهن، فتراقب أعمالهن وتوجه سلوكهن وتسائلهن عن أخطائهن.

وكان العرب يفضلون الزواج من غير قبيلتهم لما في هذا الزواج من تقارب بين القبيلتين، باعتبار أن النسل من مثل هذا الزواج يكون أقوى وأصلب. وهذا ما دعاهم الى التمسك بسبايا الحروب والغزوات لينجبن لهم الأطفال، ويحققوا لهم صلة الرحم بين القبائل المختلفة المتنازعة.

وكانت الدية في أغلب الأحيان تؤخذ من النساء، دية المقتول فتاتان أو أكثر حسب منزلة المقتول في قومه من القبيلة أو العشيرة القاتلة. ويبدو أن الأفضلية في الزواج كانت لابن العم الذي له الأسبقية في طلب اليد، باعتباره أشد عصبية وقرابة في النسب والدم من الآخرين. فليس بمقدور الأب أن يمسك ابنته عن ابن عمها طالما باستطاعته أن يدفع المهر المتعارف عليه في القبيلة، وإن زاد غيره أضعاف مضاعفة على مهرها. وعادة كان الخطيب بعد أن يدفع المهر المحدد ينقل خطيبته الى مضاربه وسط الأهازيج والزغاريد، وبذلك كان يتم الزواج بين القبائل والعشائر على هذه الصورة. ولكن بعض القبائل كانت تستخدم صوراً غير هذه الصورة تنسجم مع عاداتها وتقاليدها المعترف عليها في بيئتهم ومجتمعهم.

وعلى سبيل المثال كان الزوج يتزوج من قبيلة أخرى يترك زوجته فيها، يزورها من فترة الى أخرى كلما مرّ في رحلاته التجارية على تلك

القبيلة، وكان الأبناء القادمين من هذا الزواج يبقون ضمن قبيلة أمهم حتى يشبوا عن الطوق، فينسبون الى قبيلة أمهم.

وبالإضافة الى هذه الأنواع من الزواج، كان هناك الزواج العرفي الموقت حيث أعطيت الزوجة حق خصم عرى هذا الزواج عندما تشاء.

ومما يذكره تاريخ اليمن أن الملكية كانت مشاعاً بين أفراد الأسرة في بعض العهود، وكانت المرأة من بين هذه الملكية مشاعاً لجميع أفراد الأسرة.

والأغرب من ذلك ما يسمونه بنكاح الاستبضاع الذي كان معروفاً عند بعض القبائل البدوية حيث كان يسمح للزوج بوضع زوجته أمانة عند رجل آخر حتى اذا حملت ردها إليه ونسب حملها إليه. ولعل هذا متأتياً بسبب العقم الذي كان يصاب به بعض الرجال.

وفي كثير من القبائل وخاصة القبائل الافريقية منها، يسود نوع من الترخص الجنسي، فتجيز تقاليد بعضها لشبابها وفتياتها الاتصال جنسياً قبل الزواج. حيث أن قيمتهـا الاخلاقية لا تنكر، حتى أن تلد الفتاة طفلاً أو اثنين من رجل أو رجلين قبل الزواج.

وفي بعض القبائل الأخرى تبيح التقـاليد نـوعاً من العـلاقات الجنسية بين الذكور والإناث لا ينطوى عـلى وطء حقيقي. والبعض الآخر يشجع على ترخص الأزواج. فالعرف يحرّم على الزوج معاشرة زوجته أثناء الحمل وحتى الشهور الأخيرة منه على الأقل حتى تتم الولادة وإفطام الطفل. وقد تمتد هذه الفترة ما بين سنة إلى ثلاث سنوات. ومن هنا نلاحظ بأن الزوج لا يقدر أن يصبر على الحرمان من المتعة الجنسية طيلة هذه المدة، ولذلك يتساهل العرف في نظرته الى العلاقة الجنسية التي يكون مثل هذا الزوج طرفاً فيها.

ففي هذه المجتمعات لا نجد تفرقة بين الـذكور والإنـاث من

أفرادها، بل يختلط الفتية والفتيات، والرجال والنساء في شيء كثير من الحرية ويساهمون بالمشاركة في أغلب النشاطات التي تنطوي عليها حياتهم اليومية على قدم المساواة. ويبدأ هذا الاختلاط منذ مرحلة الطفولة ويستمر حتى نهاية الحياة. ففي مرحلة الطفولة ليست هناك أية قيود على نشاط الأطفال فهم يمارسون ألعابهم المختلفة دون ما تفرقة بسبب الجنس. بل أن إحدى ألعابهم المفضلة هي تمثيل حفلات الزواج وتقليد الحياة الزوجية حيث يقوم الصبي بدور العريس أو الزوج، وتقوم الصبية بدور العروس أو الزوجة. وعندما يكبر الأطفال بعض الشيء يبدأون في مساعدة والديهم، وهنا تبدأ التفرقة بين الإناث والذكور تقريباً. فتقوم البنات بمعاونة أمهاتهن في القيام بالأعمال المنزلية فيساعدنها في أداء الواجبات كاملة وعلى مختلف ما يتطلبه المنزل من تنظيف الكوخ وجلب الماء والوقود، واشعال النار، وتحضير الطعام، وغسل وكي الثياب، كما يساعدنها فيما يقع على عاتقها من عمل زراعي. بينما الفتيان يساعدن آبائهم في الأعمال التي يجري العرف باعتبارها من اختصاص الرجال كإعداد الزريبة والعناية بقطعان الماشية والأغنام واصطحابها الى المراعي وحراستها.

ولكن هذا لا يعني انفصالاً بين الذكور والإناث، لأن طبيعة العمل الذي يقوم به الفرد يتطلب منهم هذا الانفصال الموقت، ويوجد فرص كثيرة وعديدة للقاء ببعضهم ببعض، فهم يلتقون في المراعي حيث يتجاذبون أطراف الحديث، ويتقابلون في حلبات الرقص حيث يشاركون في أدائه أو يكتفون بمشاهدة الراقصين، وثم يجتمعون في حفلات الزواج وغيره من المناسبات. وتؤم النساء الأسواق القبلية جنباً إلى جنب مع الرجال، ويترددون على الحقول حيث يعملن عندما يقتضي الأمر في زمرة تضم الرجال والنساء على السواء.

واذا كانت القاعدة في المجتمعات القبلية هي اباحة الاختلاط بين

الجنسين إلى اعتبارات تختلف تبعاً للأحوال. فقد يجري العرف بتقييد اتصال شخص أو أشخاص معينين بآخرين، وقد يجري بتحريم الاتصال بين الجنسين في مناسبة أو ظرف خاص. ومن الأمثلة على تقييد الاتصال بين أشخاص معنيين، هي تقييد حرية الرجل في الاختلاط بحماته، وكذلك تقييد المرأة في الاختلاط بحماها. وتختلف القبائل في كيفية تنظيمها لهذا التقييد، لكنها تتفق في محاولة جعل هذا الاختلاط في أضيق الحدود.

والمثال على ذلك في أوغندا بافريقيا، كان العرف لديهم يحرم على الأم دخول بيت ابنتها المتزوجة أو الحديث مع زوج ابنتها. واذا تقابلا في الطريق وجب عليها أن تتنحى جانباً وأن تغطي رأسها بثوبها، واذا لم يكن ثوبها كافياً، وجب عليها أن تجلس القرفصاء وأن تخفي عينيها وجزءاً من وجهها براحتيها.

وكذلك تحريم الاختلاط بين الأخ وأخته لدى بعض القبائل كما هو الحال مثلاً لدى «الهوتنتوت» في جنوب أفريقيا. حيث تعتبر الأخت في علاقتها بأخيها شخصاً واجب الاحترام، لا ينبغي الحديث اليه أو عنه في خفة. ويقال عن الأخ أنه يكون خجلاً في حضورها، فيجب ألا يخاطبها وجهاً لوجه. واذا أراد الحديث اليها فعليه أن يطلب الى آخر توجيه الحديث نيابة عنه، واذا لم يوجد من يقوم بذلك، يمكنه أن يقول بصوت مرتفع إني أود لو أن أحداً أخبر أختي بأنني أريد جرعة لبن أو أي شيء من هذا القبيل، فتلبي طلبه فوراً.

ومن أمثلة الحالات التي يحرم فيها الاتصال بين الجنسين لظرف خاص هو ختان البنات. ويرجع المنع هنا الى اعتبارات تتعلق بالحياء من ناحية، ومن ناحية أخرى الى الخوف من تأثير وجود بعض الأشخاص تأثيراً سيئاً على صحة البنات اللاتي تتم بالنسبة لهن عملية الختان.

وكذلك تعتبر الولادة مناسبة لحجب المرأة عن الرجال، بحيث لا

يجوز لأحدهم دخول كوخها، وقد يطبق المنع على الزوج نفسه، وقد تمتد هذه الفترة الى شهر أو أكثر.

وفي بعض القبائل يعتبر مجيء الحيض لاعتزال المرأة واحتجابها أثناء مدة الحيض بحيث يمتنع عليها الاتصال بزوجها أو غيره من الرجال خلال هذه الفترة والسبب في احتجاب المرأة هنا هو اعتقادهم في أنها تكون في حالة نجاسة شعائرية تنطوي على مخاطر لمن يتصل بها. وعلى ذلك فالمرأة القبلية تتمتع بحرية كبيرة في الاتصال بالرجل، فهي تسير سافرة لا تحمل برقعاً أو نقاباً، وتخاطب الرجال وجهاً لوجه، وتجلس معهم للحديث وتشاركهم وجوه النشاطات المختلفة. ولا تعرف هذه المجتمعات لحجاب المرأة سوى حالات قليلة لها مبررات خاصة[1].

واذا ما نظرنا الى تاريخ الجاهلية لاحظنا أن عملية وأد الأطفال كانت معروفة ومنتشرة في المجتمعات القبلية بصورة تشمئز منها النفوس وتدمي القلوب، والأمثلة على الوأد متعددة وكثيرة، فإذا ما ولد طفلاً على سبيل المثال وكان هذا الطفل قد أطلّ على العالم بقدميه أولاً بدل رأسه، فإنه بشارة نحس وشؤم على أبويه، وكذلك إذا ولد الطفل بذراع واحدة خلاف المعترف عليه أو إذا ولد بساق واحدة، أو اذا ولد وأحد كفيه يزيد أو ينقص أصبع، أو تظهر قواطعه العليا قبل السفلى على خلاف المعروف. وكل هذه العاهات تؤدي إلى وأد الطفل، لاعتقاد أبويه بأن روحاً شريرة قد جاءت به الى العالم ليكون دليلاً على الشؤم أو النحس، وربما يجلب الشر والمصائب والكوارث الى والديه. لذلك رأوا أن لا بد من التخلص من هذا الطفل حتى لا يجلب اليهم المصائب.

أما كيفية الخلاص من هذا الطفل، فكانت متنوعة ومتعددة

---

(١) مجلة العربي الكويتية للدكتور سلام زناتي رقم ١٢٤ سنة ١٩٦٠.

حسب البيئة والمجتمع الذي يعيش فيه. فهناك على سبيل المثال من كان يتخلص من طفله عن طريق وضع قطعة من العجين في فمه، أو قطعة من الطين لتكتم أنفاسه. أو بتغطية وجهه بأي غطاء حتى يلفظ نفسه، أو قد يتم اغراقه في أحد الأنهار ، أو يعلق إلى فرع شجرة، أو يترك في حفرة طعاماً للوحوش.

وربما تعود عادة وأد الأطفال المشوهين جسدياً لدى بعض القبائل بسبب الحالة الاقتصادية وعدم استطاعة المشوه من العمل وتوفير الطعام نظراً لضعف بنيته، لأن العمل في تلك الأوقات يتطلب قوة جسدية هائلة، وبدناً سليماً معافى ليتمكن من المساهمة في تنمية المجتمع وتقوية انتاجه والدفاع عنه أثناء الحروب والغزوات.

ويبدو أن المرأة العربية في الجاهلية كانت تعاني وطأة القيود التي كانت تفرضها عليها بعض التقاليد والعادات الهمجية. ومما لا شك فيه بأن مركزها كان يختلف باختلاف القبائل والبيئات التي تعيش في كنفها. فعلى سبيل المثال كان الرجل اذا مات وله زوجة وأولاد من غيرها، كان الولد الأكبر أحق بزوجة أبيه من غيره، ويعتبرها ارثاً كبقية أموال أبيه، فإن أراد أن يعلن رغبته في الزواج منها، عليه أن يطرح ثوباً عليها حتى تكون له، وإلّا كان لها الحق أن تتزوج بمن تشاء. واذا أنجبت المرأة وولدت أنثى فيتشائمون ولا يرحبون بميلادها، لاعتقادهم أنها مجلبة للعار لعائلتها وقبيلتها. وكان الوالد في أكثر الأحيان يذهب بطفلته وهي حية، فيحفر لها حفرة ويدفنها فيها، ويهيل عليها التراب حتى تخمد أنفاسها وتزهق روحها. وبذلك يرتاح باله بأنه قد أمن العار المتوقع أن يلحقه منها. وأما هذه العادة لم تكن متفشية في كل قبائل العرب، بل في بعض القبائل المتواجدة في ذلك العصر وإلّا لاندثر النسل المتواجد بين الأنثى والذكر على مرّ العصور.

ومن النصوص التي تؤكد بأن وأد البنات في قريش مرجعه أصلاً

لم يكن امتهان أنوثتها أو شخصيتها بقدر ما كان مرجعه لدى أقلية ضئيلة من قبائل العرب لاعتقادهم أن المرأة شخصاً غير عامل أو منتج، فهي عالة على أهلها. وبعضهم كان يرى وأد البنات خشية الفقر، أو لشدة غيرتهم عليها وعلى عرضها أن يدنس، باعتبارها عورة تجلب الدنس والعار لأهلها. وهذه العادة ظلت محظورة النطاق بين الوالد وابنته[1].

ومما يرويه المؤرخون عن عمر بن الخطاب، أنه كان جالساً مع بعض الصحابة، ضحك قليلاً ثم بكى. فسأله من كان في مجلسه لم هذا البكاء وهذا الضحك؟ فرد عليه قائلاً: «كنا في الجاهلية نصنع صنمًا من العجوة فنعبده ثم نأكله، وهذا سبب ضحكي، أما بكائي فلأنه كانت لي ابنة فأردت وأدها ولما حفرت لها حفرة وطمرتها فيها، فصارت تنفض التراب عن لحيتي فدفنتها حية».

وهكذا نرى أن المرأة في الجاهلية وقبل ظهور الاسلام أخذت تسوء حالها من سيء إلى أسوأ في بعض أنحاء الجزيرة مما أدى الى تدني قيمتها المناقبية، ومركزها الاجتماعي فحاولت جاهدة الخروج من هذه الدوامة لتلحق بركب المجتمع الذي تعيش فيه، ولكن محاولاتها باءت بالفشل ومع هذا الفشل ظلت المرأة المتزوجة تكرم من قبل زوجها وخاصة اذا كانت تلك الزوجة ابنة أحد الأثرياء أو الزعماء أو القادة المعروفين في القبيلة، أو اذا كانت أماً لطفل مدلل أو ابن زعيم أو شيخ أو قائد. ومن الطبيعي أن لا يكون تكريم المرأة في الجاهلية كونها امرأة فقط، إنما كانت تكرم حسب مكانتها القبلية والاجتماعية ومدى عراقة أرومتها، فالأب والزوج أو الأخ قد يوفروا الحماية والتكريم لمن يمت اليهم بصلة النسب من النساء، كونهم يعتزون ويفخرون بحَماية من يلوذ اليهم بصلة النسب كما يفخرون بالفرس الأصيل والأرض الطيبة والمواشي

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون ـ ص ٢٢ ـ والفاروق عمر جـ ٢ـ ص ٢٣٩.

العديدة، فهذه الأشياء كلها، كان زعماء العرب في الجاهلية يحافظون عليها ويزودون عن حياضها كونها تجسد شرفهم وكرامتهم وعرضهم.

إلّا أنه من الملاحظ أن هناك بعض القبائل كان الرجال فيها عندما يحتاجون إلى المادة لسد بعض حاجاتهم الاقتصادية، يقدمون على رهن أو بيع نسائهم لسداد ما تراكم عليهم من ديون. وهذه العادة كانت معروفة قبل ظهور الرسالة المحمدية بفترة ليست بقصيرة.

المرأة في الاسلام:

هذه الأدوار التي تقلبت فيها المرأة عبر التاريخ بين المد والجزر، والتطور والتقهقر، جعلت الاسلام عند ظهوره يوجه إلى المرأة ومشاكلها في المجتمع الجديد اهتماماً خاصاً، وجعلها تتوصل الى حقوقها كاملة بدون التباس أو غموض.

فالقرآن الكريم الذي يعتبر الدستور الاسلامي الصحيح بما جاء فيه من آيات تبين حقوق المرأة بشكل لا يقبل النقاش أو الجدل، قد منح المرأة المسلمة كافة الحقوق التي ساوتها بالرجل، ورفعها من المكانة الوضيعة التي كانت فيها الى مصاف الانسان العامل المنتج المنحدر من صلب آدم وحواء. كما أنه رفع عنها وصمة العار ورجس الشيطان وأوصلها إلى ذروة الكمال والمثالية.

ومما لا شك فيه بأن الرسول الكريم الصادق الأمين قد أدى رسالته الاصلاحية الكبرى في بلاد كانت تسود مجتمعاتها القبلية والعشائرية بالزعامات المتوارثة منذ القديم والتي كانت تفعل فعل السحر في المجتمعات الجاهلية وتقوض معالمها، وتهد أركانها، وتبعث فيها الفساد والجهل. ولكن الرسول الكريم بما جاء به من تشريعات خلقية واجتماعية استطاع بفترة قصيرة من الزمن أن يعطي صاحب كل حق حقه، وينظم المجتمع الاسلامي تنظيمًا دقيقاً خصص فيه للمرأة التي

كانت مهضومة الحقوق، مهيضة الجانب أكبر قدر من التطور والرقي، حيث أعلن مساواتها مع الرجل، لا تزيد عنه ولا تنقص في الحقوق والواجبات. وكذلك لم يغفل القرآن عن المرأة، فرفع عنها مساوىء الجاهلية ومنحها حقوقها في الارث والحياة الاجتماعية الكريمة، ونزع عنها لعنة الخطيئة الأبدية، ووصمة الجسد المرذول. فمنحها كما منح زوجها التوبة والغفران عندما يوسوس لهما الشيطان، فقال تعالى: «فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه»[1] وقوله أيضاً: «فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما»[2].

وهكذا أعلن الاسلام أن الله خلق الرجل والمرأة من روح واحدة ومن أصل مشترك، وإذا أصبحت المرأة شريرة وفاسدة، فهذا ليس منحصراً في جنسها فقط، بل وفي الرجل أيضاً، يجب أن نعاملها كما نعامله، واذاسطع مركز منير في وجود الرجل! فممكن أن يسطع هذا المركز في جنس المرأة أيضاً.

وقد أشار النبي ﷺ الى أن: الرجل والمرأة جزئين من جسد واحد. لقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً واتقوا الله الذي تسائلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾[3]وقوله أيضاً: ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾[4]

وبهذا المعنى ردّ الدين الاسلامي الى المرأة اعتبارها فبدلاً من حجودهم لها وإنكارهم بأنها روح مثلهم كونها رجسة لا تدخل الجنة. كما أن القرآن الكريم قد أكد على ضرورة مساواة الرجل بالمرأة كونهما من نفس واحدة تستحق الاعتناء والاهتمام لقوله تعالى: ﴿إدخلوا الجنة

---

(١) سورة البقرة آية ٣٦.
(٢) سورة الأعراف آية ٢٠.
(٣) سورة النساء آية ١.
(٤) سورة النحل آية ٧٢.

أنتم وأزواجكم تحبرون﴾[1] وقوله أيضاً: ﴿فمن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حيوٰة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[2] وقوله تعالى : ﴿إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وخلق منها زوجاً﴾. أي خلق حواء وآدم من طينة واحدة، فهي بهذا نصفه الثنائي تمثل نفس خصائصه، وتتركب من نفس العناصر الطبيعية التي يتركب منها. وبهذا المعنى رفع القرآن شأن حواء، ومحا عنها وصمة النجس والدنس، وسواها من حيث بشريتها وانسانيتها بزوجها آدم لقوله تعالى ؛﴿وبث منهما رجالاً كثيرا ونساءً﴾ أي من آدم وحواء وتزاوجهما أتى منهما الرجال والنساء وكثرت الطبيعة البشرية بازدواجهما بعضهما ببعض لا فرق بينهما، واذا كان هناك فرق، فالبطن الذي أنجب أنثى أو ذكراً واحداً فكذلك هم أنجاس، لا فرق بين الذكر الذي أتى من نفس البطن الذي أتت منه أخته.

فالمرأة على هذا الوضع أخت الرجل، والرجل أخ المرأة، والذكر شقيق الأنثى، والأنثى شقيقة الذكر، اذ أنهما انحدرا من أب واحد وأم واحدة. ولذلك قال رسول الله : ﴿إنما النساء شقائق الرجال﴾. ولهذه الأخوة مقتضيات كثيرة، منها أن المرأة كفء الرجل في انسانيته ومساوية له في القدرة والقدر الذي سواهما من نفس واحدة بالمثالية والكمال.

فالإسلام قد انتشل المرأة من الهوة المظلمة التي كانت تتردى فيها

---

(١) سورة الزخرف آية ٧٠.

(٢) سورة النحل آية ٩٧.

(٣) سورة الأحزاب آية ٣٥.

في الجاهلية، ومسح وصمة العار عن جبينها، وأقامها إلى جانب شقيقها الرجل على أساس من التعادل والمساواة في الحقوق والواجبات، لذلك فإنها تجسد كافة الخصائص والصفات التي يتمتع بها الرجل في المجتمع الاسلامي. ومن شأن هذه المساواة تنمية المودة والأخوة الحقة بين الجنسين عملاً بقوله تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً﴾[1]. وقوله تعالى الذي يخطر باضطهاد المرأة ووأدها وحرمانها وتحقيرها وبيعها كما تباع السلع، بل يفرض المودة والرحمة والمساواة، وينفي بنفس الوقت عنها مشاركة آدم في ارتكاب الخطيئة التي سببت لهما الطرد من الجنة فقال: ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع الى حين﴾[2]

وهذا مما يدل بأنهما كانا زوجان من نفس واحدة تكونا وبارتكابهما الخطيئة الأولى أهبطا سوياً إلى الأرض لا فرق بينهما من حيث الطهارة أو النجاسة أو الدعة والعفة.

ومما لا شك فيه بأن شخصية الفرد التي اكتسبها من حيث القوة والشجاعة امرأة كانت أو ذكراً تكون وليدة لخصائصها الفردية، ومن ضمن هذه الصفات حياء المرأة وخجلها وهذه من أعظم وأعلى الفضائل التي منّ الله عليه بها دون الرجل، لأن الطبيعة اكسبت الرجل القوة والسيطرة بحسب تركيبه الفسيولوجي المتمايز عن تركيب المرأة. وهذا مما دعا البعض من المؤ رخين يقولون في المرأة ما يقولون، وجعلوها كاللعنة الأبدية لا تمحى.

وبفضل الاسلام والشريعة المحمدية توصلت المرأة الى طريقها

(١) سورة النساء آية ١.

(٢) سورة البقرة آية (٣٥- ٣٦).

الحقيقي إلى جانب الرجل وأصبح لها مكانتها في الحياة الاجتماعية، واستمدت طبيعتها الروحية لتنسجم مع شريكها الذي هو من عنصرها بهيكلها الجسدي، يهتمان برعاية نفسيهما وجسديهما بما فرضه القرآن عليهما بعدم التمايز بينهما، لأنهما وجدا من صنع خالق واحد، فبرأ المرأة من لعنة الجسد، ورفع عنها وصمة الخضوع والذل بعد أن خضعت لهما فترة طويلة من الزمن كانت خلالها قرينة للشهوات الحيوانية البهيمية وغرائز الشيطان.

ومما يثير الاعجاب أن القرآن الكريم لم يقف من المسلم عند حد وأد البنات خشية الإملاق والعار، باعتبارهما وصمة عار وشنار، إنما أوجب عليه عدم التبرم من البنات وأن لا يتقبل ولادتهن بالعبوس والإنقباض لقوله تعالى: ﴿واذا بشر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم﴾[1] بل أوجب الله سبحانه وتعالى رعاية الانسان لأبيه وأمه، كما ساوى رعايته لبنيه وبناته، وخصّ الأمهات بالتنويه في هذا المقام بقوله تعالى: ﴿ووصينا الانسان بوالديه احساناً، حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً﴾[2].

وتدلنا الآيات القرآنية على أن الله سبحانه وتعالى شاء في كتابه الكريم أن يعكس أوضاع المرأة الاجتماعية بصورة جذرية ليخلصها مما كانت تعانيه، فأحدثت آياته الكريمة انقلاباً في أوضاع المرأة بصورة عامة من كونها زوجة وأم وابنة ينبغي احترامهن ومساعدتهن في حياتهن الاجتماعية، وعلاقتهن البيئية بالتساوي مع الزوج والأب والابن، وبذلك تتوفر للمجتمع الاسلامي الذي حددت فيه حقوق وواجبات المرأة، النمو والتطور والاستقرار.

وهذه المبادىء الأساسية في الحياة الاجتماعية الاسلامية جعلت

(١) سورة النحل آية ٥٨.
(٢) سورة الأحقاف آية ١٥.

المرأة والرجل عضوان يكمل أحدهما الآخر خلقا ليؤلفا الأسرة، ويعيشا على أكمل حال من المحبة والتعاطف لقوله تعالى: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾[1].

واعتماداً على ما قاله الرسول الكريم عندما ساوى بقوله وارشاداته وتعليماته بين الرجل والمرأة حيث قال: ﴿إنما النساء شقائق الرجال﴾ معتمداً في قوله هذا على ما قاله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾[2] وما دام الله سبحانه وتعالى قد قال بأنه خلق الرجل والمرأة من نفس واحدة فلا بد من أن يطبق رسوله هذا القول في المجتمع الاسلامي ليساوي بين كلا الجنسين.

وإذا ما تلفتنا بإمعان وروية إلى بعض آي الذكر الحكيم التي تنحو باللائمة على آدم باعتباره المسبب الرئيسي للخطيئة الأولى حيث قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾[3] وجدنا أنه تعالى قد برأ المرأة من هذه الخطيئة وجعلها أهلاً للتديّن والعبادة ودخول الجنة إن أحسنت، ومعاقبتها إن أساءت عملاً لقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾[4] وقوله تعالى: ﴿فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾[5].

ونلاحظ من هذه الآيات أن الله سبحانه وتعالى قد ساوى بين الجنسين حيث وجه مخاطبته للمؤمنين والمؤمنات بدون أي فرق أو اختلاف أو تفضيل بين الجنسين، بل تحدث عن النساء في رفق وإكرام

---

(١) سورة الروم آية ٢١.
(٢) سورة النساء آية ١.
(٣) سورة طه آية ١٢١.
(٤) سورة النحل آية ٩٧.
(٥) سورة آل عمران آية ١٩٥.

بقوله تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾[1].

وقوله أيضاً: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلّا إياه وبالوالدين إحسانا، أما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما، فلا تقل لهما أف، ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾[2].

فهذه الآيات جميعها إنما احتوته ما احتوت من أوامر ونهي وتشريعات بسبيل اصلاح ما كانت عليه المرأة من غبن وتعرض للعنت والارهاق، وبالتالي فإنها قد انطوت على صور كثيرة مما كانت عليها قبل البعثة المحمدية الاسلامية وحتى في عصر النبي من تشريعات حقانية حول معاملة المرأة بالحسنى بدل الظلم والاحتقار.

ولقد وردت بعض الآيات في القرآن الكريم تتحدث عن ولادة البنات وما لهن من كراهية، وتندد بالكفار على نسبتهم البنات الى الله بينما المفضل عندهم البنون، وبينما المعقول أن يكون لله ما هو الأفضل والأتقى بالإيمان. وكذلك تذكر الآيات القرآنية وأدهم البنات لقول الله تعالى: ﴿ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون، واذا بشر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾[3].

وقوله: ﴿واذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين. وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن أناثاً أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون﴾[4].

---

(١) سورة النساء آية ١٢٤.
(٢) سورة الأسراء آية (٢٣ـ ٢٤).
(٣) سورة النحل آية (٥٧ـ ٥٨ـ ٥٩).
(٤) سورة الزخرف آية (١٧ـ ١٨ـ ١٩).

وقوله: ﴿فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون. أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون﴾[1].

وقوله: ﴿ألكم الذكر وله الأنثى. تلك اذاً قسمة ضيزى﴾[2].

وقوله: ﴿وإذا الموؤ دة سُئلت. بأي ذنب قُتلت﴾[3].

فهذه الآيات تدل على ما كان للأنثى بوجه عام من مركز مهين على الرجل، وعلى ما كان لولادتها من أثر سيء في نفسه، ولو كان ذلك لأسباب خارجة عن ذات المرأة كما يرجح بل نحزم مثل خوف الآباء من العار والمتاعب وتفضيل الذكر لأنه أكثر غناء في الحرب، المواقف العصيبة، وكسب الرزق.

ولقد كانت دعوة القرآن عامة للرجل والمرأة على السواء، حيث كلفت المرأة فيه بجميع الواجبات الإيمانية والتعبدية والمالية البدنية والاجتماعية الخطيرة، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبادل النصر مع الرجال والجهاد بالمال والنفس، ومنحت حقوقها وحريتها، تتصرف فيها كما يتصرف الرجل من حيث الاجمال في ما عدا استثناءات قليلة معينة.

فيدلنا هذا على أن المرأة العربية في عصر النبي (ص) وبيئته وهي أولى النساء المخاطبات بالقرآن على العموم، مترشحة لكل ذلك، وأنها وصلت قبل البعثة الى طور كانت فيه متأهلة لاثبات شخصيتها ووجودها وحماية حقوقها، أو إلى طور أخذت تبدو أهليتها لذلك قوية بارزة.

وهناك آيات تتصل بحياة الأسرة والمواريث واليتامى والمرأة. كما هو المعروف قبل البعثة المحمدية بالتشريعات والآيات القرآنية ستتعرض

(١) سورة الصافات آية (١٤٩ـ ١٥٠). (٣)سورة التكوير آية (٨ـ ٩).
(٢) سورة النجم آية (٢١ - ٢٢)

اليها فيما يأتي من أبحاث في هذا الكتاب علمًا بأن الطلاق كان معروفاً في الأوساط القبلية. وكانت عقدة الزواج بيد الرجل، وكان الأزواج يتخذون الطلاق أحياناً وسيلة لمضارة الزوجة. وابتزاز أموالها وحملها على افتداء نفسها بالمال من زوجها، كذلك فإننا نفهم أن منه ما كان باتاً، ومنه ما كان رجعياً. وأن الطلاق الرجعي كان كذلك وسيلة إلى ابتزاز المال أو المضارة من ناحية الزوج حيناً ومن ناحية أهل الزوجة حيناً آخر، حيث كان الزوج يطلق طلاقاً غير بات - فهو الذي سمي رجعياً - فتبقى الزوجة معلقة في عصمته لا يسرحها.ولا يمسكها بمعروف وحسن معاشرة، أو حيث كان أهل الزوجة يمنعونها من الرجوع إلى زوجها إما بقصد ابتزاز مال منه أو بسبب الحقد.

مساهمة المرأة في الحياة الاجتماعية في فجر الإسلام:

عندما شع فجر الإسلام وأضاء بنوره الجزيرة العربية حدثت تغيرات جذرية عميقة في أنحاء الجزيرة وخاصة ما يتعلق منها بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، حيث انطلقت ثورة عارمة اصلاحية شملت الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها فقلبتها رأساً على عقب، وهذا التحول باعتقادنا لا يختلف كثيراً عما حصل في بلاد اليونان عندما تفسخ النظام القبلي والعشائري عندهم، فقام على أنقاضه مجتمع جديد، وأعقب على أثر ذلك تغيرات جذرية شاملة في العقل والروح والأخلاق والتنظيم الاجتماعي والعقائدي. وهذا ما حصل أيضاً في شبه الجزيرة العربية بعد انتفاضة محمد ﷺ والشريعة الاسلامية التي أتى بها، فغيرت النفوس وتبدلت نظم الحياة، فاستتبع ذلك نشوء مجتمع جديد له حاجاته الجديدة ومعاييره السامية، وله أيضاً آمال وأهداف جديدة وقيم ومثل عليا جديدة، وأساليب في التفكير والاعتقاد الجديد الذي دخل بدون دستور أو أذن إلى كل بيت، وإلى كل امرأة أو رجلاً، فقلب مفاهيمهم الجاهلية وتعنتهم واستبدادهم المستمر حول المرأة الضعيفة، مما جعل هذا

الجيل الجديد يتغلب على الصعوبات التي استمرت فترة من الزمن في عصر الجاهلية، لأن نظام المجتمع في الجاهلية كان موافق لرغبة الرجل كل الموافقة، لا نظام فيه ولا شريعة إلاّ شريعة الغاب، القوي يأكل الضعيف. مجتمع تسوده الفوضى وينعدم فيه القانون وتكون الغلبة فيه للقوي، فلا حكومة ولا نظام للحياة، ولا تشاريع قانونية ولا مشاكل تتطلب الحل، ولا توثب ولا انبعاث، بل ركود وعنعنات قبلية ونزاعات عشائرية جاهلية لا تنتهي.

وبسطوع نور محمد وبزوغ فجر الاسلام بما فيه من قوانين وتشريعات وتنظيمات اجتماعية واقتصادية وسياسية، احتلت من وقت الرسول واهتمامه ما جعله يخصص لهذه المشاكل المستعصية التي ورثها الاسلام عن الجاهلية الكثير من وقته، فشملت دعوته الجميع وخاصة المرأة المهضومة الحقوق، مما دفع هؤلاء النسوة لأن يمسكن بأذيال الدعوة الجديدة بإيمان ووله وحب وتفان. لأن هذا الدين الجديد انتشلهن من بؤرة الفساد التي كانت تعانيها النسوة آنذاك، وأيدن دعوته وتشريعاته، وزعزعن المملكة القديمة التي اسمها الحياة الجاهلية وشيدوا على أنقاضها الدعوة الجديدة التي دعمها الدين الاسلامي بزعامة رسول الله الذي شد أزرهن واعطاهن حقوقهن كبشر وساواهن بالرجال من حيث التبعية الهيكلية، مما أثار سخط الرجال وحنقهم على هذا الدستور الجديد والشريعة الجديدة، فحاربوا دعوته ووقفوا سداً منيعاً في طريق تقدمها وانتشارها بكل عزم وجهد ومال، ولكن الله أبى إلاّ أن ينصر رسوله ودينه الجديد ولو كره المشركون.

وهكذا جعل الله المرأة تساهم في تغيير العادات والتقاليد المتوارثة عن الأجداد باعتباره غير صالح لتقدمها وتطورها نحو الأمثل، وبذلك دعت الحاجة الى قيام نظام جديد للمجتمع الاسلامي ينطلق من تعاليم القرآن الكريم وإرشادات وأحاديث النبي ﷺ.

ولم يقف التقدم الاجتماعي الاسلامي عند هذا الحد، بل قلب وزعزع وشتت العديد من الأسر العائلية المنكمشة على نفسها آنذاك.

ومما لا شك فيه بأن انتفاضة الرسول (ع) بما جاء به من تشريعات وأنظمة ومبادىء تنهد إلى التغيير الكامل الجذري في أسس المجتمعات الاسلامية، وتقاليدها وعاداتها الجاهلية التي خلقت الظروف الملائمة لتكوين عقلية جديدة متوثبة كانت منار الإنسانية في عصور الظلام. وليست هذه العقلية وليدة نفحات من بدء التطور الزمني القصير التي قامت به الدعوة الى التجديد والتغيير، بل يرجع الى المبادرة العربية وحدها في فضل إنشاء هذا التطور وهذا الدور الذي لعبته لتسخيرها لأغراضها وحاجاتها ومثلها العليا. وتنطلق هذه المبادىء من الأمور التالية:

أولاً - إرادة الفرد في الإنطلاق إلى عالم جديد، وتحقيق الذات التي كانت تنفث المعرفة والتطور في الهيكل الإنساني، لخلق ذات جديدة تلهب مشاعرهم، وتغير مسالك دروبهم.

ثانياً - البناء الجاهلي القديم الذي فقد إمكانياته مع هذه الشريعة الجديدة التي قوضت أركان الأسرة من أساسها، وقلبت معايير الحياة السلبية التي كانت المرأة تعيش في ظلها، لم تعد مهيأة لتلبية مطالبها الأنثوية والروحية مع التقدم والتطور الذي فاجآها مما دفعها بكل قوة وإيمان لنبذ الماضي الجاهلي وتقبل الدعوة الجديدة.

ثالثاً - فعل القوى الاجتماعية الداخلية الجديدة التي حطمت اطارات البناء القديم ودكت أركانه، وأظهرت عوراته ومعايبه، لتقيم على أنقاضه بالتدريج أسس البناء الجديد وترفع قواعده عالية شامخة لتلحق بركب الحضارة لمتطور.

رابعاً - ولما كان المجتمع العربي الجاهلي قبل الاسلام تعمه

الفوضى في العلاقات الجنسية ونظام الأسرة، مما سهل للشريعة الجديدة الدخول بسرعة وقوة الى نفس المرأة قبل الرجل الذي جاهد بكل كيانه حتى يحافظ عما عليه من الزعامة بين عشيرته وقبيلته.

خامساً ـ ولما كان النظام القبلي ينظر إلى المرأة المسكينة نظرة احتقار واستصغار، ويعتبرها أداة للمتع، وإشباعاً للغريزة. وأما من الناحية الانسانية، فينظر اليها نظرة ساقطة هابطة مما جعل في داخلها الغريزي الحقد على ذويها وأسرتها. واللحوق بالركب السريع في طريق التطور التصاعدي التدريجي، خطوة خطوة خوفاً من الوقوع في جهل الأمور الخفية عنها.

وهذا الجهل بحقائق الأمور ينتهي بصاحبه حتمًا إلى الوقوع بالشر الذي لا مفر منه، إما في التفريط وإما في الإفراط. لأن الفرد الذي يتوجه بسيره إلى ناحية معينة وهو لا يدري موقعها، ولا على ما يواجهه من المصاعب، فربما كان سيره معاكساً لها حتى ولو تجاوزها فهو لا يدري، لأن هذا الطريق الجديد الذي أنار نفسها واشتعل في داخلها جعلها تضيع بين الحلم والواقع؛ فبمقدار سرعة سيره، يكون شدة ابتعاده عن غايته سواء كان هذا السير معاكساً أو متجاوزاً. وإلى هذا المعنى أشار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) بقوله: «فالناظر بالقلب، العامل بالبصر يكون مبتدأ عمله. أن يعلم، أعمله له أم عليه! فإن العاقل بغير علم كالسائر على غير الطريق. فلا يزيده بعده عن الطريق الواضح إلّا بعداً عن حاجته. والعلم بالعلم كالسائر على الطريق الواضح. فلينظر ناظر، أسائر هو أم راجع؟»(١)

ومن الواضح أن جهل النفس وعدم معرفتها بالأمور الغيبية صعبة على فكر الفرد العادي الذي تلاعب وتكيّف بالحياة الدنيوية، فكيف على

---

(١) المنهج ـ للإمام علي بن أبي طالب (ع).

المرأة التي لم تحسب أي حساب لتطورها المفاجىء التصاعدي نحو التطور والرقي؟ وبدون رب منزل يرشدها على ما هي فاعلته؟ أو بدون مرشد يهديها الى الطريق القويم؟.

وبهذا المعنى قال الله تعالى في كتابه الكريم ؛﴿ونفس وما سويها. فألهمها فجورها وتقويها. قد أفلح من زكاها. وقد خاب من دسّيها﴾(١).

وجاء الإسلام يستنكر هذه الحالة من أهل الجاهلية ويقول لهم ما هذا الجزع والأسى، والبغض والكراهية للمرأة والأنثى على حد سواء؟. إنها هبة الله لكم، تنعمون بدنياهن وينعمن بدنياكم. وهل يقدر أحداً منكم أن ينفخ روح في هذا المخلوق العجيب الذي هو معجزة الله وآياته الباهرة، وحكمته الظاهرة، وقدرته الخالقة؟ وهي قاعدة الحياة التي اقتضت الحكمة أن تنشأها من زوجين ذكر وأنثى. فالأنثى أصيلة في نظام الحياة وواجبة للذكر حتى يتمما شريعة الكون العامرة بالمحبة والتعاطف والتسامح والرفعة والسمو، لا الإنحطاط والذل والخنوع.

وهكذا تبدو عظمة الاسلام الرفيع العادل المستقيم، وعقيدته الصحيحة الشريفة، وتجلي كلمته الحقة القوية التي بثها في النفوس والتصورات والأوضاع الاجتماعية في حق المرأة، وفي اتجاه الانسان في جميع نواحيه ولوازمه وحاجاته ومصالحه. لأن المرأة لم تكن الوحيدة المهضومة الحقوق في المجتمع الجاهلي، بل الانسانية جمعاء، وإهانة النفس من أي نوع كانت إهانة للعنصر البشري، وتعارض مع حكمة الخالق الأصيلة التي اقتضت أن يكون للأحياء عامة، لا للإنسان وحده من ذكر وأنثى.

وبهذا نادى الله تعالى المسلمين أجمعين بقوله: ﴿يا أيها الناس إنا

---

(١) سورة الشمس آية من (٧) إلى ١٠).

خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم إن الله عليم خبير﴾[1].

فبذلك شمخ الإسلام بمنهاجه القويم حينما رفع جميع الفوارق الكونية والنسبية بين أبناء البشرية، وخصوصاً بين الذكر والأنثى. لأن هذا المبدأ هو قانون السماء وشرع الملك الديان، وميزان العدل والإحسان، وهو الذي يميز بين القبائل والعشائر، والصعاليك والفقراء والأغنياء، والأبيض والأسود.

وبهذا النداء الخالد الذي جهر به الاسلام والشريعة المحمدية بصوتها الرنان بأرجاء المعمورة، يستصرخ الأجيال المقبلة، يتوعد، ويهدد كل من حاد عن طريق ميزان الحق والحقيقة ودفع الظلم عن المظلوم، «فإذا بالشجاعة تزاد قوة على قوة حين امتلأت قلوبهم بالإيمان وإذ بها، تبرز في الأوساط النسائية بروزاً قلما شهده التاريخ. ولا بدع فالمرأة ما زالت في كل عصر تبز الرجال في الاخلاص لعقيدتها، والدفاع في سبيل إيمانها».

لذلك فإن العربيات في عهد النبي والخلفاء الراشدين، كن شريكات الرجال في وثبتهم الاجتماعية، وأظهرن من ضروب الشجاعة والتضحية ما لا يعرفه عهد الجاهلية.

ومن الواضح أن لاختلاف الحوافز والغايات أثراً عظيمًا في تطوير الصفات، فبينما كان الحافز في الجاهلية حب النصر والفخر أصبح في الإسلام حب النصر والمساهمة في نشر الدين وادراك الأجر بما يضمن خيري الدنيا والآخرة. ولو كان المسلمون يقيمون التماثيل لعباقرة أبطالهم من السلف الذي جرت على أيديهم جلائل الأعمال، لرأينا منها الكثير لنساء ورجال بهرت أقوالهم وأعمالهم الناس يومئذ، وما تزال تثير

(١) سورة الحجرات آية (١٣).

الاعزاز والإكبار. لقد نصبت فرنسا التماثيل لجان دارك التي رفعتها شجاعتها الى مرتبة القديسات، ولجان هاشت، ومرغريت دانجو وغيرهن. وكم في فجر الاسلام من سيدات اذا ذكرت القداسة فهن في طليعتها، وإذا نوه بالبطولة فهن من رافعي راياتها؟»[1].

وكما أن المسيح عليه السلام في عهده لقى نصيرات أمينات التففن حوله، وعطفن عليه، فقد وجد كذلك محمد ﷺ المؤمنات الصادقات الشجاعات اللواتي استعذبن العذاب في سبيله وفي سبيل دعوته، فإلى جانب خديجة بنت خويلد، أول امرأة آمنت برسالته عندما كذبه الناس، وفدته بنفسها ومالها وشجعته على المضي في إداء رسالته.

وكذلك يشير التاريخ الذي أرّخ لتلك الفترة من الرسالة المحمدية، فاطمة بنت الخطات أخت عمر بن الخطاب، التي كانت من بين العشرة الأول الذين سبقوا إلى الإسلام، ويقال بأن صبرها على الأذى وثباتها وحبها لدينها الجديد، وشجاعتها من الأسباب الرئيسية التي جعلت عمر ينتظم في صفوف المسلمين، وبذلك تحققت الأمنية التي قيل بأن الرسول كان يتمناها ويقول: «اللهم أعن الاسلام بأحد العمرين: عمر بن الخطاب، أو عمر بن هشام».

ولما انتقل الرسول ودعوته إلى المدينة انبرت المرأة المسلمة للمساهمة في الدفاع عن الرسول ودعوته، وزحفت إلى ساحات الوغى جنباً إلى جنب مع الرجال تسقيهم الماء، وتضمد جراحهم، وتثير حماسهم. وقد عرف منهن في ذلك الوقت عدد وفير، نذكر منهن أم عطية التي رُوي عنها أنها قالت: وغزوت مع رسول الله سبع غزوات، وكنت أخلفهم في رحالهم، واصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأسهر على المرضى. وكذلك أم عمارة، نسيبة بنت كعب المازينية ثانية اثنتي شهدتا العقبة الكبرى وأول مبايعة فيها للنبي، وقد شهدت غزوة أُحُد، وبيعة

(١) المرأة في حضارة العرب ـ محمد جميل بيهم ـ ص ١٦.

رضوان، ويوم اليمامة حيث كانت تقاتل مع ابنها عبد الله، وقد قطعت يدها في تلك المعركة، وجرحت اثنا عشرة جرحاً. أما مواقف هذه المرأة الشجاعة في غزوة أُحُد فقد ضربت بها الأمثال حيث خرجت في جيش المسلمين يوم أُحُد، تسقي الظماء، وتأسوا الجرحى. وكانت غرة الحرب وطلعتها للمسلمين، ثم أشاحت بوجهها عنهم، فتناولتهم سيوف المشركين تنهر من نحورهم، وتطعن في ظهورهم، فانكشوا وولوا مدبرين الّا عشرة أو نحوهم وقفوا يدافعون عن رسول الله، ويحولون دون الوصول إليه. هنالك جاء دور نسيبة فأشهرت سيفها، واحتملت قوتها، وتذهب تصول وتجول بين يدي رسول الله، تنزع عن القوس، وتضرب بالسيف، وحولها من الغرّ المزاويد علي وأبو بكر وعمر وسعد وطلحة والزبير والعباس وولداها حبيب وعبد الله، وزوجها زيد ابن عاصم. فكانت من أظهر القوم أثراً وأعظمهم موقفاً، وكانت لا ترى الخطر يدنو من رسول الله حتى تكون سداده، وملء لهوته حتى قال الرسول: ما التفت يميناً ولا شمالاً إلّا وأنا أراها تقاتل دوني. ولقد رآها الرسول في تلك المعركة وهي تعصّب جرحاً ينزف دماً في ذراع ابنها عمارة فما انتهت منه حتى دفعته إلى القتال مرة أخرى وهي تقول له: قم يا بني فضارب القوم وجاهد في سبيل الله، فتطلع لها الرسول وخاطبها قائلاً: ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة؟.

ويحدثنا ابن هشام في سيرته عن بطولة سيدة أخرى هي صفية بنت عبد المطلب مقارناً بينها وبين حسان ابن ثابت حيث يقول: «ففي غزوة الخندق كان رسول الله مشغولاً باليهود، وكانت صفية بنت عبد المطلب مع جماعة من النساء في حصن بني حارثة، فتقدم يهودي فرمى الحصن. قالت صفية لحسان بن ثابت وقد كان معتصم بالحصن لوهن قلبه: «قم يا حسان إقتله» فقال: «لو كان معي هذا لكنت مع رسول الله. وأصحابه» فقامت صفية فضربت اليهودي حتى قطعت رأسه وقالت لحسان: قم فاطرح رأسه على اليهود، وهم أسفل الحصن. فقال: والله

ما أستطيع ذلك !. فقالت: فقمت فرميت رأسه على اليهود، فأدهش ذلك اليهود وقالوا: لقد علمنا أن هذا ـ محمداً ـ لم يكن ليترك أهله خلواً ليس معهم أحد، فتفرقوا خائفين»[1].

وانطلاقاً مما أوردناه من معلومات حول ما ورد بالشريعة الاسلامية السمحاء وأحكامها الغراء التي زودت المرأة الاسلامية بما يصون شرفها ويحفظ عفافها وكرامتها، ويبعدها عما يوقعها بالفساد والضلال، وما يسلبها أثمن جوهرة وهبها إياها خالقها وصانها من كل تهتك أو رذيلة، وألزم أوليائها بحفظها وصيانتها، وبالإضافة إلى ما أمرها به ونهاها بصورة خاصة، وأمرها بأن يلزموها بستر جسمها عن كل ناظر، ويدها عن كل لامس، وأمرهم بأن يلزموها بالحجاب الشرعي وأن يمنعوها عن كل فاسد وعابس يدنس شرفها، ويمس كرامتها، كما ألزم الله سبحانه وتعالى النساء بالصلاة والصيام وجميع ما أوجب الله على المكلفين من الرجال والنساء حيث قال تعالى: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلبيهن﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن﴾[3]. وقوله: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلاّ ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾[4].

بهذه التعليمات القرآنية والإرشادات الربانية جعلت المرأة على رأس المشاكل الواجب معالجتها بكل أمانة وإخلاص حتى تستطيع المرأة الوصول الى حقوقها كاملة لتصبح عنصراً فعالاً في المجتمع الاسلامي بدلاً من أن تكون عالة عليه.

وبفضل هذه التعاليم ابتعدت المرأة المسلمة عن كل ما يفسدها أو

---

(١) سيرة ابن هشام ـ جـ ٢ـ ص ١٤٣.
(٢) سورة الأحزاب آية ٥٩.
(٣) سورة الأحزاب آية ٥٣.
(٤) سورة النور آية ٣١.

يهتك سترها أو يشين عفافها، وعاشت حرة كريمة تتفاعل مع مجتمعها الاسلامي الصحيح إلى جانب شقيقها الرجل.

المرأة في صدر الإسلام:

إذا كانت المرأة في عصر النبي ﷺ قد نالت بعض حقوقها، وساهمت مساهمة فعالة في نشر الدين الإسلامي الحنيف، وخاضت جنباً إلى جنب مع الرجل المعارك الطاحنة التي أدت إلى انتشار الإسلام في كافة أنحاء الجزيرة العربية، فقد ظلّت على حرمانها من المساواة بالرجل مساواة تامة من النواحي الإجتماعية. ولكن الدين الاسلامي الجديد قد أوصى بها خيراً، وسهل لتنشيط حياتها الروحية بالقول والعمل.

لذلك لا نستغرب اذا رأينا النساء قد ساهمن في الغزوات وفي الحروب في عهد الخلفاء الراشدين، وخاصة في الحروب الداخلية والفتن التي جرت بين الإمام علي بن أبي طالب (ع) ومعاوية بن أبي سفيان حيث كان منهن القائدات والمرشدات والخطيبات المفوهات.

ويؤكد تاريخ المسلمين في صدر الإسلام، أن هؤلاء لم ينظروا إلى المرأة كما كان ينظر إليها معاصريهم من المسيحيين الذين كانوا يسمونها بالنكبة والنحس، وأنها منبع الشر وأصل الخطيئة وباب جهنم.

ومما يروى عن عمر ان بعض النسوة حضرن مجلسه، وحاولن التحدث في بعض مشاكلهن، ولكن عمر قال لهن: «اسكتن فإنما أنتن لعب، إذا فرغ منكن، لعب بكن»[١] ويروى عنه أيضاً أنه قال: «خير خلق المرأة المغزل»[٢].

ومما يروى أيضاً عن الإمام علي بن أبي طالب (ع) أنه قال لابن

---

(١) البلوي ـ ألف باء ـ جـ ٢ ص ٣٩٧.
(٢) البلوي ـ ألف باء ـ ـ ١ ص ٥٠.

محمد ابن الحنفية: «إياك يا بني ومشاورة النساء، فإن رأيهن الى الأمن، وعزمهن الى الوهن. واكفف عليهن من أبصارهن بحجبك إياهن. وإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل ولا تطل الجلوس معهن فيهلكنك، وتملهن، واستبق من نفسك بقية». ومما قاله سعيد بن المسيب: «ما آيس الشيطان من شيء الاّ أتاه من قبل النســاء»[1].

ويقول عباس محمود العقاد وهو يتحدث عن الإمام علي بن أبي طالب (ع) ورأيه في المرأة فيقول: «شر كلّها، وشر ما فيها أنه لا بد منها».

وكان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التي تليق بالرجل وتحمد منه؛ «فخيار خصال النساء شرار خصال الرجال: الزهو والجبن والبخل. فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها، واذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها».

والإمام صائر إلى رأيه هذا في المرأة من كلتا طريقيه، وهما طريق الحكيم الذي ينظر إليها على سنة الحكمة القديمة، وطريق العابد الذي ينظر إليها على سنة العبادة في جميع العصور، ولكنه لا رأي الحكيم ولا حس العابد قد حجبه قط عن فطرته الغالبة عليه وهي فطرة الفارس المطبوع على آداب الفروسية، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها، فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت إليه، ولا غفل قط عن الوصية بها في موطن يستدعي هذه الوصية. ومن أمثلة وصاياه في هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين حيث يقول الإمام علي (ع) : «لا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول، إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وإنهن لمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهلية بالقهر - أي الحجر

---

(١) البلوي - ألف باء - جـ ٣ ص ٧٧.

ـ أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده..»[1].

من المؤكد أن هذه الأقوال قد أحدثت بعض التحول في قضية النظر إلى المرأة حيث ضيق عليها وخاصة ما يتعلق في مركزها الإجتماعي، وقضية إنجاب الإناث التي خفف منها الإسلام مؤكداً بأن البنات كالبنين لا يعرف أيها أجدى نفعاً على الوالدين بصورة خاصة وعلى المجتمع بصورة عامة. وتبدو هذه الآلام في أشعار امرأة عُيّرت بولادة بنت لها فقالت وهي تواسي نفسها:

وما عليّ أن تكون جارية تحفظ بيتي وتضيء نارية
وترفع الساقط من خمارية حتى اذا تمت لها ثمانية
أو تسعة من السنين الوافية زوجتها مروان أو معاوية

ومن الملاحظ أن هذا التحول في المجتمع في صدر الإسلام كان ناتجاً عن كثرة السبايا، ووفرة الأموال، واستغلال بعض المسلمين لأحكام الدين في صدد تعدد الزوجات والتسري والطلاق، حيث راحوا **يتمتعون بالنساء كأنهن لعب على حد قول عمر بن الخطاب(ر)، وفي طليعة** هؤلاء، الأغنياء وقادة الأمة، مما أدى إلى ظهور الغيرة عند النساء خوفاً من هذه الظاهرة التي أدت بالتالي الى تحجب الحرائر ومنعهن من مخالطة الرجال، والخروج حتى الى الصلاة وارتياد المساجد.

ومما يروى أن الزبير بن العوام شق عليه خروج امرأته عاتكة بنت زيد الى المسجد ليلاً، وكره أن يمنعها فكمن لها في موضع مظلم من الطريق، فلما مرت وضع يده على طرف من جسدها فكرت راجعة، وسبقها الزبير إلى البيت، فلما دخلت عليه تسبّح فقال لها: «ما ردك عن وجهك؟» قالت: «كنا نخرج والناس ناس أما اليوم فلا».[2] ولهذا عزفت عن الصلاة وتركت طلب المسجد.

(١) عبقرية الإمام ـ عباس محمود العقاد ـ ص (١٥٤ـ ١٥٥).
(٢) البلوي ـ ألف باء ـ جـ ٢ ـ ص ٩٧.

ومن هنا يتبين لنا أن التحول الذي حدث في المجتمع الاسلامي في صدر الإسلام يدل على تطور الأخلاق، فبعد أن كانت المرأة في عصر النبوة تكتفي بالحجاب، اضطرت من بعد للتفتيش عن نوع من أنواع الأزر إذا خرجت من دارها لقضاء حاجة. وهذه دلالات واضحة أن المسلمين بعد النبي (ﷺ) شرعوا يتجاوزون رخص الاسلام في معاملة المرأة وفقا لتبدل الزمان، فإذا بالمرأة تنكمش على نفسها وتقبع في دارها، وتفقد مكانتها، وتعود إلى ما كانت عليه في فترة الجاهلية من التبعية لسيدها الرجل ومدار متعته. وهذا يتنافى ويتناقض مع قول أمير المؤمنين علي عليه السلام الذي استشهد به قاسم أمين والذي يقول: «إن النساء لبثن الى أواخر المائة السادسة من الهجرة يقابلن الزوار، ويقعدن في مجالس الأندلس ويذهبن للحرب»[١] إلاّ أن يكون ذلك قد حدث في أطراف الهند.

ورغم كل هذا فقد كان للنساء بعد النبي (ﷺ) مواقف نبيلة، خاصة عندما انبرى خلفاؤه لاخضاع الأمم المجاورة من روم وفرس، فإنهن لم يتلكأن عن مرافقة الرجال، والاشتراك معهم في القتال. وكان لهن في فتوح الشام كما كان لهن في فتح العراق آثار خالدات[٢].

ومما يذكره التاريخ أنه لما أسر ضرار بن الأزور في موقعة أجنادين، سار خالد بن الوليد في طليعة من جنده لإنقاذه، فبينما هو في الطريق مرّ به فارس معتقل رمحه لا يبين منه إلاّ الحدق، وهو يقذف بنفسه ولا يلوي على ما ورائه. فلما نظره خالد قال: «ليت شعري، من هذا الفارس وأيم الله أنه لفارس؟!» ثم أتبعه خالد والناس وراءه حتى أدرك جند الروم، فحمل عليهم وأمعن بين صفوفهم، وصاح بين جوانبهم حتى زعزع كتائبهم وحطم مواكبهم، فلم تكن غير جولة جائر حتى خرج وسنانه ملطخ بالدماء وقد قتل رجالاً منهم، وجندل أبطالاً؛ ثم

(١) المرأة في حضارة العرب ـ محمد جميل بيهم ـ ص ١١٦.
(٢) نفس المصدر ـ ص ١٩.

عرض نفسه للموت ثانية، فاخترق صفوف القوم غير مكترث. وخامر المسلمين من القلق والإشفاق عليه شيء كثير، وظنه الناس خالداً، حتى إذا قدم خالد قال له رافع بن عميرة: «من الفارس الذي تقدم أمامك؟ فلقد بذل نفسه ومهجته!» فقال خالد: «والله لأنا أشد انكاراً واعجاباً لما ظهر من خلاله وشمائله». وبينما القوم في حديثهم خرج الفارس كأنه الشهاب الثاقب، والخيل تعدو في أثره وكلما اقترب أحد منه ألوي عليه فانهل رمحه من صدره حتى قدم على المسلمين فأحاطوا به، وناشده ذلك خالد وهو أمير القوم وقائدهم، فلم يحر جواباً، فلما أكثر خالد، أجابه وهو ملثم فقال: « أيها الأمير إني لم أعرض عنك إلّا حياء منك، لأنك أمير جليل، وأنا من ذوات الخدور، وبنات الستور، وإنما حملني على ذلك أني محرقة الكبد، زائدة الكمد» فقال خالد: «من أنت؟» قالت: «أنا خولة بنت الأزور كنت مع نساء قومي، فأتاني خبر بأن أخي أسير، فركبت وفعلت ما رأيت!». هنالك صاح خالد في جنده، فحملوا وحملت خولة معهم، وعظم على الروم ما نزل بهم منها، فانقلبوا على أعقابهم. وكانت تجول في مكان علها تعرف أين ذهب القوم بأخيها فلم تر له أثراً، ولا وقفت له على خبر، ولكنها بقيت في جهادها حتى أنقذ لها أخوها».

ومن مواقفها الرائعة، موقفها يوم أسر الروم النساء وهي معهن في موقعة صحورا. فلقد أخذت تثير نار الحمية في قلوبهن وقالت: «خذن أعمدة الخيام، وأوتاد الأطناب، ونحمل على هؤلاء اللئام». فقالت عفراء بنت عفار: «والله ما دعوت إلى ما هو أحب الينا مما ذكرت»ثم تناولت كل واحدة عموداً من عمد الخيام، وصحن صيحة واحدة وهجمت خولة، وهجم النساء وراءها، وقاتلت بهن قتال المستيئس المستميت حتى أنقذتهن من الأسر»[1].

(١) المرأة في حضارة العرب ـ محمد جميل بيهم ـ ص (٢٠ـ ٢١).

وللدلالة على شجاعة المرأة المسلمة نقدم مثلاً ثانياً، أم حكيم بنت الحارث بن هشام، زوج عكرمة ابن أبي جهل، عندما قتل زوجها في أجنادين وهو يقاتل الروم، فتزوجها خالد بن سعيد، وقتل صبيحة بنائه بها. فحملت أم حكيم عمود الفسطاط الذي قتل فيه خالد عند القنطرة التي بمرج الصفر، وقتلت سبعة من الأعداء. ويقول البلوي عنها: «سميت تلك القنطرة قنطرة أم حكيم الى اليوم تذكاراً لشجاعتها»[1].

ومثل أم الحرام الرميضاء بنت ملحان زوجة عبادة بن الصامت التي لم تَـنْس أقل اندفاعاً من زميلاتها في سبيل الإسلام، ولهذا عرفت (بأم الحسام) كونها لم تقنع بالبرّ متسعاً لجهادها، ولكنها ركبت البحر يوم كان ركوبه كدود على عود، ورافقت زوجها حينما غزى معاوية بن أبي سفيان قبرص، واستشهدت في هذه الغزوة».

أما في حرب العراق فقد اشتهرت خزانة بنت خالد بن جعفر بن قرط التي خاضت مع سعد بن أبي وقاص المعامع والمعارك، وحضرت فتوح الحيرة ونالت هنالك شهرة خولة بنت الأزور في معارك الشام.

ولم تظهر شجاعة المرأة المسلمة في الحروب الاسلامية الخارجية فحسب، بل ظهرت شجاعتها في القتال الذي اشتبك به المسلمون مع مشركي العرب، كما برزت شجاعتها كاملة في المعارك التي نشبت بينهم من أجل خلافة النبي ﷺ وأن التاريخ ليذكر عائشة في وقعة الجمل التي كانت بينها وبين الإمام علي بن أبي طالب (ع) الذي وُلي الخلافة بعد **مقتل عثمان بن عفان (ر .) ليذكرها وهي تقود الجنود متأثرة بدموع الحاملين** لقميص عثمان، وتحضهم على الثبات والصبر، وهم يصرعون تباعاً ولا ينكصون على الأعقاب دفاعاً عن حرم الرسول. وليذكرها وهي تثير فيهم الحماس رغم اصابة الجمل الذي كانت تركبه. ولما خسرت المعركة

---

(1) البلوي ـ ألف باء ـ ج ٢ ـ ص ٢١١.

ردها الإمام علي (ع) الى المدينة معززة مكرمة بين سبعين واحدة من نساء صحابته.

ولم تكن عائشة إلّا واحدة من كثيرات من النساء اللواتي اشتركن في المعارك الاسلامية الأولى في صدر الإسلام، وعلى سبيل المثال نذكر منهن الزرقاء ابنة عدي بن قيس من أنصار الامام علي بن أبي طالب (ع) وهي راكبة الجمل الأحمر، تخترق الصفوف بشجاعة نادرة، وتخطب بالناس، وتشجعهم على قتال معاوية قائلة: «أيها الناس إنكم في فتنة غشيتكم فيها جلابيب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة. فيا لها من فتنة عمياء صماء، يسمع لقائلها ولا ينظر لسائقها. أيها الناس إن المصباح لا يضيىء في الشمس، وإن الكوكب لا ينفذ في الفجر، وإن البغل لا يسبق الفرس، وإن الزف لا يوازن الحجر، ولا يقطع الحديد إلّا الحديد، ألا من استرشدنا أرشدناه، ومن استخبرنا أخبرناه، إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار، فكأن قد اندمل شعب الشتات، والتأمت كلمة العدل، وغلب الحق باطله، فلا يغلبن أحد فيقول: «كيف وإني ليقضي الله أمراً كان مفعولاً». إلا أن خضاب النساء الحناء، وخطاب الرجال الدماء، والصبر خير في الأمور عواقبا. أيها الناس إلى الحرب قدماً غير ناكصين. فهذا يوم له ما بعده». (١)

وعلى صورتها كانت عكرمة بنت الأطرش وهي من اللواتي شهدن أيضاً المعارك مع الإمام علي بن أبي طالب (ع) واشتركن في معركة صفين، كانت تتقلد حمائل السيوف، وتنادي أنصار الإمام نداء أثر نداء يحرك كل منها الجماد، ويبعث بالنفوس التضحية، ومن قولها: «يا معشر المهاجرين والأنصار إمضوا على بصيرتكم، واصبروا على عزيمتكم، فكأني بكم وقد لقيتم أهل الشام كالحُمر الناهقة تصقع صقع البعير».

(١) العقد الفريد ـ ج ١ـ ص ١١٣.

وأما أم الخير بنت حريش فكانت كالسهم تحت راية الإمام علي بن أبي طالب (ع) سيفها مصلت في يدها، وصوتها يلعلع في الفضاء قائلة: «جاهدوا قبل أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظلم»[1] وكانت حين قتل عمار بن ياسر بين يردين زئيرين وهي على جمل أرمك وبيدها سوط منتشر الضفيرة كأنها الفحل يهدر في شقشقته، تحض الناس على الانتصار للإمام علي (ع) والثبات.

وبالإضافة إلى هؤلاء يوجد كثيرات مما خضن المعارك في عهد الخلفاء الراشدين، ومن أشهرهن هند بنت زيد بن مخرمة الانصارية.

وانطلاقاً من هذه المبادىء الإجتماعية التي أوجدها الإسلام والتي أكسبت المرأة المسلمة الشجاعة والأقدام والمساهمة في الحروب، فقد أكسبت المرأة المسلمة أيضاً الأخلاق والصفات الجديدة التي لا عهد لها بها في العصر الجاهلي مما أثار فيها عواطف التدين، واشتهرت تقيات وزاهدات ساهمن في الانقلاب الكبير الذي قام به العرب في الاسلام.

المرأة في العصر الأموي:

جاء العصر الأموي بعد الحروب التي خاضها معاوية بن أبي سفيان مع الإمام علي بن أبي طالب ع وأشياعه، وما رافق هذه الفتن والحروب من أحداث يذكرها التاريخ الإسلامي بوضوح. ومع قدوم العصر الأموي، ظهرت المعارف الدينية بصورة نسبية، نافضة عنها غبار الجاهلية حيث تقدمت الآداب والعلوم الدينية من فقه وتفسير وعلم كلام.

ومن الطبيعي أن تشارك المرأة في هذه الحركة وتطلب جميع العلوم والمعارف، وتنكب على دراسة الشريعة والفقه والحديث والشعر والأدب، لذا وصفها في هذه المناسبة أحد المستشرقين الروس أحمد أجاييف قائلاً:

(١) العقد الفريد ـ ج ١ـ ص ١١٦.

«ففي أيام الدولة الأموية زاحمت المرأة الرجال في طلب جميع العلوم والمعارف، أصبحت لا تختلف عنهم في شيء. ثم انكبت على طلب الشريعة والفقه والحديث والشعر والأدب والبيان والخط. وبوجه الإجمال فإنها أحاطت بجميع فروع العلوم، فاتقنتها أيما اتقان. وفي عهد هشام والوليد لم تكن النساء تختلف عن الرجال».

والجدير بالملاحظة أن الأستاذ محمد جميل بيهم بعد أن أورد هذا الرأي في كتابه (المرأة في حضارة العرب)[1] يعلق عليه فيقول: «وفي هذا القول شيء من المغالات قد يقع فيها الكتاب حينما تسيطر عليهم العواطف. والواقع أن النساء وإن لم يقفن في ذلك العصر عند حد رواية الحديث أسوة بأخواتهن في عهد الخلفاء، بل أقبلن على العلوم الدينية كافة، وأدركن نصيباً وافراً منها أهّل بعضهن للتدريس فيها، إلّا أن عدد الشهيرات منهن كان قليلاً».

ونحن إذ نضم صوتنا الى صوت الأستاذ بيهم نقول: بأن المرأة المسلمة في العصر الأموي كانت مغلوبة على أمرها، تقبع في زوايا منزلها، تدرس العلوم الدينية كافة، وتفضل الانزواء في دارها على الاختلاط بالنسوة الأرقاء والسبايا. لذلك عُرفنا بالنساء الحرائر اللواتي شغفن بالشعر والأدب امتداداً للعصر الجاهلي من حيث العناية بالأدب، ولا سيما الشعر الحديث؛ فتألقت كثيرات منهن في الناحية الأدبية نظراً لوفرة الأموال التي جاءتهم من الفتوحات، فراحوا يقلدون الفرس والبيزنطيين بحياة البذخ والترف مما أدى الى ازدهار الشعر والأدب وخاصة في المدينة التي كانت عاصمة الخلفاء الراشدين لما توفر فيها من أموال حتى بعد أن أصبحت دمشق عاصمة الخلافة الأموية. وقد تألق اسم سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) حتى أصبحت أشهر نساء عصرها، وأعلاهن مقاماً، وأوفرهن ذكاءً وعقلاً وأدباً،

(١) ص (١٣٣- ١٣٤).

وأحدّهن جناناً، لقد أحرزت قصب السبق في مضمار الأدب فالتف حولها الشعراء والأدباء كما يقول الأستاذ بيهم، وكما قال عنها المستشرق الفرنسي بيرم (سيدات عصرها وأجملهن وأظرفهن، وأسماهن صفاتاً وأخلاقاً). وسنتحدث عنها في التفصيل في مكان آخر.

وكذلك عائشة بنت طلحة التي سارت على منوال سكينة بنت الحسين في نقد الشعر والغناء ومجالسة الشعراء والمغنيين والرواة والأدباء، وقد قال عنها صاحب (العقد الفريد)[1] أنها زارت هشام بن عبد الملك، فبعث الى مشائخ بني أمية مما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأيامها إلّاوأفاضت معهم. ونوه أيضاً ابن عبد ربه بمعرفتها بالنجوم.

وكذلك اشتهرت في البصرة رابعة العدوية التي كانت من العابدات الزاهدات التي جسّدت ما يختلج في أعماقها في أشعارها الكثيرة الرقيقة التي تعبر عن عشقها الإلهي الذي هو مصدر الجمال. وسنتعرض لها بالتفصيل في (فصلنا عن المسلمات النابغات في التاريخ).

وفي البادية اشتهرت الكثيرات من الشاعرات والراويات، كعمرة الجمحية التي قال صاحب الأغاني[2] بأن دارها كانت ندوة للشعراء والرواة حيث تستمع للكل، وتقارن بينهم جميعاً. وزينب بنت الطشرية من بني عامر اشتهرت بفصاحتها وشعرها الرقيق. وكذلك عرفت واشتهرت نساء منهن: عمرة وزينب من اللواتي أجدن الشعر ورواية أخبار العرب في عهد الأمويين.

هذا من ناحية الشهيرات من النساء الحرائر. وأما الشهيرات من الجواري والسبايا المثقفات في عهد الأمويين، فقد التمس خلفاء بني أمية عندهن الأدب وفنون الغناء والموسيقى، فكانوا يقدرون السبية أو الجارية بقدر ما عندها من الفنون والعلم والأدب. وبذلك حسنت منزلة السبايا

---

(١) ج ٣ ص ٢٨٣.

(٢) ج ٦ ص ١٥٠.

والجواري وتسامح الناس في مساواة أولادهن بأولاد الحرائر حتى بلغ بعضهم منصب الخلافة.

ويحدثنا الأستاذ بيهم عن مغالاة الخلفاء والكبراء في أثمانهن فيقول: «كان هذا الغلاء سبب في حرص النخاسين على تعليمهن واتاحة الفرص الكثيرة لنبوغهن في الآداب والفنون. ومن هنا نبغت الطبقة الراقية منهن في الآداب والغناء والموسيقى، ولكن هذا النبوغ لم يكتمل إلا في العصر العباسي. واشتهرت بين جواري الأمويين سلامة وحبابة، والزلفاء التي قال فيها الشاعر:

إنما الزلفاء ياقوتة أخرجت من كيس دهقان!

ومثلتها في الشهرة أيضاً سلامة المتخرجة على معبد في الغناء التي سمعها عبد الرحمن بن عبد الله المعروف بالقس لزهده، فشغف بها ونظم فيها الأشعار ومما قاله في وصف صوتها:

ألم ترها، لا يُبعد الله دارها إذا طربت في صوتها كيف تصنع؟!
تمد نظام القول ثم ترده إلى صلصل من صوتها يترجع

ويذكر التاريخ أنه كان لسلامة مناظرات ومحاورات ومجالس أنس مع حبابة ويزيد بن عبد الملك، تشير إلى ما وصلت إليه من مكانة أدبية، كما أن غرام يزيد بحبابة أكسبتها الشهرة الواسعة وخاصة عندما قال فيها شعراً منه:

أبلغ حبابة، أسقى ربعها المطر، ما للفؤاد سوى ذكراكم وطر
إن سار صبحيَ لم أملك تذكرهم أو عرّسوا، فهموم النفس والسهر!

قيل أن مسلمة دخل على أخيه يزيد وقال: «يا أمير المؤمنين تركت الظهور للعامة والشهود للجمعة واحتجبت مع هذه الأمة» فارعوى يزيد قليلاً وظهر للناس فأغرت حبابة إلى الأحوص الشاعر أن يقول

أبياتاً بها عليه ما قال مسلمة، فقال وغنت حبابة بها:

ألا لا تلمه اليوم أن يتبلدا   فقد مُنع المحزون أن يتجلدا
اذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى   فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا
هل العيش ألا ما تلذ وتشتهي   وإن لام فيه ذو الشنان وفندا؟

فلما سمعها يزيد ضرب بجران الأرض وقال: «صدقت. على مسلمة لعنة الله». ثم عاد إلى سيرته الأولى.[1]

ومن شهيرات جواري الخلفاء، عوان جارية سليمان عبد الملك. وقد اشتهر غير هؤلاء نفر من الإماء، كن بغير قصور الخلفاء، مثل جميلة الخزرجية، ونعمى، وخليدة، وعقيلة العقيقية وكلهن من المعروفات بالفن والأدب.

كانت جميلة الخزرجية مولاة بني سليم من مكة، تجمع مع جمالها ورزانتها بين أرفع طبقات الغناء ورخامة الصوت، فأجمع مجيدو عصرها في الموسيقى، مثل الغريض وابن محرز ومعبد بن جامع وحبابة وابن عائشة وسلامة وزين وخليدة وعقيلة العقيقية، أجمعوا على أنها إمام هذا الفن، وكانوا يحكّمونها فيما كانوا فيه يختلفون.

فقد كانت جميلة وهي في شبابها تجتمع بعزة الميلاء في شيخوختها وتستفيد منها، فلذلك يمكن أن يقال: «إنها عوّضت الفن عنها، وأشغلت مكانتها».

وكانت نعمة جارية ظريف بن نعيم، اغتصبها الحجاج، وأرسلها إلى عبد الملك بن مروان، فدفع حب صاحبها لها أن ترك العراق وقدم دمشق، وتجرأ وطلب في رقعة من عبد الملك، المعروف بشدته، أن يسمعه غناها، وليفعل بعد ذلك ما يشاء.

غير أن عبد الملك تلقى هذا الطلب بالحلم، وأجاب سؤال

---

(١) المرأة في حضارة العرب ـ الأستاذ محمد جميل بيهم ـ ص ١٤٦.

ظريف، ولكنه قضى عليهما من حيث لا يريد، إذ أن ظريفاً لم ينته من سماعها حتى ألقى بنفسه من شاهق فمات، فقال عبد الملك، «لقد عجّل على نفسه. أيظن أني أخرجت جارية وأعود فيها؟! خذها يا غلام فاعطها لورثته، أو فتصدقوا بها عليه» فلما نزلوا بها نظرت الى حفيرة معدة للسيل، فجذبت يدها من الغلام، وقالت:

من مات عشقاً فليمت هكذا   لا خير في عشق بلا موت

وألقت نفسها في الحفيرة وماتت»[١]

وقبل أن ننهي حديثنا عن المرأة في العصر الأموي وما نالته من علوم ومعارف لا بد لنا من الاشارة الى انتشار بيوت الدعارة والقيان والخلاعة والغناء، واقتناء الجواري المغنيات الفاتنات في ذلك العصر، حيث كان الذين لا يملكون الجواري، أو بالأحرى الذين لا يستطيعون الانفاق عليهن يرتادون بيوت القيان حيث يعاشرون الجواري المدربات على الفتنة والاغراء والعزف والغناء.

ولم تكن هذه البادرة وليدة العصر الأموي، بل سبق إن عرفت الجزيرة العربية تجارة القيان منذ الجاهلية حيث استوردوهن من بعض المقاطعات الفارسية أو الرومية، وكانت هذه التجارة معروفة في زمن الرسول الذي نهى عنها في حديث منقول ورد في صحيح الترمذي على لسان أبي أمامة ويقول أبو أمامة: أن الاشارة في الآية الكريمة: ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين﴾[٢] هي إشارة إلى تجارة القيان.

ويناقش أبو بكر ابن العربي المالكي صحة هذا الحديث ويقول: أن القين اذا كانت ملكاً للرجل فله ملء الحق في جسدها وصوتها، وإن لم

---

(١) المرأة في حضارة العرب ـ الأستاذ محمد جميل بيهم ـ ص (١٤٦ـ ١٤٧).

(٢) سورة لقمان ـ آية (٦).

تكن ملكاً له، فله الحق أيضاً في السماع الى غنائها لأن وجه الأمة وصوتها ليسا بعورة».

ومهما كانت صحة هذا الحديث فإنه يؤكد وجود هذه التجارة في زمن الرسول ويثبت أكثر من رأي حولها.

ومن البديهي بعد أن توصلوا بنوا أمية الى الحكم أن تزدهر تجارة القيان ويدفع فيهن أثمان باهظة، حتى أن التاريخ يذكر، إن الجارية كان يزيد سعرها أضعاف مضاعفة بعد تدريبها على الفتنة والاغراء والغناء.

ومما يروى أن عبد الله بن جعفر دفع أربعة آلاف درهم ثمناً لجارية مغنية خليعة فاتنة أهداها إلى أحد أصدقائه. وكما يقال أن الخليفة يزيد ابن عبد الملك اشترى حبابة بأربعة آلاف دينار، وسلامة بعشرين ألف دينار، وان ابنه الوليد ابن يزيد دفع في جارية فاتنة عشرة آلاف دينار.

ومما يلاحظ أن هذه الأسعار الفاحشة قد أغرت الكثير من المغنين الذكور ودفعتهم الى احتراف تجارة القيان، فكانوا يشترون الجارية الفاتنة ويدربونها على الغناء والعزف وآداب الحديث والمعاشرة، ويبيعونها بعد ذلك بربح ضخم إلى سيد أو أمير أو شريف أو أي ثري من أثرياء العرب.

وكان أشهر من اشتهر بتدريب القيان وتجارتهن، المغني معبد الذي بلغ من ذيوع صيت جواريه أن قصده عشاق الطرب من أقاصي بلاد الامبراطورية العربية الاسلامية آنذاك، كالأهواز مثلاً، ليبتاعوا منه القيان، كما أن «حبابة» و «سلامة» جاريتي الخليفة يزيد بن عبد الملك المشهورتين كانتا في عداد تلميذاته. ولم يكن معبد وحده بين مغني العصر الأموي الذين تعاطوا مهنة تدريب الجواري على الغناء وبيعهن، بل شاركه في ذلك أشهر رجال الفن في عصره.

كان يطلق على الشخص الذي يدير بيتاً من بيوت القيان اسم صاحب قيانْ أو مقينّ، وكان أغلب أصحاب القيان من الموالي غير العرب الّا أقلية منهم كانت عربية كما تدل على ذلك أسماؤ ها.

ويبدو أن المغنيات الشهيرات كعزة الميلاء وجميلة وعقيلة وغيرهن اعتبرن أن العمل في بيت من بيوت القيان محط لقدرهن، لذلك فضلن أن يفتحن بيوتهن أياما معينة كل أسبوع لاستقبال من يريد سماعهن. وكان رواد بيوتهن في أغلب الأحيان من السادة والأشراف كعبد الله بن جعفر وعمر ابن أبي ربيعة والعرجى والأحوص ومعاذ الأنصاري وغيرهم.

ومما يلاحظ أن بيوت القيان في أول عهدها كانت أمكنة يرتادها الناس لسماع الغناء فحسب، ولكنها تطورت مع مرور الأيام وأصبحت تؤدي أغراضاً أخرى غير السماع. فمما يذكره صاحب الكامل مثلاً يمكننا أن نرى أن هذه البيوت كانت تقصد أيضاً للتحدث مع الجواري التي فيها. يقول صاحب الكامل على لسان الشاعر الأحوص للمغني معبد: «دعنا نذهب الى عقيلة نتحدث معها ونستمع الى غناء جواريها».

ويحدثنا البلاذري في أنساب الأشراف أنه كان في المدينة زمن الخليفة عبد الملك بن مروان، بيت تديره حبَّى المدينية يقصده شباب قريش للتحدث. ورغم أن البلاذري لا يذكر أن بيت حبَّى هذا كان يقصد للسماع إلّا أنه ليس من المستبعد أن يكون للغناء نصيب في نشاط هذا البيت.

المرأة في العصر العباسي:

عندما قوضت أسس الدولة الأموية ورث العباسيون ملكاً واسع الأرجاء كثير السكان، فتحولوا الى محاولة تقويم الاعوجاج الذي حصل

في مجتمعات تلك المملكة واعادتها الى الطريق الاسلامي الصحيح. ولما أستتب الأمر لهم، نهج خلفاؤهم الأولون على نهج البساطة والزهد والتقشف، فلم تغريهم الأبهة ولا الملك وما يحيط به من قصور وبذخ ومغريات الحياة الدنيا، بل عمدوا إلى تدعيم صروح الحضارة العربية وانصرفوا الى العلم والتأسيس، واكتفوا في عصرهم الأول بتشييد عاصمة ملكهم في بغداد لتكون محجاً يحج اليه كافة المسلمين من جميع أنحاء العالم لارتشاف العلم وللمساهمة في بناء المملكة الجديدة.

ويذكر التاريخ بأن عصر الرشيد هو العصر الذهبي بالنسبة للعباسيين. ولكننا لا يمكننا أن نهمل ما قام به الخليفة العباسي الثالث محمد المهدي والد هارون الرشيد الذي كان يحب العلم والفن، ويبذل في سبيلها الأموال الوفيرة حتى أنه قيل أن أباه خلّف في الخزانة مائة ألف ألف درهم، وستين ألف ألف درهم فرقها بالعطاء. وكانت حصة العلماء والأدباء منها حصة الأسد. ولما استولى الرشيد على عرش بغداد، فاق أباه في العلم وفي تكريم أهله. ويقال أنه كان يصب الماء على يدي أبي معاوية الضرير وهو لا يعلم، فقال له يوماً: «أتدري من يصب الماء على يديك؟ قال لا. قال: «أنا. قال: أنت يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم إجلالاً للعلم».

ويحدثنا التاريخ عن حضانة الرشيد لأهل الأدب وأجزاله العطاء لهم مما دعاهم الى الازدحام على بابه حتى ضاقت بهم بغداد، واضطر المسؤولون الى امتحانهم وترتيبهم في الجوائز، وقد عهد يحيى بن خالد البرمكي بذلك الى شاعره إبان اللاحقين. بل كان الرشيد علاوة على ذلك لا يكتفي بمن يفد عليه منهم للاستجداء فيرسل في طلبهم الى شتى الأنحاء. وبعد وفاة الرشيد، نهج أبناؤه وبعض خلفاؤه نهجه في الأخذ بنصيب كبير من الثقافة وبمساعدة طلاب العلم والمعرفة كيف لا وقد كان ابنه المأمون فيلسوفاً يعقد مجالس العلم ويناظر فيها العلماء وينفق الأموال

الطائلة في سبيل الترجمة والتأليف.

وهنا لا بد من التعرض لنهضة المرأة ككل في عهد العباسيين وخاصة في عصورهم الذهبيةحيث نالت الحرائر نصيبهن الوافر من العلم والأدب.

ويدلنا على المكانة التي وصل اليها الحرائر في العهد العباسي ومن تقدم عرفاني وعلمي ما قاله المستشرق الروسي أحمد أجاييف: «وفي عهد الدولة العباسية، قامت النساء بتربية البنات وتثقيفهن، وبارضاعهن ألبان الآداب والمعارف. وكان الناس لا يختارون لأولادهم مدرسة أو مهذبة لبناتهم إلا من اللواتي أحرزن نصيباً وافراً من العلوم والفنون. وكان المتمولون من العباسيين والسراة يتزاحمون مزاحمة شديدة على أمثال أولئك المدرسات المربيات لتعليم البنات وتهذيبهن. وكان هؤلاء يعلمن بنات الأشراف والأعيان في بادىء الأمر، القراءة والموسيقى، والآداب الإجتماعية، حتى اذا برعن فيها أوقفوهن على أسرار اللغة العربية، وفروع البيان والمعاني والبديع وقرض الشعر والمنطق، وغيرها من العلوم العالية. وكثيراً ما كانوا يقيمون الاحتفالات لامتحان البنات، وكان يشرف عليها العلماء والقضاة».

أما الأستاذ محمد جميل بيهم فيرى أن المرأة في هذا العصر العلمي لم تساهم في طلب العلم فقط ولا سيما الديني منه، وإنما تضلعت في هذا العلم حتى أصبحت في عداد مدرسي الثقات.

ويرى صاحب كتاب «العبر في خبر من عبر» أن الكثيرات من عالمات العصر العباسي اللواتي رُوي عنهن كن من كبار العالمات، ولم يكن إقبال النساء محصوراً على العلوم الشرعية والفقهية، بل تعداه الى العلوم الأدبية حيث بلغت أشعارهن آية في الروعة والجمال خاصة ما قيل منه في المدح والرثاء كقول لبانة بنت ريطة بن علي وهي ترثي زوجها محمد بن هارون الرشيد الذي قتل قبل أن يدخل بها قالت:

أبـكيــك لا لـلنعيم والأنس   بل للمعالي والـرمح والفـرس
يـا فارس بـالعـراء مضـرجـاً   خـانتـه قــواده مـع الحــرس
أبكي عـلى سيـد فجعت بـه   أرملني قبــل لـيلة الـعُــرس
أمّـن لبــرّ، أمّـن لـفــائــدة   أمّن لـذكـر الإلــه في الغلس
مَن للحروب التي تكون بهـا   إن أضرمت نارها بلا قبس؟

ولا ننسى أيضاً تعزية زبيدة لولدها محمد الأمين في جارية له نظمي التي كان يهواها، واشتد جزعه على موتها فقالت والدته زبيدة شعراً:

نفسي فداؤك لا يذهب بك التلف   ففي بقائك ممن قد مضى خلفُ

ولزبيدة أشعار أخرى في رثاء ولدها الأمين، وفي مدح المأمون أخيه والشكاية إليه من قاتله طاهر بن الحسين، وكذلك في مناسبات أخرى.

غير أن الشعر النسائي في ذلك العصر كان مشهورا عند ليلى بنت طريف الشيباني التي كسبت قصب السبق على غيرها من الشاعرات العباسيات، ومن قصيدة لها في رثاء أخيها طريف الذي قتل في عهد الرشيد تقول:

ذكــرت الــولـيــد وأيــامــه   إذ الأرض في شخصـه بلقـعُ
فــأقـبلت أطـلبــه في الســما   ء كـما يبتغي أنفـه الأجــدع
أضــاعـك قـومـك فليــطلبـوا   إفــادة مثـل الــذي ضيعــوا
لـو أن السيوف التي حُـدّهـا   يصيبــك تعلم مــا تصنــع
نبت عليـك أو جفلت هيبـة   وخـوفـاً لصـولـك لا تقــطع

وهناك أديبة أخرى بزّت الكثير من الأدباء والشعراء وهي علية المعروفة بالعباسة بنت الخليفة المهدي التي كانت تجمع إلى جمالها وفتنتها، الذكاء الخارق والمعرفة الدقيقة، والصوت الحسن، والصفة الموسيقية، وكان أخوها يبالغ في احترامها وفي الرغبة في مجالستها.

ومما يروى عن الرشيد، أنه خرج إلى الري بإيران وصحب أخته معه، ولما دخلت الى المرج، نظمت وغنت، فقالت بصوتها الرخيم:

ومغترب بالمرج يبكي لشجوه   وقد غاب عنه المسعدون على الحب
اذا ما أتاه الركب من نحو أرضه   تنشق يستشفي برائحة الركب

فعلم الرشيد أنها اشتاقت الى العراق وأهلها فأمر بردها.

ويقول الأستاذ بيهم، أن أشعار علية خرجت من إطار الشعر النسائي القديم الى نطاق الغزل حتى ليشعر سامعها أو قارؤ ها أنها تصدر عن قلب مفعم بالغرام. وديوانها الحافل بهذا اللون من النظم يدل ضمناً على تطور روح العصر، وتبدل المقاييس العامة أسوة بما حدث في الأندلس. ولولا ذلك لما استطاب الخليفة استرسالها في أنواع الغزل. ولعلها كانت في الشعر حكيمة أكثر منها شاعرة،[1] ومن قولها:

إني كثرت عليه في زيارته   فملّ والشيء مملولٌ إذا كثرا
ورابني منه أني لا أزال أرى   في طرفه قصراً عني إذا نظرا

فما أبلغ الإعتذار في البيت الأول، وما ألطف استخراج خبايا الحبيب، في البيت الثاني، من ظاهر حسه.

ولها أيضاً شعر حكيم كأنها تعطي فيه درساً في الحب والأحباء إذ تقول:

بني الحب على الجود فلو   أنصف المحبوب فيه لسمح
ليس يستحسن في حكم الهوى   عاشق يحسن تأليف الحجج
وقليل الحب صرفاً خالصاً   هو خير من كثير قد مزج

ولقد عاصرتها عريب جارية المأمون وجالستها، فلتستمع إلى رأيها فيها وإن كان الضرائر في الفن لا تسمع لإحداهن شهادة على الأخرى.

---

(١) المرأة في حضارة العرب ـ الأستاذ محمد جميل بيهم ـ ص ١٥٣.

قالت عريب: «أحسن يوم مرّ بي في الدنيا وأطيبه، يوم اجتمعت فيه مع ابراهيم بن المهدي وأخته عُلية وعندهم يعقوب، وكان من أحسن الناس بالزمر، فبدأت عُلية وغنتهم من صنعتها في شعرها، وأخوها يعقوب يزمر عليها:

تحبّب فإن الحب داعية الحب ... وكم من بعيد الدار مستوجب القرب
تبصّر فان حدثت أن أخا الهوى ... نجا سالماً فارج النجاة من الحب
وأطيب أيام الفتى يومه الذي ... يـردع بـالهجـران منـه وبـالعتب
إذا لم يكن في الحب سخط ولا رضى ... فأين حلاوات الرسائل والكتب؟

وأنشدت غير ذلك مما سمعت مثلها سمعت منها قط، وأعلم أني لا أسمع مثله أبداً»[1].

هـذه النماذج التي أوردنـاهـا حـول حـرائـر النسـاء وثقـافتهن وشاعريتهن في العصر العباسي تقودنا إلى الحديث عن القصور التي وجه لها خلفاء بني العباس اهتماماً كبيراً بعد أن استتب لهم الأمر، فحشدوها بسيول جارفة من الجواري والقيان، وزينوها بالتحف والخدم والغلمان، فجاءت آية في الروعة والجمال من أمثال قصر الخلد وقصر باب الذهب وقصر وضّاح.

ومما يلفت النظر أن هذه القصور قد زخرفت وفرشت بأحسن الرياش وخاصة قصر هارون الرشيد وزوجته زبيدة المعروفة بدار القرار التي كان تحفة الدهر وزينة العصر.

ومما يروى أن زبيدة كانت أول من اتخـذ القباب من الفضـة والأبانوس والصندل، واتخذت كـلاليبها من الـذهب والفضة ملبسـة بالوشي والسمور والديباج وأنواع الحرير الأحمر، والأصفر، والأخضر، والأزرق.

---

(١) المرأة في حضارة العرب ـ الأستاذ بيهم ـ ص (١٥٣ـ ١٥٤).

ومال هارون الرشيد الى حياة القصور، وما فيها من لهو وزهو على غرار البرامكة وزرائه برغم ما عرف به من التقوى، حتى اذا قرأنا سيرته لا نعرف إن كان هذا الخليفة من الأتقياء، أم هو في عداد أهل الهوى. ولعله كان بين هذا وذاك على حد قول الشاعر:

ولله مني جانب لا أضيعه وللهوى مني والصبابة جانب

ويرى الأستاذ بيهم أنه لعل لرغبة الرشيد في معاشرة النساء وميله، في نفس الوقت، لمجالسة أهل الفضل مفتاح شخصيته التي كانت تطمح لاتحاد الكمال بالجمال. وخلف الرشيد خلف اقتدوا به في العمران، وفي بناء القصور، وربما فاقوا عليه في الاستسلام لأهلها من ذوات الحسن والجمال والأدب والفن»[1].

أما ما يذكره التاريخ عن الجواري والقيان والغلمان، والمغنين والمغنيات في العهد العباسي، فحدث عنها ولا حرج. وسنحاول أن ننقل بعض الصور الموجزة عن هؤلاء، وما مدى فاعليتهم في المجتمع العباسي، ومدى تأثير الجواري والقيان على سياسة الدولة ومناهج الخلفاء. فلا نقول إلّا كما قاله الشاعر حيث وصفهم في قوله:

خليفة في قفص بين وصيف وبُغا
يقول ما قالا له كما تقول البُبغا

ومن المؤكد تاريخياً أن الجواري والقيان، أصبحتا في عصر بني العباس ركناً أساسياً من أركان المجتمع العباسي وخاصة ما يرتبط بهذا المجتمع من قصور وجواري وغلمان وخدم وحشم. وهذا الميل للجواري والشغف بهن لم يكن إلّا بسبب ابتعاد المرأة الحرة عن كافة المجالات الاجتماعية وتفضيلها البقاء في المنزل واغلاق الأبواب دونها إلّا

---

(١) نفس المصدر ـ ص (١٥٦ـ ١٥٧).

القليلات النادرات منهن اللواتي اتيحت لهن فرصة التثقف والإنصقال والتعرف على آداب المعاشرة كالجارية التي كانت تدرب وتثقف وتلقن الدروس الطوال في آداب المجالس وحسن المعاشرة. وأفسح سفور الجواري لهن احتلال قلوب الرجال وجيوبهم. واذا كانت المصادر التاريخية لا تشير بشكل واضح مكشوف الى هذا التحول الذي جرى في المجتمع العباسي، فإن الإشارات الكثيرة غير المباشرة اليه لا تدع مجالاً للشك في انتقال المرأة الحرة الى الصف الثاني وحلول الجارية محلها في الصف الأول بالنسبة للكثير من الرجال.

وإذا ما تلفتنا إلى بيوت القيان في العصر العباسي وخاصة في الجزء الأول منه، فإن الخمور كانت تقدم لمن يرغب فيها ليستمتع الزائر بالغناء وشرب الخمر والفسق والفجور في بعض الأحيان. كما تحدث عن هذه البيوت صاحب الأغاني، وصاحب العقد الفريد، والطبري وابن الأثير وغيرهما من المؤ رخين الذين تحدثوا عن تلك الفترة.

أما عن أصحاب بيوت القيان، فقد كان لهم سلطانهم على المؤسسة التي يشرفون عليها، وباستطاعتهم استقبال من يريدون، ورفض من يريدون. واذا بدا لأحدهم أن وجود شخص يضر بسمعة البيت أو يزعج الحضور، فليس أسهل عليه من أن يأمره بترك المكان، وعلى الزبون غير المرغوب فيه أن يطيع. وقد جرت عادة بعض الأشراف اذا راق لهم سماع قينة وأنفوا أن يشاركوا سواد الناس في الجلوس إليها، أن يطلبوا من المقينّ أن يغلق بيته دون الجمهور لليلة أو أكثر، وأن يخصهم وحدهم بغناء قيانة في تلك الليلة. وكان طبيعياً أن تعد القيان لهذه المناسبة اعداداً خاصاً يليق بمقام الحضور، وأن يزين المكان أبهى زينة، وأن يحضر فاخر الطعام ولذيذ الشراب لتكون الليلة بعد ذلك حديث وموضوع سمرهم. وطبيعي أن تكون مكافأة المقينّ وجواريه عظيمة ذات قيمة مادية ومعنوية في مناسبات كهذه. على سبيل المثال فقد

دفع شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة للقينة التي أحيت له ليلة طرب لها هو وصحبه عشرة آلاف درهم، وعشرة أثواب مزركشة من الحرير الفاخر.

وليس مستغرباً أن تهتم القينات بمظهرهن وتبرجهن لمحاولة إظهار جمالهن وفتنتهن، فاسمهن مشتق من التقينّ، أي بمعنى التزين والتجمل، وصناعتهن تقتضي رواء المظهر وبهاءه.

وبالاضافة الى كل هذه المظاهر التي تدل على مدى انحلال المجتمع العباسي من الناحية الأخلاقية، لا بد لنا من الاشارة الى طبقة أخرى من الجواري اللواتي لم تكن شهرتهن تعود إلى ثقافتهن وأدبهن، وإنما ترجع إلى نبوغهن في الفنون الجميلة من غناء ورقص وخلاعة، وإلى براعتهن في الفتنة والضرب على الآلات الموسيقية التي كانت معروفة في ذلك العصر. وكانت هذه الطبقة تتدرب على أيدي أساتذة واستاذات ماهرين في الأصول من أمثال فليح، وابراهيم الموصللي، وابن اسحق، وابن جامع، وبذل، ودنانير، ومن سبقهم وخلفهم من المشاهير في الفنون الجميلة. ولعل أولى هؤلاء الشهيرات من الفنانات كانت الزرقاء جارية ابن رامين التي كانت في غاية الجمال وحسن الصوت. وتليها بصبص جارية ابن نفيس، ثم برقا جارية علاء الدين البصري. وما كاد يطلّ عصر هارون الرشيد حتى كثر عددهن وبرزت مواهبهن أكثر من كل عصر آخر.

ومما يلفت النظر أن شهيرات الجواري في العصر العباسي كن كثيرات يعجز القلم الضعيف عن تعدادهن، وذكر صفاتهن وما ذاع وانتشر حولهن من قصص وروايات أغرب من الخيال وخاصة ما يتعلق بقصص الحب والغرام عندهن، وهذا ليس غريباً بالنسبة لهن وقد أعددن اعداداً خاصاً لزينة القصور والعبث فيها. وإنما الذي يصح أن يكون غريباً، تساهل العلماء والفقهاء حول هذه النواحي الاخلاقية.

ومن المؤكد أن سلطان الجواري في العهود العباسية كان عظيما جداً حيث أتيح لهن ما لم يتح لسواهن من قبل من النفوذ على الخلفاء ورجال دولتهم. ولكن بني العباس كانوا على درجات في الخضوع لهن، والانصراف اليهن بين المغالي والمعتدل. فالمعتدلون كما يقول الأستاذ بيهم «كانوا كهارون الرشيد، والمأمون، والمتوكل، الذين كان شعارهم:

ولله مني جانب لا أضيعه   وللهو مني والصبابة جانب

والمتطرفون كانوا، كالأمين والواثق والمستعين والمعتضد والمقتدر والقاهر. على أنهم كانوا جميعاً يغالون في شرائهن، ويسرفون في العطاء لهن عما يشير،إلى أنهم كانوا في حب النساء سواء. فقد قيل أن هارون الرشيد أعطى دنانير جارية يحيى بن خالد البرمكي وكان مشغوفاً بها، عقداً قيمته ثلاثون ألف دينار. وقيل أنه اشتاق يوماً ذات الخال، وكان غضب عليها ووهبها إلى حموية، فلما علم هذا برغبة الخليفة في سماع غنائها، استأجر لها من بعض الجوهريين، زينة وعقوداً ثمنها اثنا عشر ألف دينار. فلما رآها الرشيد قال: ويلك يا حموية! من أين لك هذا؟، فصدقه الخبر، فبعث الرشيد إلى أصحاب الجواهر بثمنها ووهبها له. وحلف في يومه ذاك أن لا تسأله ذات الخال حاجة إلّا قضاها لها. فسألته أن يولي حموية الحرب والخراج بفارس سبع سنين، ففعل!.

وللرشيد أشعار في بعض جواريه، منها قوله في إحداهن:

تبدي صدوداً وتخفي تحته مقة   فالنفس راضية والطرف غضبان

يا من وضعت له خدي فذلله!!   وليس فوقي سوى الرحمن سلطان

وشابه الأمين أباه في التبذير على المحظيات، فبذل لبذل المغنية العطايا من الجواهر ما لم يملك أحد مثله، ولكن الأمين فاق الرشيد في الاستسلام للقيان، وفي الانصراف إليهن بكلتيه.

وكان للمأمون جارية من أحسن الجواري، وأسبقهن الى كل

نادرة، فحظيت عنده ما لم تحظ به امرأة. فحسدها أترابها وقلن: «لا حسب لها». فنقشت على خاتمها: «حسبي حسني» فازداد بها المأمون اعجاباً. فتحايل الجواري حتى سمموها، فجزع المأمون، لموتها جزعاً شديداً، ورثاها بقوله:

اختلست ريحانتي من يدي   أبكي عليها آخر الأبد
كانت هي الأنس اذا استوحشت   نفسي من الأقرب والأبعد
وروضة كان بها مرتعي   ومنهلاً كان بها موردي
كانت يدي كان بها قوتي   فاختلس الدهر يدي من يدي

ويعبّر المأمون عما في نفسه من العبودية لجارية أخرى فيقول، وهو من السهل الممتنع:

لها في لحظها لحظات حتف   تميت بها وتحيي من تريد
فإن غضبت رأيت الناس قتلى   وإن ضحكت فأرواح تعيد
وتسبي العالمين بمقلتيها   كأن العالمين لها عبيد

وكأن المتوكل أراد أن يستعير تشابيه المأمون في هذا الشعر، وذلك حينما تغزل بجارية له وقال:

أمازحها فتغضب ثم ترضى   فكل مقالها حسن جميل
فان غضبت فأحسن ذي دلال   وان رضيت فليس لها بديل

ولكنه وإن أجاد فلم يحظ بجميع المعاني التي أتى عليها سلفه.

وللمعتز في وصف ليلة له مع جارية:

فأصبحت في ليلين للشعر والدجى   وشمسين من كأس ووجه حبيب

وكان المعتز من أشهر شعراء العرب، وأعلمهم بالموسيقى.

وعلى هذا النسق استشرى الولع بالنساء بين الحاشية والشعب، والتباهي بهن. وحسبنا الإشارة الى يحيى بن خالد البرمكي، فقد بلغ

حبه لجاريته دنانير، إنها لما مرضت تصدق في كل يوم من شهر رمضان، بألف دينار التماساً لشفائها»[1].

المرأة والحجاب:

كنا قد ذكرنا في غير هذا المكان لمحة خاطفة عن الحجاب عند الشعوب القديمة لنعطي فكرة واضحة بأن الشعوب القديمة قد عرفت الحجاب والستر قبل ظهور الاسلام، وليس صحيحاً أن حجاب النساء هو نظام خاص بالمسلمين لم تسبقهم إليه أمة من الأمم، ولا عرفه بعدهم شعب من الشعوب.

وفي ضوء المصادر والنصوص التاريخية، يمكننا أن نقول بأن المسلمين كانوا آخر من فرض نظام الحجاب على النساء وليسوا أول من استن هذه التقاليد، لأن الأشوريون واليونان والهندوس والفرس وغيرهم من الشعوب والأمم قد عرفت مجتمعاتهم الحجاب بصورة تتلائم مع البيئة والمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه.

والمجتمعات القبلية التي كانت تتأثر مجتمعاتها وتقاليدها بتعاليم ومعتقدات دين معين أو حضارة معينة لم يذكر التاريخ أن هنالك أي حجاب أو ستر كان يوضع بين الذكور والإناث من أفرادها، بل يختلط الفتية والفتيات والرجال والنساء في شيء كثير من الحرية، ويساهمون في كثير من وجوه النشاط التي تنطوي عليها حياتهم اليومية على قدم المساواة.

ومما نلاحظه في هذا المجال أن الاختلاط كان يبدأ منذ مرحلة الطفولة ويستمر حتى نهاية الحياة. ففي مرحلة الطفولة لم تكن هناك أية قيود تحدّ من نشاط الأطفال، فهم يمارسون ألعابهم المختلفة دون أي تفرقة بسبب

---

(١) المرأة في حضارة العرب ـ الأستاذ محمد جميل بيهم ـ ص (٢١٦ـ ٢١٧).

الجنس، وربما كانت إحدى ألعابهم المفضلة، هي تمثيل حفلات الزواج وتقليد الحياة الزوجية.

وانطلاقاً من هذا الاختلاط الظاهر البينّ لدى بعض القبائل حيث تضطرهم ظروف العمل والحياة الاجتماعية الى العيش جنباً إلى جنب، ويعملون في زمر تضم الرجال والنساء على السواء. يمكننا أن نلاحظ لدى بعض هذه المجتمعات القبلية مناسبات معينة يفصل فيها بين الذكور والاناث، ويعود هذا الفصل وفقاً للأحوال وعملاً بموجب بعض الأعراف والتقاليد التي تحد من اتصال شخص أو أشخاص معينين بآخرين، وقد يجري بتحريم الاتصال بين الجنسين في مناسبة أو ظرف خاص.

ومن الأمثلة على تقييد الاتصال بين أشخاص معنيين، تقييد حرية الرجل في الاختلاط بحماته، وحرية المرأة في الاختلاط بحماها. وتختلف القبائل في كيفية تنظيمها لهذا التقييد لكنها تتفق في محاولة جعل هذا الاختلاط في أضيق الحدود.

ومن الأمثلة على العادات والتقاليد التي يحرم فيها الاتصال بين الجنسين ختان البنات، ويرجع المنع الى اعتبارات تتعلق بالحياء من ناحية، ومن ناحية أخرى الى الخوف من تأثر وجود بعض الأشخاص تأثيراً سيئاً على صحة البنات اللاتي تتم بالنسبة لهن عملية الختان. وكذلك تعتبر الولادة مناسبة لحجاب المرأة من الرجال بحيث لا يجوز لأحدهم دخول كوخها حتى ولو كان زوجها نفسه، وربما امتدت فترة الحجاب عندهم الى شهر أو أكثر. وهناك بعض القبائل التي تعتبر مجيء الحيض سبباً لاعتزال المرأة واحتجابها أثناء مدة الحيض بحيث يمتنع عليها الاتصال بزوجها أو غيره من الرجال خلال هذه الفترة. والسبب في احتجاب المرأة هنا هو الاعتقاد في أنها تكون في حالة نجاسة شعائرية تنطوي على مخاطر لمن يتصل بها.

ويرى الدكتور زناتي أن المرأة القبلية كانت تتمتع بحرية كبيرة في الاتصال بالرجال، فهي تسير سافرة لا تحمل برقعاً أو نقاباً، وتخاطب الرجال وجهاً إلى وجه، وتجلس معهم للحديث، وتشاركهم وجوه النشاط المختلفة. ولا تعرف هذه المجتمعات لحجاب المرأة سوى حالات قليلة لها مبررات خاصة.

ولما ظهر في شبة الجزيرة العربية الدين الاسلامي الحنيف الذي حاول أن يغير دين الآباء والأجداد، وينذر لترك عبادة الأصنام والأوثان، والاتجاه الكلي الى عبادة إله واحد، نجد المرأة أول المسارعات الى الإيمان بهذا الدين الجديد والدفاع عنه بالمهج والأرواح.

وفي فجر الرسالة لم يفرض الدين الجديد على المرأة المسلمة الحجاب، بل فرضه على نساء النبي خاصة، لأن مظاهر الاختلاط بين الجنسين في ذلك المجتمع كانت تشمل كل مظاهر الحياة الاجتماعية فيه. والمثال على ذلك أن النساء كن يدخلن على النبي لمبايعته، وكان النبي ﷺ يرسل من ينوب عنه في أخذ البيعة منهن. وكان النبي ﷺ إذا مرّ بجماعة من النساء سلم عليهن ورددن عليه السلام، وكانت النساء يجئن إلى النبي (ص) يسألنه في أمور الدين عما أشكل عليهن، أو يعرضن عليه شكوى من أب أو زوج، أو يقترحن عليه أمراً. وكان النبي ﷺ يزور بعض النساء في بيوتهن فتستقبلنه ومن معه ويقدمن إليهم الطعام. وكانت المرأة على عهد النبي (ص) تخرج لقضاء حوائجها، وتذهب الى المسجد، ولم يكن الأمر مقصوراً على صلاة الجمعة بل كان عاماً بالنسبة لجميع الصلوات. وساهمت المرأة في هذا العصر في تأسيس الدولة الاسلامية، فاشتركت في الغزوات، كانت تسقي المقاتلين وتمرض الجرحى. وقاتلت أحياناً قتالاً مستميتاً، فضربت بالسيف ورمت بالقوس.

ومن الملاحظ بأن الرواة متفقون على أن سبب نزول آية الحجاب

هو ما حدث غداة بناء النبي ﷺ بزينب. فقد روي عن إنس بن مالك أنه قال: «لما أصبح رسول الله عروساً لزينب، دعا القوم فأصابوا من الطعام ثم خرجوا وبقي منهم رهط عند النبي ﷺ فأطالوا عنده القعود، فقام رسول الله فخرج وخرجت معه حتى جئنا حجرة عائشة. ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه حتى دخل بيت زينب فإذا هم قعود. فرجع ورجعت معه حتى بلغ حجرة عائشة ثم ظن أنهم قد خرجوا، فرجع ورجعت معه فاذا هم قد خرجوا. فضرب بيني وبينه ستراً ونزل الحجاب».

ويرد الدكتور زناتي سبب نزول آية الحجاب وفق ما تدل عليه هذه الرواية، هو ما لقيه النبي من احراج ومضايقة نتيجة تخلف هذا النفر من الناس واطالتهم القعود رغم انصراف الآخرين، ورغم أن مقتضيات المناسبة كانت تحتم عليهم الاسراع بالخروج والانسحاب.

وربما تكون هذه الحادثة السبب المباشر لنزول آية الحجاب على أهله. ولكنها على أغلب الظن لم تكن السبب الوحيد، ذلك أن النبي كان لا شك يقاسي الكثير من عدم مراعاة بعض الناس حرمة البيوت وقلة احتفالهم بآداب الزيارة.

ولا شك أن النبي ﷺ كان مضطراً إلى استقبال الناس جميعاً وإلى أن يهش ويبش في وجه كل قادم مهما أساء هذا القادم اختيار وقت الزيارة، ومهما كان ثقيل الظل جلف الطباع. ولا شك أنه كان يحدث أحياناً أن يأتي أناس يطلبون النبي في بيته فلا يجدونه، فتضطر نساؤه جرياً على عادة العرب الى استقبالهم والحديث معهم، وقد يكون منهم ضعيف الايمان فاسد الأخلاق. وإذا أضفنا الى ذلك ما كانت عليه بيوت النبي من بساطة متناهية، فهمنا مقدار الضيق والأذى الذي كان يصيب النبي والذي أنقذه منه أو من بعضه نزول آية الحجاب، ثم أن نساء النبي لسنا كأحد من النساء، فهن أمهات

المؤمنين، ومن كان هذا شأنه وجب الارتفاع به عن كل شبهة والابتعاد به عن كل ريبة، ولذلك أمرن بالقرار في بيوتهن وعدم مخاطبة الرجال إلّا من وراء حجاب.

ففرض الحجاب على نساء النبي وإلزامهن القرار في بيوتهن تبرره ظروفهن الخاصة بهن. وقد كانت هذه الظروف سبباً في اختصاصهن دون غيرهن من النساء المسلمات بأحكام أخرى.

فقد حُرم عليهن الزواج من بعد النبي، كما ضوعف لهن العذاب اذا أتين فاحشة، وضوعف لهن الأجر اذا عملن عملاً صالحاً. فقد روي أن النعمان بن أبي الجون الكندي أنه قدم على رسول الله مسلّمًا فقال: يا رسول الله ألا أزوجك أجمل أيِّم في العرب كانت تحت ابن عم لها فتوفي عنها فتأيمت، وقد رغبت فيك وحطت اليك، فتزوجها يا رسول الله على اثنتي عشر أوقية ونش. ثم قال: فابعث يا رسول الله إلى أهلك من يحملها اليك فإني خارج مع رسولك فمرسل أهلك معه. فبعث رسول الله معه أبا أسيد الساعدي، فلما قدما عليها جلست في بيتها وأذنت له أن يدخل، فقال أبو أسيد أن نساء الله لا يراهن أحد من الرجال. فأرسلت إليه قائلة: فيسرني لأمري، قال: حجاب بينك وبين من تكلمين من الرجال إلّا ذا محرم منك.

فهذه الحادثة كما يقول الدكتور زناتي تدل على أن أبا أسيد فهم الحجاب على أنه خاص بنساء النبي. فقد اعتذر عن عدم الدخول اليها، لأن نساء رسول الله لا يراهن أحد من الرجال.

ومعنى هذا أن غيرهن من النساء يجوز أن يراهن الرجال. كذلك روي أن النبي ﷺ توفي وقد ملك امرأة من كندة يقال لها قتيلة، فارتدت مع قومها فتزوجها بعد ذلك عكرمة بن أبي جهل، فوجد أبو بكر رضي من ذلك وجداً شديداً فقال له عمر رضي الله عنه: «يا

خليفة رسول الله إنها والله ما هي من أزواجه، ما خيّرها ولا حجبها ولقد برأها الله منه بالارتداد». إذ ارتدت مع قومها.

فأبو بكر رضي الله عنه حين ظن أن هذه المرأة تدخل في عداد أزواج النبي ﷺ آلمه وأحزنه أن ترتد، وأن تتزوج بعده. لكن عمر رضي الله عنه أزال ألمه وبدد حزنه وهمه حين أوضح له أن مثل هذه المرأة لا تعتبر زوجة للنبي. وأيد قوله بأدلة منها أن الرسول لم يحجبها. ومعنى هذا أن عمر كان يرى في الحجاب علامة مميزة لنساء النبي[1].

ومما يلفت النظر أن أوضاع المرأة المسلمة لم تتغير أو تتبدل في عصر الخلفاء الراشدين، بل ظلت على ما كانت عليه في زمن النبي وقبل ظهور الاسلام. ففي عهد أبي بكر وعمر كانت النساء تذهب إلى المسجد. وكان عمر نفسه يأذن لزوجته عاتكة بالذهاب الى المسجد بالرغم من غيرته الشديدة عليها، أحب لو لم تذهب، وغيرته هذه كانت مضرب المثل في ذلك العصر. فكان عمر يقول لها اذا استأذنته الى المسجد: قد عرفت هواي في الجلوس! فتقول: لا أدع استئذانك. وعند رغبتها في الذهاب الى المسجد فقد وافق ولم يحبسها، فلقد طعن عمر وهي في المسجد.

وهناك شواهد على أن العادة كانت جارية بأن يرى الزوج زوجته قبل الارتباط معها بعقد الزواج. ومن ذلك مثلاً أن بنتاً لعبيد الله بن عمر بن الخطاب كانت متزوجة من ابراهيم بن نعيم النحام فماتت. فأخذ عاصم بن عمر بيده فأدخله منزله وأخرج إليه ابنتيه حفصة وأم عاصم فقال له اختر! فاختار حفصة فزوجها إياه. وما زال الرجال ينظرون الى النساء ويتحدثون إليهن، وما زالت المرأة تجير اللائذ بها.

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ج ٨ـ وبلاغات النساء لابن طيغور.

وفي خلافة الإمام علي بن أبي طالب (ع) بعد أن بلغ الصراع بين الفرق الاسلامية أشدهم، سرعان ما اختارت المرأة المسلمة الفريق الخاص بها والتي كانت تعتقد بأنه يسير على منهاج الحق والصواب. وقد تميزت منهن جماعة من مؤيدي علي لعبن دوراً خطيراً في تحريض الناس على الانضمام إليه والقتال معه والاستشهاد في سبيل دعوته. منهن عكرشة بنت الأطرش التي وقفت يوم صفين، وقد شدت وسطها وتقلدت بحمائل سيفها وأخذت تخطب في الناس وتقول: «إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب، غلف القلوب، لا يفقهون الإيمان ولا يدرون ما الحكمة، ودعاهم بالدنيا فأجابوه، واستدعاهم الى الباطل فلبوه»[1].

ويشير التاريخ الى أن العرب قد احتفظوا في العصر الأموي بتقاليدهم الأصيلة من حيث السماح للنساء بالاختلاط بالرجال. ففي البادية كانت المرأة تتمتع بأكبر قسط من الحرية فكانت سافرة الوجه تنظر إلى الرجال وينظر الرجال إليها وكان هذا أمراً طبيعياً لا يثير دهشة ولا يسترعي انتباهاً. وكانت النساء في البادية يجلسن بجانب الرجال ويتجاذبن معهم أطراف الحديث يتذاكرون الأخبار ويتناشدون الأشعار. وقد أنجبت المدينة في هذا العصر شخصيتين نسائيتين لامعتين، هما عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين. وكانت عائشة لا تستتر وجهها من أحد، فعاتبها زوجها مصعب في ذلك، فقالت: إن الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلي عليهم فما كنت لأستره ووالله ما فيّ وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد» وسكينة كانت عفيفة سليمة، بارزة من النساء تجالس الأجلة من قريش وتجمع إليها الشعراء، وكانت تجيء يوم الجمعة فتقف بأزاء ابن مطير اذا صعد المنبر، فاذا شتم علياً شتمته هي وجواريها. فما كان من ابن مطير إلّا أن يأمر الحرس بضرب جواريها.

---

(1) كتاب ـ الطبقات ـ ج ٨ـ وبلاغات النساء والأغاني ج ٩ـ ١٤.

وفي البصرة والكوفة كانت المرأة تستقبل أقاربها الوافدين من الجزيرة العربية للتجارة وغيرها. وكانت تجلس إلى الرجال وتتحدث إليهم وقد يروقها أحدهم فتعرض عليه الزواج. والمرأة اذا خطبت، أذنت لمن خطبها بالدخول اليها والحديث معها. ولم تكن نساء الخوارج أقل منهم صدق عقيدة وحرارة إيمان وشجاعة وبسالة في الحرب. وقد دوّن لنا التاريخ ذكر عدد منهن أبدين في المعارك مهارة وشجاعة فائقتين، وواجهن مصيرهن في ثبات ورباطة جأش مدهشين. فنذكر على سبيل المثال واحدة منهن هي غزالة الحرورية التي ثارت مع زوجها شبيب بن يزيد على عبد الملك بن مروان، فكانت تقاتل قتال الأبطال حتى أن الحجاج اضطر في إحدى المعارك إلى الفرار منها وقد عيره الشعراء بذلك فقال أحدهم:

أسد علي وفي الحروب نعامة
ربذاء تفزع من صفير الصافر
هلا برزت الى غزالة في الوغى
بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس
تركت مناظره كأمس الدابر[1]

ويبدو في هذا العصر أن خلفاء بني أمية قد فرضوا على نسائهم الحجاب مما دفع كبار الشخصيات الى تقليدهم. لكن فرض الحجاب على نساء الخلفاء لم يتم دفعة واحدة بل مرّ بتطور محدد ككل نظام اجتماعي، واستغرق بعض الوقت حتى ترسخت قواعده

أما في العصر العباسي فقد فرض العرب الحجاب على النساء الحرائر، وأصبح نظام الحجاب تقليداً ثابتاً لا يحيد عنه الناس، بل يطبقونه بصورة وطيدة وثابتة.

(١) عيون الأخبار للدينوري ج ٤ وبلاغات النساء والأغاني ج ١٢/٩/٨.

ويذكر التاريخ بأن أول من حمل الدعوة إلى الحجاب في بداية العصر العباسي ابن المقفّع الذي كتب يقول: «واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن، فإن شدة الحجاب خير لك من الإرتياب، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا تثق به عليهن فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل»(١).

وقد رأى الجاحظ في بداية القرن الثالث ما يدعوه الى وضع رسالة يوضح فيها أن النظر الى النساء والحديث معهن ليس حراماً ولا عاراً.

ومن الملاحظ بأن الجاحظ كان يرد في رسالته على فريق من معاصريه يتجه إلى تحريم النظر إلى الحرائر، أي إلى الزامهم بالاحتجاب ووضع النقاب. وقد صرح الجاحظ في رسالته بأن هؤلاء أصبحوا ينظرون الى هذا الأمر كأنه حق واجب مع أن مبعثه في رأيه غير مفرطة أقرب إلى سوء الخلق.

ورويداً رويداً تابع الحجاب تقدمه حتى أصبح نظاماً اجتماعياً عاماً. فتأصلت جذوره في المجتمع العربي والاسلامي، وأصبح الجميع يتمتعون به ويتبعون سننه ولا يتعدون حدوده.

ويحدثنا المؤرخ أبو الفرج الأصفهاني عن الاختلاط وحديث الرجال إلى النساء ويروي لنا قصة تتضمن لقاء بين رجل وامرأة فيقول: «وكان أهل البدو إذ ذاك يتحدث الفتيان إلى الفتيات والنساء إذ ذاك يتزين ويبدو بعضهن لبعض، ويبدون للرجال».

واذا ما سبرنا أعماق التاريخ، لا بد لنا من الإشارة بأن المرأة العربية قد بدأت تتحول من السفور إلى الحجاب، ومن الاختلاط الى الانفصال في العصر العباسي وهذا التحول ناتج عن انتشار الرقيق والتأثر بالثقافة الاغريقية التي سبقتهم الى ستر المرأة وفصلها عن الرجال

---

(١) أمراء البيان ـ محمد كرد علي ص ١٣٨.

بصورة عامة باعتبارها مخلوقاً أدنى من الرجل.

وفي اعتقادنا أن للتقاليد الفارسية دوراً هاماً في إدخال نظام الحجاب إلى المجتمع العربي. فعندما اختلط العرب بالفرس تأثروا بعاداتهم في حجاب النساء. وبعد أن استقر الحجاب في بغداد باعتبارها مدينة غلبت على أهلها عادات الفرس وتقاليدهم، انتقل الى غيرها من مدن العراق مثل البصرة والكوفة. ولم يكن الرق في العصر العباسي إلّا من الأسباب الرئيسية التي ساعدت على التحول الى الحجاب نظراً لكثرة الرق وما كان له من أثر هدام على الأخلاق والعادات والتقاليد. لذلك لا نستغرب أن يفكر الرجل وهو يلاحظ الفوضى الجنسية والأخلاقية في وسيلة يطمئن بها على أهل بيته وزوجته، وتحفظ شرعية نسله.

والجدير بالذكر أن المجتمع العباسي قد انقسم إلى فريقين: فريق يدعو إلى الحجاب، وفريق يعارض الحجاب ويدعو إلى السفور مما حمل الفقهاء والعلماء إلى التدخل في الصراع الذي كان يدور حول الحجاب. كما انقسم المفسرون فيما بينهم حول المقصود بالأدناء في الآية القرآنية الكريمة: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾[1] وذهب بعضهم الى أن المقصود بذلك هو أن يغطين وجوههن ورؤوسهن فلا يبدين إلّا عيناً واحدة. ورأى البعض الآخر أن المقصود هو أن يشددن جلابيبهن على وجوههن.

ولم يكن اختلاف المفسرون حول هذه الآية فقط، بل اختلفوا بالزينة الظاهرة التي يجوز للمرأة ابداؤها في الآية الكريمة: ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فرجهن، ولا يبدين زينتهن إلّا ما ظهر منها﴾[2] فذهب بعضهم إلى أنها الثياب. ومعنى هذا

(١) سورة الأحزاب آية ٥٩. (٢) سورة النور آية ٣١.

أن الثياب هي الزينة الوحيدة التي يجوز للمرأة أن تبديها للجميع، فلا يحلّ للمرأة أن تبدي شيئاً من جسمها، بل عليها أن تخفي كل جزء فيه.

وذهب البعض الآخر إلى أن المقصود بالزينة الظاهرة، الوجه والكفان بحيث يجوز للمرأة أن تبديها. وزاد البعض الثالث وقال: إنها الوجه ونصف الذراع[1].

ولما استقر الحجاب ساد بين الفقهاء اتجاه نحو وضع القيود الثقيلة على حرية المرأة، وكل جيل يغلو في التضييق عن الجيل الذي سبقه، حتى وصل بعضهم الى نتائج تنبو عنها العدالة ولا يستسيغها الاسلام. فأحد الفقهاء مثلاً يقارن بين النفقة المستحقة للخادم والنفقة المستحقة للزوجة فيقول: «وإن كانت الخادم تخرج فلها الحق. فأما المرأة فمأمورة بالقرار في البيت ممنوعة من الخروج فلا تستوجب الخف على الزوج»[2]. ويضيف آخر ما ينبغي أن يكون عليه حال المرأة فيقول: «فالقول الجامع في آداب المرأة أن تكون قاعدة في قعر بيتها لازمة لغزلها، لا يكثر صعودها واطلاعها، ولا تخرج من بيتها إلاّ بإذنه، فإن خرجت فمتخفية في هيئة رثة تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، محترزة أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها»[3].

وفي نهاية المطاف لا بد لنا من أن نقول بأن الحجاب ليس سوى أداة فعالة كانت تستخدم في العصور القديمة لصون شرف المرأة وحفظ عفافها وكرامتها، ويحول بينها وبين ما يوقعها في كل فساد وضلال وتهتك أو رذيلة. لذلك لا نستغرب اذا كان الآباء والأزواج يجبرون النساء على التحجب والستر لجميع أعضاء جسدها عن كل ناظر، ويدها عن كل

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ـ لابن جرير الطبري.
(٢) السرخسي في المبسوط ـ ج ٥ ـ ص ١٨٣.
(٣) أحياء علوم الدين ـ الغزالي ـ ج ٢ ـ ص ٣٨.

لامس وفق نظام الحجاب الذي جعله رجال الدين شرعياً مع مرور الوقت حتى يحافظن على كرامتهن وشرفهن.

أما في هذا العصر المتطور الذي نزعت فيه المرأة المسلمة حجابها، واندفعت لتعمل جنباً إلى جنب مع الرجل وهي قانعة بأن الحجاب والانزواء في المنزل يحدان من نشاطها وحيويتها، ويقفان حجرة عثرة في طريق تطورها وتقدمها، لأن الشرف والكرامة والعفة لا يوفرهم الستر والحجاب والانفصال كونهم ينبعون من ذات المرأة ومن ثقتها في نفسها.

حقوق المرأة في الاسلام:

بعد هذه الجولة الاستقصائية في مشاكل المرأة عبر التاريخ لا بد لنا من التعرض بدقة وروية الى حقوق المرأة في الإسلام لنلمس مدى هذه الحقوق التي منحها الاسلام للمرأة بصورة خاصة وللأسرة بصورة عامة، مما كان لهذه الحقوق أثر كبير في تطوير المرأة المسلمة وتقدمها في كافة الحقوق حيث اعتبرت عضواً فعالاً في المجتمع الاسلامي المتقدم، وأصبح لها مكان الصدارة في الحياة الروحية والاجتماعية التي يرعاها الاسلام بموجب التعليمات والارشادات القرآنية والشريعة السمحاء التي ارتفعت بها إلى المكانة اللائقة ضمن الأسرة الإسلامية كأم وأخت وابنة.

ونلمس تتطور مركز المرأة العربية بعد ظهور الاسلام في المجتمع العربي انسجاماً لما نزل بشأنها من آي الذكر الحكيم ومما صدر على لسان النبي من أحاديث طورت شخصيتها القانونية، كما بلورت مركزها في الأسرة والمجتمع. وحددت المبادىء الاسلامية السمحاء، الوضع العام للمرأة سواء بالنسبة للرجل أو للمجتمع البشري عامة، كما حددت حقوقها والتزاماتها كأم وزوجة.

ومما لا شك فيه أن هناك بعض التشريعات التي لا ترتبط بالأمور الدينية من قريب أو بعيد، ولكن الدين شاء ضبطها وتقييدها وتنظيمها

باعتبارها أمور حيوية بالنسبة للمجتمع الاسلامي. ولقد ظهر من خلال صفحات التاريخ قبل ظهور الاسلام، أن الإنسان كان قليل الاحتفال بالقيود التي وضعها المجتمع على هذه الأمور لأنه كان يعتقد أن الوازع الأخلاقي أو الوازع الاجتماعي الصرف أو الوازع القبلي، من الممكن التساهل فيه. ولكن عندما ظهر الدين الاسلامي وقيّد هذه الأمور خضع له الانسان خضوعاً تاماً لما للدين من تأثير في النفوس الانسانية. لهذا كان للتشريع الاسلامي عامة وخاصة ما يتعلق منه بالأسرة داخل اطار الدين الذي نظمها ورتبها وفق الموضوعات والأسس الهامة التي يتم بموجبها بناء الأسرة الاسلامية الصحيحة، والتي يمكن أن نلخصها كما يلي وكما وردت في كتاب (الأسرة في الشرع الاسلامي)[1].

١ ـ الزواج. ٢ ـ المهر. ٣ ـ المتعة. ٤ ـ النسب. ٥ ـ اللقيط. ٦ ـ الحضانة. ٧ ـ النفقة. ٨ ـ الولاية. ٩ ـ الوصاية. ١٠ ـ البلوغ. ١١ ـ الحجر. ١٢ ـ الهبة. ١٣ ـ الوصية. ١٤ ـ المفقود. ١٥ ـ النشوز. ١٦ ـ الطلاق. ١٧ ـ العدة. ١٨ ـ تصرف المريض. ١٩ ـ الميراث.

الزواج:

جعل الاسلام الزواج صلة شرعية بين الرجل والمرأة، وأساس متين ترتكز عليه أحوال الأسرة باعتباره ركيزة الحياة الاجتماعية كلها، وما يتبعها من النظم والقوانين الاجتماعية. وشريعة الاسلام في نظام الزواج بهذه المثابة شريعة تامة تحيط بجميع حالاته، وتعتبر الكفاءة في الزواج شرطاً لازماً بين الرجل والمرأة. لأن الكفاءة يقصد بها عدم الغبن في شخص الزوج أو الزوجة من عدة نواحي، كما أن «شرط مهر» المثل يعتبر كذلك من شروط عدم الغبن في المال أو الأجر الذي يتطلبه عقد الزواج.

(١) الدكتور عمر فروخ ـ ص ٧٧.

والزواج أو النكاح كما يسمى في الشرع، عقد مدني لفظي أو خطي بين رجل وامرأة بالغين راشدين، يحفظان به عليهما عفافهما وصلاحهما ثم ينشئآن منه أسرة، وشروط صحة هذا العقد كما حددها الشرع هي التي تلي:

أولاً - أن تكون الزوجة أو بالأحرى طالبة الزواج، امرأة خالية من الموانع - ليست خنثى، ولا متزوجة، ولا معتّدة (لّما تنقض عليها المدة الشرعية بعد طلاقها أو وفاة زوجها)، ولا وثنية، ولا محرّمة من نسب أو من رضاع أو من مصاهرة أو من زنا.

وللزواج في الشريعة الاسلامية موانع، أي أحوال تتعلق بالمرأة فيحرم على الرجل أن يتزوج بها. وهذه الموانع تنقسم عند أهل السنة إلى قسمين: موانع مؤ بدة، وموانع موقتة.

فالموانع المؤ بدة هي التي لا يمكن أن تزول، فلا يصح معها الزواج أبداً، فاذا اتفق أن تزوج اثنان وبينهما مانع مؤ بد، فزواجهما باطل، يجب على الحكم فسخه.

والموانع المؤبدة (التي تجعل الزواج باطلاً) هي:

١ - المحرم: يحرم زواج الرجل بامرأة (مْحَرَم له) من درجات القرابة التالية:

(أ) أصوله وفروعه (أمه وجداته مهما علون، ثم بناته وحفيداته مهما سلفن)، ثم نساء أبيه: ﴿ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلاّ ما قد سلف﴾[١].

(ب) فروع أبويه (إخواته مطلقاً ونسلهن سواء أكانت أخواته شقائقه أو بنات علاّتٍ من أمهات مختلفات أو بنات أخياف من آباء مختلفين - ثم بنات أخوته وبنات أخواته).

---

(١) سورة النساء آية ٢٢.

(ج) فروع أجداده وجداته مباشرة (عماته وخالاته وعمات أبيه وأمه وخالاتهما فقط - لا بناتهن).

٢ - المصاهرة القريبة (أصول الزوجة وفروعها، وزوجات الآباء وزوجات الأبناء ثم بنات الزوجة من زوج آخر).

٣ - يحرم عموماً بالرضاع ما يحرم بالنسب والمصاهرة، فلا يحل للرجل أن يتزوج ظئرة التي أرضعته، ولا أمها أو جدتها أو ابنتها أو حفيدتها. (ولكن لا يتناول التحريم أخوة الرضيع وأخواته اذا لم يرضعوا معه من التي أرضعته). وكذلك لا يجوز للرجل أن يتزوج زوجة ابنه من الرضاعة، أو زوجة أبيه من الرضاعة،- أي ضرة أمة من الرضاعة- ولا أخته من أبيه أو من أمه من الرضاعة، يعني لا يجوز لرجل أن يتزوج فتاة إذا أرضعته خالتها امرأة أبيها.

٤ - الزنا: اذا زنى رجل بامرأة، حرمت عليه هي وحرمت عليه أيضاً قريباتها (اللواتي يحرمن عادة بالزواج) كما لو كن قريبات امرأته الشرعية.

أما الآية الكريمة التي تجمع أكثر درجات القرابة المحرمة في الزواج فهي: ﴿حُرِّمت عليكم، أمهاتكم، وبناتكم، وأخواتكم، وعماتكم، وخالاتكم، وبنات الأخ، وبنات الأخت، وامهاتكم اللاتي أرضعنكم، وأخواتكم من الرضاعة، وأمهات نسائكم وربائبكم التي في حجوركم من نسائكم التي دخلتم بهن فان لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم، وان تجمعوا بين الأختين الا ما قد سلف ان الله كان غفوراً رحيماً﴾[1].

أما موانع الزواج الموقتة، فقد سميت كذلك لأنها أحوال عارضة يمكن أن تزول. والزواج المعقود مع وجود أحد هذه الموانع يسمى

(١) سورة النساء آية ٢٣.

«فاسداً» وهو يصح اذا زال المانع، والموانع الموقتة هي:

١ - الجمع بين ذوات النسب القريب، فلا يجوزمثلاً أن يجمع الرجل بالزواج بين أختين أو بين فتاتين وعمتها أو خالتها. ويجوز عند الاثني عشرية أن يتزوج الرجل امرأة ثم يتزوج بنت أخيها أو بنت أختها، اذا أذنت المرأة في ذلك. أما أن يتزوج المرأة ثم يتزوج عمتها أو خالتها فجائز مطلقاً فاذا ماتت احدى القرينتين أو اذا طلق الرجل احداهما، حلت له الأخرى بعد انقضاء عدة المطلة أو المتوفاة.

٢ - الزوجة الخامسة، اذا تزوج رجل امرأة خامسة، كان زواجه بها فاسداً. فاذا ماتت احدى زوجاته أو اذا طلق احداهن، حلت له الخامسة بعد أن تكمل عدة المطلقة المتوفاة.

٣ - الزواج بالوثنية أو المجوسية أو الصابئة فاسد، الّا اذا أسلمت أو تهودت أو تنصرت.

٤ - العصمة، أي اذا كانت المرأة زوجة لرجل لم يطلقها.

٥ - العِدّة، أي اذا لم تنقض المدة الشرعية على المرأة بعد طلاقها، أو وفاة زوجها.

٦ - الطلاق البائن بينونة كبرى، فاذا طلق الرجل امرأته ثلاثاً طلاقاً بائناً فلا تحل له بعد ذلك حتى تنكح رجلاً آخر نكاحاً صحيحاً مقصوداً لذاته. فاذا طلقها ذلك الرجل الآخر بارادته ثم انقضت عدتها حلت لزوجها الأول.

٧ - الحمل، يحرم نكاح الحامل حتى تضع حملها ما لم يكن حملها من زنا، فانه يصح نكاحها، ولكن لا يجوز لزوجها أن يواقعها في أثناء الحمل إلّا اذا كانت قد حملت منه هو.

٨ - الاحرام، اذا دخل الحاج الى مكة محرماً، لم يجز أن يعقد

نكاحاً. ويرى الشيعة أن من فعل ذلك وهو عالم بحرمته، نشأ بينه وبين التي عقد عليها مانع مؤ بد ولم يجز له أن يتزوجها فيما بعد أبداً.

أما عند الشيعة (الاثنا عشرية) فجميع هذه الموانع مؤ بدة، والنكاح معها باطل. ويحسن أن نشير إلى أن الشيعة لا يجيزون الزواج الاّ بمسلمة»[1].

ويمكن حصر الحالات التي تناولها الفقهاء في النسب والاسلام والحرفة والديانة أو التدين والتقوى والمال أو الغنى واليسار والسلامة من العيب والسن.

ففي المذهب الحنفي يجب أن تتوفر الكفاءة بين الزوجين في النسب والاسلام والحرية والمال والديانة (التقوى) والحرفة، ويستبعد المذهب المالكي النسب والحرفة والمال من حالات عدم التكافؤ، وانما يضيف حالة السلامة من العيوب كسبب من أسباب الكفاءة.

وأما في المذهب الشافعي فتختصر أحوال الكفاءة في خمس حالات هي: الدين والنسب والحرية والحرفة والخلو من العيوب.

ويذهب المذهب الحنبلي الى ما ذهب اليه الشافعي في رواية، والى ما ذهب إليه المالكي في رواية أخرى. وطرح بعض الفقهاء هذه الحالات ولم يتمسكوا إلاّ بالدين والتقوى مستندين في ذلك لقول الله تعالى: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[2] وقول الرسول الكريم ﷺ: ﴿الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربي على عجمي إلاّ بالتقوى﴾[3].

فنحن نعلم أن الزواج هو أساس الأسرة وضابطها، والتي هي

---

(١) الأسرة في الشرع الإسلامي ـ الدكتور عمر فروخ ـ ص (٧٨ـ ٨١).

(٢) سورة الحجرات آية ١٣.

(٣) المرأة بين الفقه والقانون ـ ص ٥٧.

لبنة في صرح المجتمع المتكافل، ولن يكون مجتمعاً مرهوب الجانب يرجى ويحذر، حتى يستهدي بهدي الله. والزواج عقد بين طرفين لا يكره فيه أحدهما على ما لا يريد. شرط الكفاءة في الزواج قبل الاقدام عليه حتى لا يغبن أحد الطرفين. أو بعبارة أدق حتى لا يعتبر مشوباً بغبن يتناول العلاقة الزوجية غير المتكافئة بين الزوجين. لذلك حدد التشريع الاسلامي، الكفاءة بين الرجل والمرأة بالشروط التالية:

١ ـ النسب، ويحسن أن يسمي ذلك المساواة في المقام الاجتماعي.

٢ ـ الاسلام، إن الزواج بمسلمة أفضل من الزواج بكتابية، وإن كان الزواج بالكتابية العفيفة جائزاً. (أما الزواج بالكتابية العاهرة فلا يجوز).

ومما يلفت النظر أن الزواج في صدر الاسلام بالوثنية والكتابية (اليهودية والنصرانية) كان محرماً حينما كان المشركون وأهل الكتاب محاربين. لذلك قال الله تعالى حول هذه المشكلة: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم. ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا﴾[1].

فلما أصبح أهل الكتاب، أهل ذمة جاز الزواج بنسائهم، ونسخت الآية السابقة بالآية التالية: ﴿اليوم أحلّ لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم وطعامكم حلّ لهم، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم، اذا أتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان﴾[2].

٣ ـ الحرفة، ينبغي أن يكون للرجل حرفة يستطيع أن يدفع منها مهر الزوجة ثم ينفق منها عليها، سواء أكانت الزوجة غنية أو فقيرة.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢١. (٢) سورة المائدة آية ٥.

٤ ـ الحرية، ألّا يكون عبداً.

٥ ـ الديانة أي التقوى، فالفاسق ليس كفوءاً للصالحة التقية.

٦ـالمال، ويصر الحنابلة على أن يكون الزوجان متقاربين في الغنى حتى لا تتغير حال المرأة عما كانت عليه في بيت أبيها أو أن تجد المرأة في نفسها[1] كبراً على زوجها، عملاً بقوله تعالى ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً﴾ عن الزنا، اذا كانوا لا يستطيعون ان يتزوجوا لفقرهم وعجزهم عن دفع المهر والقيام بنفقة الأسرة ﴿حتى يغنيهم الله من فضله﴾[2] فيتزوجون حينئذٍ .

٧ ـ وفي رأي الشافعية أن يناسب الزوج الزوجة في السن فلا يتزوج مثلاً ابن ستين بابنة ستة عشرة سنة. ولكن أصحاب المذاهب أجمعوا على أن الرجل يستطيع أن يتغاضى عن هذه الكفاءات في المرأة، فإذا رغب في امرأة ثم قبل بها زوجاً له فقد عدها مساوية له في كل شيء، وهذا هو الواقع.

على أن بعض الفقهاء جعلوا للعلم منزلة رفيعة في باب الكفاءات فقالوا: «شرف العلم فوق شرف النسب، فغير العربي العالم كفء للعربية ولو كانت قرشية، والعالم الفقير كفء لبنت الغني الجاهل»[3].

وأما الإمام مالك (من أصحاب المذاهب السنية) والاثنا عشرية (من الشيعة) فإنهم لا يقرون في باب الشرع هذه الكفاءات. ولا غرو إذ ليس فيها أمر شرعي، بل هي حكمة دنيوية.

ولما كان الزواج أساس الأسرة واللبنة الأولى في صروح المجتمع المتكامل، وعقد بين طرفين بالرضاء والقبول لا يكره فيه أحدهما على ما لا يريد لقوله تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾[4] وقوله أيضاً

(١) حقوق المرأةـ ص ٣١٩.
(٢) سورة النور آية ٣٣.
(٣) الأحكام الشرعيةـ المادة ٦٥.
(٤) سورة البقرة آية ٢٢٨.

؛ ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾[1] وقوله: ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾[2] وقول النبي ﷺ أكمل المؤمنين ايماناً، أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله.

واستناداً الى آي الذكر الحكيم ومما روي عن النبي من أحاديث ترتبط ارتباطاً كلياً بالزواج والمرأة يمكننا أن لا نعتبر الزواج في الاسلام تصرفاً أو عقداً يستند الى مجرد ارادة الطرفين تتحكم فيه بسلطانها وتستقل وحدها بأحداث النتيجة أو الأثر الذي تتجه اليه، وإنما هو أيضاً نظام شرعي، توجبه الشريعة، وتبسط عليه أحكامها التي تتطلبها حاجة الجنس والبقاء وحفظ النوع والنسل. وكلها أمور يفرضها النظام الطبيعي للمجتمع الانساني بمثل ما تفرضه الغريزة والحاجة الخاصة لكل فرد رجلاً أو امرأة.

لهذا أبرزنا دور المرأة وحقها في الزواج، فظهر بوضوح أن الشريعة الغراء جعلت للمرأة سواء في الخطبة أو في عقد الزواج دوراً مساوياً للرجل كطرف له حقوق على قدم المساواة مع الطرف الآخر.

فهكذا ساوت الشريعة الاسلامية المرأة في الحقوق والواجبات في عقد الخطبة وعقد الزواج، كما أنها ساوتهما في التحريم والمنع فيما عدا حالة تعدد الزوجات. أي أن المرأة اذا تزوجت تصبح محرمة على أي رجل غير زوجها بعكس الرجل اذا تزوج فلا تحرم عليه المرأة ممن تحل له من النساء في حدود حقه في الجمع بين أربعة. وكذلك فيما عدا حالة زواج المسلم بامرأة تدين بدين غير دين زوجها، وتحريم زواج المرأة المسلمة بغير المسلم[3].

عقد الزواج:

الأحكام الشرعية تنص على أن يتولى الزوجان نفسهما عقد القرآن

---

(١) سورة النساء آية ١٩.

(٢) سورة النساء آية ٢١.

(٣) حقوق المرأة ـ ص ٣٣٣.

غير أنه لا بد لكل واحد منهما من وكيل محرم له ومفوض منه بالعقد اذا كان هناك ما يدعو إلى ذلك، كأن يكون احداهما مريضاً أو غائباً أو قاصراً.

أما أصحاب المذهب المالكي والشافعي والحنبلي فقد أوجبوا وجود الوكيل عند اجراء العقد كيفما دارت الحال. وأما اذا كان أحد طالبي الزواج مجنوناً أو صغيراً أو سفيهاً، فيشترط أن يكون له ولي.

وأما البالغة العاقلة فليس لأحد عليها ولاية في النكاح، بل لها أن تباشر عقد زواجها ممن تريد بشرط أن يكون كفوءاً وإلا كان للولي حق الاعتراض وفسخ العقد.

واذا حدث التزويج بوكيل بعد تفويض من البالغة أو بولاية على القاصرة، ثم علمت المرأة العاقلة بعد العقد مباشرة، والمرأة القاصرة بعد بلوغها، إنها كان مغبونة أو أن زوجها غير كفء، فلها أن تفسخ عقد نكاحها.

ومع أن الولي لا يستطيع تزويج امرأة إلّا برضاها، فقد أجمع أصحاب المذاهب على استثناء حالة واحدة، تلك هي اذا خيف على المرأة الفساد، فللولي حينئذ أو للحاكم حق في اجبارها على الزواج حتى تكون في عصمة زوج يقوم عليها فتنتفي حينئذ حجتها لطلب الفساد.

وللولي وللوكيل في النكاح أحوال كثيرة وردت في الأحكام الشرعية الاسلامية.

الشروط في عقد الزواج:

من الشروط التي أوجبتها الشريعة الاسلامية أن يكون عقد الزواج الصحيح مبني على الموافقة والقبول وصحيحاً بصورة مطلقة. ففقد الشاهدين مثلاً لا يبطل العقد ولكنه يفسده عند السنة. ثم يعود

العقد صحيحاً بعد ذلك اذا أشهد عليه ولو بعد الدخول، أو اذا أقر الزوجان بالزواج أمام الحاكم. وكذلك المهر فقد يكون كثيراً أو قليلاً، وقد يصح أن يكون ديناً على الزواج، كما يجوز للمرأة أن تتنازل لزوجها عن بعض المهر أو عنه كله.

ولكن قد يشترط أحد الزوجين في العقد شروطاً خاصة. هذه الشروط من حيث النتائج الشرعية نوعان[1]:

١ ـ شروط تتعارض مع العقد، كأن يشترط أحد الزوجين ألّا **يكون لهما نسل، أوأن يبيت كل واحد منهما في مكان مستقل. فلو أن شيئاً مثل هذا اشترط في طلب العقد لظل العقد صحيحاً وكان الشرط فاسداً.**

٢ ـ شروط لا تتعارض مع العقد، كأن يشترط أحد الزوجين على الآخر دفع مبلغ معين بعد زمن معين، أو السكن في بلد مخصوص، أو كأن يشترط الزوج أن تكون المرأة بكراً أو جميلة أو أن تكون تملك أملاكاً، أو كأن تشترط المرأة على الرجل ألّا يتزوج ضرة لها أو أن يأخذها الى الحج في العام التالي أو أن يكون أمرها بيدها (أي لها حق الطلاق) ويسمى ذلك زواج التفويض. فاذا تبين للمشترط بعدئذ فقدان شرطه كان له الخيار في أن يفسخ الزواج أو لا يفسخه.

أما اذا كان الرجل مجنوناً أو عنّيناً ولم تكن المرأة عالمة بذلك وقت عقد النكاح، أو اذا لم يستطع هو إتيانها مرة واحدة على الأقل، فلها أن تطلب التفريق بينها وبينه. واذا اتفق ان تأخرت في طلب التفريق فان حقها هذا لا يسقط أبداً.

الحقوق والواجبات:

تنشأ عقب النكاح أحوال بعضها شرعي وبعضها اجتماعي، ثم يترتب عليها واجبات وحقوق متبادلة نحو الزوجين أو نحو نسلهما

(١) الأسرة في الشرع الاسلامي ـ تأليف عمر فروخ ـ ص (٨٤ـ ٨٥).

وأقاربها. على أن هذه الحقوق والواجبات لا تنشأ الا بعد ثبوت الزواج بالسند الشرعي. فالخطبة أو الوعد بالزواج، لا تنشأ منهما أحوال شرعية حقوقية أبداً، ولكن للخاطب عند استحالة عقد الزواج أن يسترد هداياه الثمينة كالحلى والثياب الفاخرة التي لم تستهلك.

فما الحقوق والواجبات التي تنشأ من الزواج؟[1]:

١ ـ الزواج الباطل، لوجود مانع مؤ بد لا حقوق فيه ولا يعترف به الشرع، بل يعده اتصالاً جنسياً غير مشروع فلا تقبل فيه الدعوى (الا للتفريق بين الزوجين). ولا يتوارث الطرفان في الزواج الباطل، ويكون الأولاد منه زنماء (أي أولاداً غير شرعيين).

٢ ـ أما في الزواج الفاسد، لمانع عارض وذلك في المذاهب السنية فقط كما مر معنا من قبل، فان الحاكم يفرق بين الزوجين اذا علم بأمرهما قبل زوال المانع. واذا مات أحد الزوجين قبل التفريق فان الآخر لا يرث منه. أما الأولاد فيثبت نسبهم ويرثون من الأبوين.

٣ ـ الزواج الصحيح، «متى انعقد النكاح صحيحاً ثبتت الزوجية ولزم الزوج والزوجة أحكامه من حين العقد (وقت كتابة الكتاب)، ولو لم يدخل الرجل بالمرأة».

(أ) حقوق وواجبات متبادلة مشتركة:

ـ المساكنة الشرعية، ويكون الأولاد الناشئون من هذه المساكنة أولاداً شرعيين لهم حقوق على أبويهم.

ـ حسن المعاملة المتبادلة من الاحترام واللطف والمحافظة على خير الأسرة.

ـ حرمة المصاهرة، اذ تنشأ قرابة بين الزوج والزوجة ثم بين

(١) نفس المصدر السابق ـ ص (٨٥ـ ٨٧).

أقاربهما (فتمنع زواج نفر من احدى الأسرتين بنفر من الأسرة الثانية).

- حق التوارث بين الزوجين.

- تنفيد الشروط الخاصة في العقد اذا وجدت.

(ب) حقوق المرأة على الرجل:

- وجوب دفع المعجل من المهر فوراً، ثم استحقاق المؤجل منه مشروطاً بوفاة الرجل أو بالطلاق.

- النفقة الشرعية للطعام والكسوة والسكن.

- العدل والتسوية، اذا كان الرجل متزوجاً بأكثر من امرأة واحدة. وجميع الزوجات في ذلك سواء: البكر والثيّب والمسلمة والكتابية والمريضة والصحيحة والقبيحة والجميلة.

- الاتيان بخدم اذا رزق الزوجان أولاداً كثاراً لا قِبَل للزوجة بخدمتهم.

- السماح للزوجة بزيارة أهلها واستزارتهم.

(ج) حقوق الرجل على المرأة:

- صيانة الزوجة نفسها وإحصانها.

- طاعة الزوجة لزوجها في الأمور المباحة شرعاً.

- ارضاع أولادها.

- الاشراف على البيت كإعداد الطعام (ما لم يكن معداً للاتجار) وتنظيم شؤونه.

- إكرام والدَيِ الزوج وأقاربه. (لان المرأة تعيش عادة مع أهل الزوج).

- تمريض الزوج اذا مرض.

- لا تخرج المرأة من بيتها إلا **بإذن زوجها**.

- تأديب الرجل للمرأة اذا نشزت أو اذا عصته في ما هو من حقه، أو اذا أساءت اساءة يعاقب عليها الشرع.

أما في الحقوق المدنية فيظل الزوجان شخصين مستقلين في التصرف الكامل في التجارة واقتناء الأملاك (وفي الانتخاب أيضاً). «ولا ولاية للرجل على زوجته في أموالها الخاصة، بل لها التصرف فيها بغير إذنه ولا رضاه. ولها أن تقبض غلة أموالها أو أن توكل زوجها أو غير زوجها بإدارة مصالحها. وهي تنفذ عقودها بلا توقف على اجازة زوجها مطلقاً ولا على اجازة أبيها أو جدها.. اذا كانت راشدة محسنة التصرف. ومهما كانت المرأة غنية فلا يلزمها شيء من النفقة المتوجبة في الأصل على زوجها». إن الشريعة الاسلامية.. لم تفرق بين الرجل والمرأة في الأهلية بوجه عام.

واذا بدل أحد الزوجين دينه أو بدّلا كلاهما دينهما، فإن هنالك شيئاً يطرأ على أحوال الزواج.

- إذا ارتدت الزوجة الى دين سماوي كاليهودية والنصرانية (عند السنة) لم يتبدل شيء من أحوال الزواج، إلا أن الأولاد يتبعون حينئذ الوالد في دينه ثم تفقد الزوجة حقها في الإرث. أما اذا ارتدت الى الكفر فإنها تطلق من زوجها شرعاً، ويتوجب على الحاكم أن يفرق بينهما.

- إذا ارتد الزوج تطلق الزوجة سواء أكان ارتداده الى دين سماوي أم الى الكفر، ثم يمتنع التوارث بينهما. أما الأولاد فيبقون مع الأم. ولكن اذا كانت الأم في بلد غير اسلامي وكان يخشى على الأولاد

من تبديل دينهم وكان أبوهم في بلد اسلامي، فان الأولاد يبقون حينئذ مع أبيهم في البلد الاسلامي.

تعدد الزوجات:

أجاز الاسلام تعدد الزوجات للضرورة ثم قيده بشروط أيضاً.

يؤخذ الحكم في تعدد الزوجات من الآية الثالثة في السورة الرابعة (سورة النساء): ﴿وإن خفتم ألا تُقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاثَ، ورباعَ﴾[1].

والجدير بالملاحظة أن الدكتور عمر فروخ قد علق على تعدد الزوجات بقوله: «كان العرب يحرصون على الاحسان إلى اليتامى اذا كانوا في كفالتهم ويخافون أن يظلموهم. ولكن كانوا قلما يحرصون على ذلك في معاملة زوجاتهم، فربما عدلوا بينهن وربما لم يعدلوا. فأراد الله أن يقول للعرب أن نساءكم رعية لكم كما أن الأيتام الذين في كفالتكم رعية لكم. فاحرصوا أن تعدلوا بين النساء كحرصكم على العدل بين الأيتام. فاذا أيقنتم أنكم تستطيعون العدل بين زوجاتكم المتعددات جاز لكم أن تعددوا الزوجات»[2].

على أن تتمة الآية نفسها تنفير من تعدد الزوجات: ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم، ذلك أدنى ألا تعولوا»[3]، أي اذا كنتم لا تستيقنون من أنفسكم أنكم تستطيعون العدل (في النفقة والمعاملة والمساكنة) اذا تزوجتم أكثر من امرأة، فاقتصروا على امرأة واحدة. ثم عاد القرآن الكريم فأكد في سورة النساء نفسها، أن الانسان لا يستطيع أن يقسم محبته وحسن معاملته بالعدل بين زوجاته فنصحه

---

(١) سورة النساء آية ٣.
(٢) الأسرة في الشرع الاسلامي ـ الدكتور عمر فروخ ـ ص (٨٨ـ ٨٩).
(٣) سورة النساء آية ٣.

(اذا اضطر الى تعديد الزوجات) بأن يتحرّى العدل ما أمكنه، قال: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلّقة﴾[1]. (عن احداهن) فالإسلام هنا يحث بلا ريب على الاكتفاء بواحدة.

ومن الملاحظ بأن هناك حالات تدعو الى تعدد الزوجات مثلاً:

(أ) اذا كثرت النساء بعد الحرب، أي حرب ما. كان الأولى أن يجمع الرجل في عصمته أكثر من امرأة لئلا تكون الزائدات عن عدد الرجال، وهن عوانس، عالة على عواطف المتزوجين أو فريسة للكبت النفساني.

(ب) اذا نزل بالزوجة مرض أو عاهة حالت بينها وبين الحياة الزوجية والبيتية، ثم لم يجد الزوج من الوفاء أن يطلقها.

(ج) اذا كانت المرأة عاقراً، وكان الزوج يحرص على ذرية له.

فتعـدد الزوجات شُرع فقط للضرورة، لا للمتعة. وقد روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «لعن الله الذوّاقين والذواقات. قالوا: من هؤلاء يا رسول الله؟ قال: هم الذين يتزوجون رغبة في لذة النكاح!».

ثم أن لهذا التشريع وجهاً اجتماعياً. جاء الاسلام والعرب يعددون الزوجات ولا يقفون عند حد، حتى أن أحدهم كان يجمع في عصمته أربعمائة امرأة. فاذا حطّ الاسلام عدد الزوجات من أربعمائة الى أربع فقط، فإنه يكون قد أتى باصلاح عظيم. وهناك أسباب أخرى لا مجال لذكرها هنا.

إن الزواج في الإسلام عقد مدني فهو مبني في الدرجة الأولى على ايجاب وقبول بين الطرفين المتعاقدين. ثم أن له شروطاً وأحكاماً

---

(١) سورة النساء آية ١٢٩.

متعددة. من هذه الشروط ما هو أصيل في نظام الزواج، ومنها ما هو اضافي يشترطه كل زوج من الزوجين اذا أراد. على أن هذه الشرّوط كلها، الأصيل منها والاضافي، يمكن أن يطرأ عليه تعديل إما باختلاف الأحوال أو بالتراضي بين الزوجين.

فالزواج في الاسلام اذن هو طابع شرعي أي قانوني، على اعتبار أن الشرع هو القانون. أضف إلى ذلك أن (عقد الزواج) خاضع للنقض بنشوء موانع قانونية أو بتراضي الطرفين، أو بطلب من أحد الطرفين فقط على شروط في ذلك.

والزواج بين طرفين له فوائد كثيرة ونواحي أخرى خلقية واجتماعية ودينية. فالناحية الخلقية أن الزواج يساعد على الاحصان والعفة ويدمث الأخلاق ويذكي عاطفة المحبة بين الرجل وبين زوجه وأولاده.

وأما من الناحية الاجتماعية مثلاً فإنه ينطوي على رفع شأن المرأة بما كسبت من حقوق مستجدة، وتقييد تعدد الزوجات وسنّ الزواج على كل مقتدر، وحسن المعاملة بين الزوجين أعطاها الحق والثقة بالنفس. فعلى تلك الأسس الفطرية الجميلة، شرع الاسلام مركز المرأة وحقها في عقد الزواج، ورسم علاقة جميلة مع الزوج، وقرر بينهما من أصول التعاون على رسالة الحياة المشتركة.

وأما من الناحية الدينية فقد أراد أن يخلع على الناحية الشرعية طابعاً دينياً فشمل الزواج بأحكام الدين وجعل للاحسان والاساءة في الزواج ثواباً وعقاباً. وبالرغم من كل ذلك لم يخرج الزواج من إطار دائرة الشرع المدني ولم يجعله دينياً بحتاً.

ويبدو أن النبي (ع) كان يحثّ الشباب على الزواج فيقول: «يا

معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه لو جاء»[1].

واذا ما عدنا بذاكرتنا الى تاريخ المجتمعات البشرية نلمس بأن نظام تعدد الزوجات كان معروفاً ومطبقاً في الكثير من المجتمغات حيث لم يكن هناك أي مانع يحدد عدد الزوجات عند الرجل الواحد، كون الشرائع المدنية كانت تبيح تعدد الزوجات واقتناء السراري بغير تحديد العدد. فشريعة «ليكي» الصينية على سبيل المثال تجيز أن يبلغ عدد الزوجات مائة وثلاثين امرأة. ومما يروى أنه كان في الصين عند أحد الأباطرة نحو ثلاثين ألف امرأة، ولما ظهرت الديانتان اليهودية والمسيحية اختلفتا في أحكام الزواج، وفي التطلع الى معناه وغايته من الوجهة الروحية.

فالشريعة الاسرائيلية أباحت تعدد الزوجات بمشيئة الزوج حسب رغبته واقتداره. ويفهم من أخبار العهد القديم أن الملكين النبيين جمعا بين مئات الزوجات الشرعيات والأماء. ففي الاصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأول، أن الملك سليمان أحب نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون، وكانت له سبعمائة من النساء وثلثمائة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه.

ويرى «نيوفلد» صاحب كتاب «قوانين الزواج عند العبرانيين الأقدمين» أن الثلمود والتوراة معاً قد أباحا تعدد الزوجات على اطلاقه، وان كان بعض الربانيين ينصحون بالقصد في عدد الزوجات[2].

ثم جاءت المسيحية، وهي أكبر الديانات الكتابية بعد ديانات أبناء اسرائيل. فلم تتوسع في التشريع الاجتماعي لأنها نشأت في بيئة مكتظة

(١) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة - ص ١٣٨.
(٢) المرأة في القرآن - ص ١٠٧.

بالشرائع. فذكرت هذه الديانة الجديدة شيئاً عن الـزواج في ناحيتـه العبادية، ولم يرد في كتبها نصاً صريحاً بتحريم تعدد الزوجات.

فلا منع على تعدد الزوجات في التوراة والانجيل، وانما ورد في كلام بولس الرسول[1] الذي يستحسن ويفضل الزواج بامرأة واحدة وخاصة لرجل الدين المنقطع عن مآرب دنياه.

ومما يقوله «وسترمارك» العالم الثقة في تاريخ الزواج، ان تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي الى القرن السابع عشر، وكان يتكرر كثيراً، في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة.

وإن ملك إيرلندا «ديار ماسدت» كانت له زوجتان وسريتان. ويقال أنه كان «لشارلمان» زوجتان وكثير من السراري. ويـروى أن «فيليب أوف هيس» و «فريدريك وليم الثاني البروسي»، أبرما عقد زواج مع اثنتين بموافقة القساوسة اللوثرين. ويروى بأن «لوثر» نفسه كان يتحدث في شتى المناسبات عن تعدد الزوجات بغير اعتراض. فإنه لم يحرم بأمر من الله ولم يكن ابراهيم - وهو مثل المسيحي الصادق يحجم عنه، اذ كانت له زوجتان».

ويذكر التاريخ أنه في سنة ١٦٥٠ ميلادية بعد صلح «وستفاليا» حيث تبين النقص في عدد سكان الغرب من جراء حروب الثلاثين، أصدر مجلس «الفرنكيين» «بنور مبرج» قراراً يجيز للرجل أن يجمع بين زوجتين[2].

ومما يلفت النظر أن المسيحية في افريقيا السوداء تسمـح بتعدد الزوجات حيث وجدت الارساليات التبشيرية نفسها أمام واقع اجتماعي وهو تعدد الزوجات لدى الافريقيين الوثنيين، ولمسوا أن التعدد يقف

(١) راجع مع المسيحية في الأناجيل الأربعة- والمرأة في القرآن - ص ١١٤.
(٢) المرأة في القرآن - ص ١٠٧. عباس محمود العقاد.

حجر عثرة بينهم وبين الدخول في الدين المسيحي، لذلك نادوا بوجوب السماح للأفريقيين الذين يعتنقون الديانة المسيحية بتعدد الزوجات الغير محدود.

ولقد أشار مؤلف «كتاب الاسلام والنصرانية» السيد لورجيه الى هذه الحقيقة حيث قال: «ان المرسلين يقولون أنه ليس من السياسة التدخل في شؤون الوثنيين الاجتماعية، وليس من الكياسة أن نحرم عليهم التمتع بأزواجهم، ما داموا قد أصبحوا نصارى يدينون بدين المسيح. ولا ضرر من ذلك ما دامت التوراة وهي الكتاب الذي ينبغي على المسيحيين أن يجعلوه أساساً لدينهم الذي يبيح تعدد الزوجات، فضلاً عن أن المسيح قد أقرّ ذلك بقوله: لا تظنوا أني جئت لأهدم بل لأتمم. لذلك أعلنت الكنيسة رسمياً السماح للافريقيين النصارى بتعدد الزوجات الغير محدود»[1].

والتاريخ يذكر بأن أنظمة الزواج في العالم قبل الاسلام كانت تطبق نظام تعدد الزوجات نظراً للحاجة الماسة للاصلاح والتقويم، باعتبارها تحدّ من الاباحية المطلقة وتؤمن الزواج الصحيح السليم. ولا تهمل مع هذه الضرورة التي قد تلجىء الزوج والزوجة في بعض الأحيان الى حالة ليست بالسوية ولا بالمأثورة مع المشيئة والاختيار.

ومن الحقائق التي يجب الاشارة اليها ولو من طرف خفي عندما نعالج هذا الموضوع، هو أن روح الشريعة الاسلامية تأنف أن يكون الغرض والهدف من تعدد الزوجات تلبية الشهوات الجنسية. لذلك نرى أن علماء وفقهاء المسلمين قد عمدوا الى تفسير قوله تعالى: ﴿فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم﴾[2]. إذ قرروا أن المراد من هذه الآية هو أن يكون الهدف من المباشرة هو طلب ما كتب الله تعالى من

(١) نفس المصدر ص - (٩٢ - ٩٨).

(٢) سورة البقرة آية ١٨٧.

النسل، وليس بهدف الحصول على اللذة الشهوانية.

ومما يروى أن رجلاً قدم على رسول الله ﷺ فقال له: «يا رسول الله فلانة جميلة وهي لم تلد، أفأتزوجها؟ فأجابه ﷺ قائلاً: لا!. ثم عاد يكرر الطلب، فقال له ﷺ لا!. ثم عاد الرجل للمرة الثالثة يقول: «فلانة جميلة وهي لم تلد، أفأتزوجها؟. فقال رسول الله ﷺ: «لا تتزوجوا إلّا الولود الودود، فإني مباه بكم الأمم»[1].

ومن هنا يتبين لنا أن الرسول ﷺ لم يأذن له بالزواج منها كونه ينشد مجرد الاستمتاع باللذة، وأنه ينهد الى الزواج بغير ما تهدف اليه الشريعة.

ومما يروى عن الرسول قوله في الذين يجعلون أهدافهم من الطلاق والزواج طلب اللذة قائلاً: «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات» وقوله: «تزوجوا ولا تطلقوا، فإن الطلاق يهتز له العرش»[2].

وانطلاقاً من هذه الأحاديث والآراء يمكننا أن نقول بأن الشريعة الاسلامية عندما أباحت نظام تعدد الزوجات، جعلته رخصة استثنائية، وقيدته بعدد معين، بعد أن كان مطلقاً، ووضعت له شروط ضيقت من مداه إلى حد بعيد، لذلك عمد الفقهاء الى تبيان حقوق المرأة فأضافوا اليها في حالة التعدد حقها في شرط العدل، فاذا تخلف شرط العدل أو القدرة على تحقيقه، أو اذا تخلف أحد العناصر اللازمة لتقديرهما، كان أحرى بالزواج شرعاً أن يمتنع عن الجمع بين أكثر من زوجة واحدة، وذلك لانتفاء شرط اباحة التعدد.

فالزواج بأكثر من واحدة الى أربعة مقيد - كرخصة استثنائية -

---

(١) الاسلام والمرأة المعاصرة- ص ٨٤.

(٢) الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة - ص ١٣٩.

بقيدين أساسيين هما: نية العدل، والقدرة الفعلية على تحقيقه. فاذا انتفت النية، انتفت شرعية التعدد، واذا انتفت القدرة على تحقيقه - أي تحقيق تعدد العلاقة الزوجية بالعدل بين الزوج من جانب وبين اثنتين أو ثلاثة أو أربعة زوجات من جانب آخر - انتفت شرعية بقاء هذه العلاقة الزوجية واستمرارها.

قال الله تعالى في هذا الصدد: ﴿وآتوا اليتامى أموالهم، ولا تتبدلو الخبيث بالطيب، ولا تأكلوا أموالهم الى أموالكم أنه كان حوباً كبيراً﴾[1] وقوله أيضاً: ﴿وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى، فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾[2] وقوله: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وأن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾[3].

فالعرب كانوا يتحرجون في ولايتهم على اليتامى مخافة الجور عليهم في أموالهم، وكانوا مع هذا التحرج لا يبالون ما يأتون من مظالم مع نسائهم بترك العدل بينهن. فأنزل الله تعالى الآية ﴿وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى﴾[4] يأمرهم فيها أن يتحرجوا من ظلم نسائهم، كما يتحرجون من أكل مال اليتيم. فان الظلم قبيح في كل حال، لا في حالة دون أخرى. وعليهم لاقامة هذا العدل أن يقللوا من عدد الزوجات الى أقل عدد يمكن أمته فيه بينهن، فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت ايمانكم.

ومما قاله الزمخشري في تفسيره: «ان خفتم ترك العدل في حقوق اليتامى فتحرجتم فيها، فخافوا أيضاً ترك العدل بين النساء، فقللوا عدد الزوجات، لأن من تحرج من ذلك أو تاب عنه، وهو مرتكب مثله فهو غير محتاج ولا تائب.

(١) سورة النساء آية ٢.
(٢) سورة النساء آية ١٢٩.
(٣) سورة النساء آية ٣.
(٤) سورة النساء آية ٣.

ويروى الطبري عن ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة واسدي وغيرهم: «ان القوم كانوا يخافون الجور في أموال اليتامى، ولا يخافون الجور في النساء، فقيل لهم: كما خفتم ألا تعدلوا في اليتامى، فكذلك خافوا ألا تعدلوا في النساء، ولا تنكحوا منهن إلّا واحدة الى الأربع، ولا تزيدوا على ذلك! وان ختم ألا تعدلوا أيضاً في الزيادة عن الواحدة، فلا تنكحوا الّا واحدة. لقول الله تعالى: ﴿فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾[1] ومعنى الخوف في الآية الكريمة الظن، أي معناه فان ظننتم ألا تعدلوا.

فالآية الكريمة تأخذ السبيل مقدماً على من يريد أن يتزوج بأكثر من واحدة، ما دام يقع في ظنه احتمال الظلم الذي حرمه الله، وليس معناه أن يقدم على الزواج أولاً ثم ينظر في حاله. فان ظن ألا يعدل، طلق واكتفى بواحدة. . أي أن الزواج بأكثر من واحدة محظور بهذه الآية اذا علم المرء - بل اذا ظن - ان ستغلبه دواعي الظلم. لأن أعمال الله تعالى قائمة على الحكمة والعدل، وشرعه كله خير، فلا شك أن التعدد جاء رعاية لذوي الضرورات والأعذار من الأفراد والأمم.

ومما لا شك فيه أن الغاية من تعدد الزوجات هي ضرورة اجتماعية وهدف شخصي، ولكن الزوجة الواحدة بعرفنا واعتقادنا أنفع وأجدى وأدعى الى تماسك الأسرة، وتنمية روح المحبة بين أفرادها. فمن الأجدى للرجل العاقل أن يكتفي بزوجة واحدة الا عند الضرورات، لأن الزوجة الواحدة تجمع شمل الأسرة اذا كانت هذه الزوجة عاقلة تعرف واجباتها وتقدم الخدمات لزوجها وأسرتها.

أما اذا كان بعض الرجال أثناء الحروب أو الكوارث قد عمدوا الى التزوج بأكثر من واحدة نظراً للظروف، أو اتخذوا خليلات[2] لهم

(١) سورة النساء آية ٣.

(٢) المرأة بين الفقه والقانون - ص(٨٣).

فهذا من الأمور الاستثنائية التي تعتبر وافدة لا يقرها المجتمع ولا قوانينه العرفية وخاصة في هذه العصور الحديثة المتطورة.

ومن المؤكد أن ضرورات تعدد الزوجات قد يلجأ اليها الانسان عندما تكون الزوجة عقيمة لا تنجب له النسل. والانسان بطبعه يحب الأولاد ويحافظ على نسله، باعتبار حب البقاء غريزة في النفس الانسانية، لذلك يعمد الى أحد أمرين: إما أن يطلق زوجته العقيم أو أن يتزوج أخرى عليها ويبقيها في عصمته. وهذا الزواج باعتقادنا أنفع وأجدى من تطليق المرأة حتى لا تصاب المرأة العقيم ببعض العقد النفسية التي تقضي على مستقبلها. وهي في الضرورة عندما يتزوج زوجها بأخرى وينجب منها أطفالاً قد تصبح مساعدة للزوجة الثانية على تربية الأطفال وادارة شؤون البيت، اذا عاشرها زوجها معاشرة يساويها فيها مع الأخرى.

والاسلام كما نلاحظ قد اشترط العدل وبنفس الوقت حذّر الأزواج من أن لا يستطيعوا تحقيق هذا العدل بين الزوجات، لذلك فعليهم الاكتفاء بواحدة.

ومما يلفت النظر في أمر تعدد الزوجات، أن الاسلام قد كفل للمرأة حق القبول فيه أو الرفض ولا يجوز اكراهها عليه، كون الزواج لا يصح اذا بنى على الاكراه لقوله ﷺ: «لا تنكح الأيم حتى تستامر، ولا البكر حتى تستأذن» وفيه «أن الثيب حق بنفسها من وليها البكر تستأمر وأذنها سكوتها».

ومما يروى أن فتاة جاءت لرسول الله قائلة: «إن أبي زوجني من ابن أخيه ليرفع بي خسيسته» فجعل ﷺ الأمر اليها فقالت: «قد أجزت ما صنع أبي ولكن أردت أن أعلم النساء أنه ليس الى الآباء شيء..»[1].

---

(١) حقائق الاسلام وأباطيل خصومه - ص ١٦٩. وكتاب النظم الاسلامية نشأتها وتطورها ص ٤٤٥.

وعلماء الفقه الاسلامي متفقون على أن للمرأة الرشيدة أن تلي جميع العقود بنفسها، وأن توكل فيها من تشاء، ولا يعترض عليها. وأنها أحق من وليها بالأمر في عقود الزواج اذا خالفها ولم يستأمرها. ولا حرج على المرأة في تشريع تعدد الزوجات متى كان الرأي فيه موكولاً الى مشيئتها،تأبى منه ما تأباه، وتقبل منه ما لا ترى فيه غضاضة عليها، أو ترى أنه ضرورة أخف لديها من ضرورات تأباها.

واذا آل القول الأخير في ابرام عقد الزواج للمرأة، فالقوانين الاجتماعية تتحكم في حريتها ومصالحها التي ترضيها لعائلتها وأبنائها.

ولعل وصف المرحوم الشيخ عبد الله العلمي الدمشقي، يصور تصويراً واقعياً، لعذاب المتزوج باثنتين، اذ يقول:

تـزوجت إثنتين لفـرط جهـلي ... وقـد حـاز البلى زوج إثنتين
فقلت أعيش بينهما خـروفـا ... أنعم بـين أكـرم نعجتـين
فجاء الأمر عكس الحال دوما ... عـذابـا دائـما بـبليـتـين
رضا هذي يحرك سخط هذي ... فما أخلو من احدى السخطتين

ويرى الدكتور مصطفى السباعي رئيس قسم الفقه الاسلامي في جامعة دمشق، أنه شخصياً ممن لا يفكر في الزواج إلا بزوجة واحدة. لأنه أعلن في بعض ما كتب حول المرأة وتعدد الزوجات أن أقوى الناس على تحمل المتاعب هو من يتزوج باثنتين، وأسرع الناس الى الهلاك من يتزوج بثلاث، وأقرب الناس الى الجنون من يتزوج أربعا، وليس في اباحة الله لنا ذلك ما يحملنا على التعرض لمتاعب من غير ضرورة ملجئة»[١]

وانطلاقاً من كل هذه الأمور التي أوردناها، نلاحظ أن النقص ليس في تشريع اباحة تعدد الزوجات انما في وسائل التطبيق التي أسيىء

(١) المرأة بين الفقه والقانون ـ ص ١١٦.

استعمالها خارج نطاق الضرورات وخاصة عند أولئك الذين يعتقدون أن الحياة ليست سوى اللذة والشهوة. لذلك راحوا يطلقون ويتزوّجون غير مكترثين لما يحدث من هذا الزواج وذلك الطلاق من فساد في المجتمع الذي يعيشون فيه، والى ما يسببونه من مكاره ومصائب وويلات للزوجات والأولاد، وأقل هذه المصائب وتلك الويلات توليد العقد النفسية والاجتماعية المستعصية عند الأولاد بالاضافة الى ما يعانونه من تشريد وجوع وويلات.

المهر أو الصِدّاق:

اذا كان التشريع الاسلامي قد حدد كل هذه الأمور المتعلقة بالزواج والطلاق وتعدد الزوجات فلم ينسى أن يتعرض في نصوصه إلى المهر أو الصداق باعتباره ركن من أركان صحة العقد في الزواج، ولا يجوز عقد الزواج بدون أن يخصص الزوج مبلغ من المال أو أي بضاعة رائجة للمرأة عند عقد الزواج بينهما، لقوله تعالى: ﴿وآتوا النساء صدقاتهن نِحلةً فإن طِبنَ لكم عن شيء فكلوه هنيئاً مريئاً﴾[1]. (عطية عن طيب نفس). (تنازلن لكم عن شيء منه).

ويفرض المهر على الرجل في جميع الأحوال سواء أكانت المرأة فقيرة أو يتيمة أو مهاجرة لاجئة. فاذا كان الرجل فقيراً فلينتظر حتى يصبح له مال ثم يتزوج عملاً بقوله تعالى: ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾[2].

ويحدد المهر عند مالك بثلاثة دراهم، وعند أبي حنيفة بعشرة دراهم، أما الشافعي والشيعة فلم يجعلوا له مقداراً أدنى معين. وكذلك لم يعين أئمة الفقه كلهم مقداراً أعلى للمهر، بل تركوا لكل رجل أن

(١) سورة النساء آية ٤.
(٢) سورة النور آية ٣٣.

يدفع مهر زوجته حسب استطاعته ووفق مشيئته. أما الشيعة خاصة فيرون ان لا يزيد المهر على خمسمائة درهم، وهو المبلغ الذي أصدق به الإمام علي بن أبي طالب (ع) زوجته فاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ.

وانطلاقاً من هذه التحديدات يكون المهر على ثلاثة درجات:

(أ) المهر المسمّى (أي المهر الذي يتفق عليه الزوجان أو وكيلاهما - قلّ أو كثر).

(ب) مهر المثل - مهر المثل مبلغ لم يسمّ عند عقد الزواج لسبب من الأسباب. في مثل هذه الحال يثبت للمرأة مهر مثيلاتها من الفتيات: كمهر أخواتها مثلاً أو بنات عمها، أو مهر الفتيات اللاتي هن من مستواها الاجتماعي أو العلمي أو المالي، أو اللواتي لهن مثل جمالها أو سوى ذلك، على ما هو متعارف في البلد الذي تعيش فيه. ولا يلتفت في مهر المثل الى مهرام أم الفتاة أو خالتها (وخصوصاً إذا لم تكونا من بلد أبيها)، ذلك لأن أمها كانت في زمن سابق على زمانها. ثم أن أمها قد تكون أرفع منها في المقام الاجتماعي المتفق عليه في الزواج أو أدنى منها (كأن يكون أبوها قد تزوج أميرة ودفع لها مهراً عالياً مع أنه هو ليس بأمير، أو أن تكون هي قد تنازلت له عن مهرها).[1]

(ج) مهر السنة (عند الشيعة): خمسمائة درهم.

أما قيمة المهر الفعلية فهناك من يرفعه الى مبالغ قد يعجز عن دفعها الزوج. وهناك من يفرض مبالغ معتدلة يمكن للزوج أن يتدبر أمر دفعها مما أدى الى زيادة العبء في عمليات الزواج. لذلك من الأوفق والأنفع للمجتمع الإسلامي ونموه أن تراعى هذه النواحي بدقة حسب قدرة الزوج المالية حتى لا يقف المهر حجرة عثرة في طريق زواج

(١) الأسرة في الشرع الاسلامي - الدكتور عمر فروخ - ص ٩٢.

الكثيرين من أبناء هذه الأمة، وقد يعود بأضرار نفسية وخلقية على الزوج والزوجة.

وفي رأينا أن تراعى مشكلة الزوج ومقدرته المالية حتى لا يكون الزواج كارثة مادية واجتماعية على البيت الجديد.

ومن المعروف أن للمهر قسمين يدفع القسم الأول عند توقيع عقد الزواج ويسمّى المهر المعجل، ثم يدفع الباقي وهو المهر المؤجل عند حدوث الفراق إما بالموت وإما بالطلاق. ولكن يجوز حسب الشرع أن يعجّل المهر كله أو يؤجله كله إلى أجل قريب أو بعيد. وكل ذلك يجري حسب عادة أهل البلدة الذي يعقد فيه الزواج. ويجوز للزوج أن يزيد في قيمة المهر المسمى كما يجوز للزوجة البالغة العاقلة أن تحط المهر كله أو بعضه عن زوجها اذا أرادت.

وأوجب الشرع الاسلامي على أن يكون المهر ملك المرأة لها وحدها، إنما أجاز لوكيلها أو للوصي عليها أن يقبضه عنها بتفويض منها. فاذا بلغت القاصرة طالبت الوصي عليها بمهرها كاملاً لأن المهر من حق المرأة وملكها تتصرف فيه كيف شاءت بدون مشورة زوجها ولا أذن أبيها أو جدها (في حالة موت أبيها) أو وصيها اذا كانت راشدة، فيجوز لها بيعه أو رهنه أو اجارته أو هبته بلا عوض لزوجها أو لوالديها أو لغيرهم.

المتعة:

زواج المتعة، أو الزواج الموقت، أو زواج العفه يلجأ إليها عادة أولئك الذين يكونون بعيدين عن أهلهم، أو بالأحرى اذا كان أحدهم عاجزاً عن الزواج زواجاً عادياً نظراً لعجزه المادي عن بناء أسرة أو عن أن يتزوج امرأة تماثله في المقام الاجتماعي. وتعتبر المتعة في التشريع

الجعفري أمراً شخصياً، ليس على طالبه أن يحتج له بعذر، أو أن يقدم عليه مبرراً.

ويتعرض محمد تقي الحكيم أستاذ الفقه المقارن في النجف الاشارة الى الزواج الموقت فيقول: «يحدد الفقهاء الزواج الموقت بأنه: عقد ازدواج بين طرفين معلومين الى أجل معين بمهر معين يذكر في متن العقد، فاذا انتهى الأجل أو وهب الزوج زوجته المدة انحلت العقدة بينهما دون حاجة الى طلاق، وتعتد الزوجة بحيضتين أو خمسة وأربعين يوماً ان كانت لا تحيض وهي في سن من تحيض، أما اذا مات الزوج وهي في أثناء المدة لحقتها عدة الوفاة، ومقدارها أربعة أشهر وعشرة أيام أو وضع الحمل ان كانت حاملاً، وتأخذ بأبعدهما آجلاً.

والولد يلحق بأبيه بعد انتهاء دور الحضانة، ونفقته على الأب في أثنائها، وحكمه حكم سائر أولادهما من حيث الميراث وغيره بلا فرق أصلاً، فهو ولا حقيقي لهما، له ما لبقية الأولاد من أحكام.

وهو - أعني الزواج الموقت - كالزواج الدائم في جميع أحكامه، اللهم إلّا في النفقة والميراث - على قول - والطلاق لأدلة خاصة خصصت بها الأدلة العامة بالنسبة لأحكام الزوجة، وهذه الأحكام وغيرها تجدها مفصلة بأدلتها الخاصة في أمثال: كتاب (جواهر الكلام في شرح شرائع الاسلام) و (مسالك الافهام) للشهيد الثاني و (مفتاح الكرامة) للسيد العاملي وغيرها من الموسوعات الفقهية»[1].

والزواج الموقت كما يرى محمد تقي الحكيم ليس سوى علاقة طبيعية يشعر فيها الطرفان بحكم كونها عقداً من العقود بكرامة الوفاء بالالتزام وكرامة الحرف الذي يقع به العقد، وهو من هذه الناحية كالزواج الدائم مع فارق واحد وهو أن المرأة هنا تملك أن تحدد أمد

---

(١) كتاب - الزواج الموقّت - محمد تقي الحكيم - ص (١٨- ١٩).

العقدة ابتداء ولا تملكها في الزواج الدائم بل تظل تحت رحمة الزوج إن شاء طلقها، وإن شاء مد بها الى نهاية الحياة. فليست هي سلعة تؤجر للمتعة إذن، وإنما هي كالطرف الآخر في المعاملة تعطي من الالتزامات بمقدار ما تأخذ منها وربما تكون هي الرابحة أخيراً لأنها باكتشافها لأخلاق الزوج ومعاملته، وبرؤيتها له في مختلف حالاته ومباذله تستطيع تحديد موقفها منه فيما اذا كانت تقوى على تكوين علائق دائمة معه بتحويل الزواج الموقت الى زواج دائم تأمن معه من الاختلاف نتيجة عدم توافق الطباع أم لا»[1].

وفي مكان آخر يقول «الحكيم»: «ان المسلمين على اختلاف مذاهبهم لا تكاد كلمتهم تختلف في أن هذا النوع من الزواج مما شرع في صدر الإسلام، ونزلت فيه آية من الكتاب العزيز وهي آية: ﴿فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة﴾[2]، وفسروا الاستمتاع فيها بنكاح المتعة، قال القرطبي: «قال الجمهور: المراد نكاح المتعة الذي كان في صدر الاسلام»، وكان ابن عباس وأبيّ وابن جبير يقرأون الآية هكذا: ﴿فما استمتعتم به منهن الى أجل مسمى فآتوهن أجورهن﴾، وأضاف ابن كثير في تفسيره الى هؤلاء السدي.. ومن البعيد أن يؤمن هؤلاء بتحريف القرآن، فلا بد أن يراد بذلك التفسير لا القراءة.. فنزول هذه الآية بالمتعة مما لا ينبغي أن يكون موضعاً لكلام.

وإنما الكلام كل الكلام في أن هذه الآية منسوخة أو غير منسوخة؟.. فالذي عليه جمهور من المسلمين ورواه جابر عن جميع الصحابة أنها غير منسوخة، قال عمران بن حصين: نزلت آية المتعة في كتاب الله ـ تبارك وتعالى ـ وعملنا بها مع رسول الله، فلم تنزل آية تنسخها، ولم ينه عنها النبي ﷺ حتى مات ـ وتتمة هذه الرواية من

---

(١) نفس المصدر ـ ص ٢٤.

(٢) سورة النساء آية ٢٤.

تفسير الرازي ثم قال برأيه ما شاء. . والرواية موجودة بتمامها في صحيح مسلم. . والذي عليه جمهور متأخري المسلمين أنها منسوخة، وقد اختلفوا في الناسخ، فقيل أنه آيات من الكتاب، وقيل أنها روايات من السنة، وقيل أنه الاجماع، وفي الجميع مواقع للتأمل.

أما الآيات فليس فيها ما يصلح أن يكون ناسخاً بوجه من الوجوه، لذلك لم يعطها العلماء شيئاً من الأهمية، وإن ذُكرت في معرض الحديث على ألسنة البعض، وأهمها آية: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت ايمانهم﴾[1] بتقريب ان هذه الآية عمدت إلى أسباب الحليّة فحصرتها بأمرين: الزوجية وملك اليمين.

قال الألوسي في تفسيره: «ليس للشيعة أن يقولوا: ان المتمتع بها مملوكة لبداهة بطلانه، أو زوجة لانتفاء لوازم الزوجية كالميراث والعدة والطلاق والنفقة»، ومع هذا الحصر لا مجال لحلية المتعة. . وهذا الاستدلال غريب في بابه إذ متى كانت اللوازم التي ذكرها لوازم للزوجية لا تنفك عنها بقول مطلق ليتم الاستدلال، أليست الزوجة الناشز زوجة مع أنها لا نفقة لها، والمرأة الكافرة لا ترث زوجها المسلم مع أنها زوجته، والقاتلة لا ترث زوجها المقتول. وهكذا، أما العدة فهي لازمة في النكاحين معاً بإجماع الإمامية، وعلى كل فإن فقدان بعض هذه اللوازم المنفكة لا ينفي الزوجية عنها، غايته أن أدلة نفي النفقة أو التوارث تكون مخصصة للأدلة العامة الدالة على ثبوتها بالنسبة لمطلق الزوجة، كما هو مقتضى أصول الجمع بين الأدلة، على أن نسخ هذه الآية لآية المتعة مستحيل لكون آية المتعة مدنية وهذه مكية، والسابق لا ينسخ اللاحق باجماع الأصوليين، ومن الجواب على هذه الآية تتضح الاجابة على بقية الآيات لتقارب الاستدلال فيها والإجابة عليها.

وأما السنة فقد ذكرت أحاديث كثيرة تنسب التحريم صراحة الى

(١) سورة المعارج اية ٢٩ـ ٣٠.

النبي ﷺ وهي بالاضافة الى معارضتها بأحاديث تثبت استمرار التحريم الى أيام الخليفة الثاني يدخلها التناقض في أكثر من مجال لاختلاف رواتها في كيفية النسخ، وفي موضعه. فمن قائل أنها نسخت في خيبر، وآخر في أوطاس، وثالث في يوم الفتح، ورابع في تبوك، وخامس في عمرة القضاء، وسادس في حجة الوداع، وربما دخل التناقض حتى في رواية الراوي الواحد، فقد نسب لسبرة روايتان، احداهما تثبت نسخها في عام الفتح، وأخرى في حجة الوداع..»[1].

أما الدكتور عمر فروخ فيقول: «أما في الاسلام فإن الرسول نفسه أحلها ثم حرمها في أيام غزوة خيبر في المحرم سنة ٧ (أيار ٦٢٨) ثم عاد فأحلها في فتح مكة سنة ٨ للهجرة. وتوفي الرسول والمتعة مسكوت عنها في رأي بعضهم كإبن عباس مثلاً. ويظهر أن المتعة قد بقيت في أيام أبي بكر وصدراً من أيام عمر. ثم أن عمر نهى عنها مرة واحدة. ويقال أن ابن عباس بلغه النسخ في أواخر حياته (في أيام عبد الله بن الزبير) فقال أيضاً بتحريمها.

وجميع المذاهب الاسلامية تعد المتعة محرمة منذ أيام عمر إلّا الشيعة الإمامية فإنهم يرون أن الآية الرابعة والعشرين من سورة النساء تنص على المتعة وأنها آية محكمة (غير منسوخة). هذه الآية هي: ﴿... وأحِلّ لكم ما وراء ذالكم: أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين، مما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضةً. ولا جناح عليكم في ما تراضيتم به من بعد الفريضة، إن الله كان عليماً حكيماً﴾[2]

الطلاق في الشريعة الإسلامية:

مما لا شك فيه بأن الزواج في الإسلام عقد مؤبد، به يرتبط

---

(١) الزواج الموقّت ـ محمد تقي الحكيم ـ ص (٣٤ـ ٣٨).

(٢) سورة النساء آية ٢٤.

الرجل بزوجة ارتباطاً مقدساً كله حب وحنان ومودة لقول الله تعالى: ﴿إن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾[1]. فلا زواج بغير مودة وعطف وحب وحنان ورحمة، ولا حكمة للزواج إن لم يكن ملاذاً يأوي إليه الزوجان معاً ويكونان أسرة سعيدة يظللها منزل هادىء يتفاهم فيه كافة أعضاء الأسرة الواحدة. وخير الزواج ما استطاع ان يدبر الانسان ملجأ أميناً يأوي اليه كلما ألجأته المتاعب والمشاكل الحياتية اليومية حيث تستقبله زوجته بحنان وعطف ينسيانه متاعب الحياة وهمومها، وأنه ليعيش تحت وطأة الحرمان والعذاب إن لم يجد ذلك المأوى الذي يأوي اليه في الملمات.

وفي نصوص الشريعة الإسلامية ما يؤكد بأنه متى تم عقد الزواج، أصبح هذا الزواج ميثاقاً أبدياً لا انفكاك منه إلّا بالوفاة أو الطلاق، لذا أوجب المشرّع المسلم على طالب الزواج أن يرى خطيبته قبل زواجه منها، ويحاول بقدر ما تسمح له العادات والتقاليد دراسة أخلاقها وسبر أعماق نفسها ليصبح عقد الزواج حقيقة واقعة مبني على أسس متينة من الواقع والحقيقة.

ومما يروى عن البخاري ومسلم، أن المغيرة بن شعبة خطب امرأة، ثم جاء الى رسول الله ﷺ وقال له: «يا رسول الله قررت أن أخطب امرأة من الأنصار» فقال رسول الله: هل رأيتها؟. فقال المغيرة: لا. فقال له رسول الله: «إذهب فانظر إليها، فإنه أحرى أن يؤدم بينكما». وهذا يعني أن تحصل في هذه الزيارة الملائمة والموافقة».

وانطلاقاً من هذه الرواية يتبين لنا بأن رسول الله ﷺ كان يفضل ضرورة الرؤية والمحادثة قبل الاقدام على الزواج، لما في هذه الرؤية من الخير لكلا الطرفين.

---

(١) سورة الروم آية ٢١.

ولم ينسى القرآن الكريم معالجة هذه المشاكل الاجتماعية المتعلقة بالحياة الزوجية فقال سبحانه وتعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن، فعسى أن تكرهوا شيئاً، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾[1]. وهذا يعني أن الله سبحانه قد أوجب حسن المعاشرة بين الزوجين، لأن الحياة الزوجية عادة تمر بمراحل يكتنفها الشقاق والنزاع بين الطرفين مما يجعل الحياة الزوجية في جحيم مستمر، لذلك لا بد لكلا الزوجين من الاعتصام بالحكمة والصبر والتفاهم وضبط الأعصاب حتى تمر العاصفة بسلام ويعود البيت الى سعادته وصفائه. فاذا لم تكن الحكمة أو ضبط النفس لاتنهي الأمر حتماً الى الانفصال والطلاق. وهي خاتمة يبغضها الله، لأن الطلاق يفرق شمل الأسرة الواحدة، ويفصم عراها.

ومما يروى عن رسول الله ﷺ أنه كان يكره الطلاق ويصيبه الغضب عندما يسمع بأن أحد أتباعه قد طلق زوجته، لذلك قال عليه السلام عندما سمع بوقوع حادثة طلاق : ما بال أحدكم يلعب بحدود الله فيقول قد طلقت فهل يجوز لكم اللعب بكتاب الله وأنا بين ظهرانيكم؟».

وروى الدارقطني من حديث ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : من عمل في فرقة بين امرأة وزوجها، كان في غضب الله ولعنة الله في الدنيا والآخرة. وكان حقاً على الله أن يضربه يوم القيامة بصخرة من نار جهنم إلى أن يتوب»[2].

ويقول ﷺ أيضاً: «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات»[3].

ومما يروى عن الإمام علي بن أبي طالب (ع) عن رسول الله ﷺ

---

(١) سورة النساء آية ١٩.

(٢) كتاب الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ـ ص ١٣٩.

(٣) المرأة بين البيت والمجتمع ـ ص ٧٥.

أنه قال: «تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز منه العرش»[1] وقوله ﷺ: «أبغض الحلال الى الله الطلاق» وقوله: «ما خلق الله شيئاً أبغض اليه من الطلاق».

ويلاحظ أن آراء العلماء والفقهاء متفقة على أن الأصل في الطلاق هو الحظر لا الحاجة لما فيه من قطع النكاح الذي تعلقت به المصالح الدينية والدنيوية. ولقد أوضح ابن الهمام سبب الطلاق بقوله: «وأما سببه فالحاجة الى الخلاص عند تباين الأخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم اقامة حدود الله وشرعه».

ومن المؤكد أن الطلاق اذا كان اعتباطياً نتيجة ثورة غضبية بدت من أحد الزوجين بدون سبب هام، ليس يعني الطلاق؛ الخلاص، بل يكون حمقاً وتسرعاً ورفضاً لنعمة السعادة الزوجية التي وهبها الله للانسان العاقل عملاً بقوله سبحانه وتعالى: ﴿فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾[2]، أي لا تطلبوا الانفصال حرصاً على سلامة البيت والأسرة التي سوف يتشتت شملها.

ونحن لا يمكننا أن ننكر بأن التشريع الاسلامي وما تضمنه من نصوص قرآنية أشتملت عليه من حرمة مقدسة للمصلحة الاجتماعية للفرد، فلم يفرض أن يكون الزواج مجرداً من مصلحته النوعية الاجتماعية، بل يجب أن تتوفر فيه جميع الأسس التي تكفل ديمومته وبقاؤه، وبنفس الوقت تيسير العلاقة بين الزوجين مع المحافظة على الآداب الاجتماعية، والابتعاد عن التعصب الذي لا يجدي نفعاً ولا يساعد على المحافظة على قداسة الزواج.

لذا نرى أن الطلاق في الإسلام مكروهاً باعتباره أبغض الحلال

---

(١) الاسلام والمرأة المعاصرة - ص ١٠٠.

(٢) سورة النساء آية ٣٤.

إلى الله. فلا بد اذاً من تجنبه والابتعاد عنه بقدر المستطاع حتى لا يسبب إلى الخراب والدمار وبعثرة صفوف الأسرة.

واذا عدنا الى صفحات التاريخ نلاحظ أن الاسلام لم يكن أول من شرّع الطلاق وحدد معالمه، بل سبقه بعض المشرعين اليهود وعرفه العالم قديماً، بأشكال وأنواع متعددة تنسجم مع البيئة والمجتمع آنذاك. ذلك ما أشار اليه الشاعر الفرنسي «فولتير» حيث قال: «إن الطلاق قد وجد في العالم مع الزواج في زمن واحد تقريباً، غير إني أظن الزواج أقدم ببضعة أسابيع». بمعنى أن الرجل ناقش زوجته بعد أسبوعين من زواجه، ثم ضربها بعد ثلاثة أسابيع، ثم فارقها بعد ستة أسابيع.

واذا كان الاسلام قد حدد تشريعياً مفاهيم الطلاق وفق قانون يكفل لكلا الزوجين حقهما وكرامتهما، ولم يجعل من مبدأ الطلاق أداة للتصرف الكيفي بقدسية الزواج وعدم استقرار الحياة الزوجية، إنما أوجب أن يكون عقد الزواج دائمًا، وأن يستمر تنفيذ هذا العقد بين الطرفين، حتى يفرق الموت بينهما. غير أنه لم يغفل أو ينسى طبائع الناس، وتجاربهم وما يمكن أن ينشأ بين الزوجين من تنازع أو اختلاف المصالح في بقاء الزواج وانحلاله. فأوجب محاولة المصالحة بين الطرفين في حالة وجود الخلاف والتنازع فقال سبحانه وتعالى: ﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾[1].

ومما يروى عن النبي ﷺ قوله في هذا المعنى: «لا يترك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً ورضى منها آخر».

ومن هنا يتبين لنا بأن الاسلام قد جعل للخلاف العائلي بين الزوجين وسائل كثيرة لمعالجته إذ دعا الزوجين لالتماس الشعور بمسؤولية كل منهما نحو الآخر ونحو أولادهما أمام الله كونه المضطلع على

(١) سورة النساء آية ١٩.

نواياهما وسلوكهما، وجعل كل منهما راعياً ومسؤولاً لذلك قال الرسول ﷺ[1]: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» ثم قال: «والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها. وعندما يبدأ التنازع بين الزوجين أوصاهما الله سبحانه وتعالى بأن يصبر كل منهما على الآخر، وخاصة على ما يكرهه منه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن الى آخر الآية الكريمة﴾[2].

وإذا لم يستطع أحدهما احتمال تصرفات الآخر والصبر عليها، وازداد النزاع بينهما وأصبحا يهدد مصيرهما، فقد أوجب الاسلام في هذه الحالة أن يحكّم الأهل في هذا الخلاف وينظروا في أسبابه وعوامله محاولين إعادة المياه الى مجاريها، عملاً بقوله تعالى: ﴿فان خفتم شقاق بينهما، فابعثوا حكما من أهله، وحكمًا من أهلها، أن يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما﴾[3].

وإذا لم ينفع التحكيم وأصرّ كل من الطرفين على موقفه، أجاز الاسلام أن يقع الطلاق بين الزوجين لمرة واحدة تقعد فيها الزوجة في بيت الزوجية مدة تقارب ثلاثة أشهر. وخلال العدة تعيش الزوجة في بيت الزوجية، إلّا أن زوجها لا يعاشرها معاشرة الأزواج.

أما الحكمة من جعل العدة بهذا الشكل، هو ترك الفرصة الكافية لاعادة الصفاء بين الزوجين، ورؤية نتيجة الانفصال وآثاره السيئة على حياتها وحياة أولادهما، فلعلهما يعودان. وهذه الطلقة تعتبر طلقة رجعية ما دامت المرأة في العدة، ويستطيع الزوج ارجاعها بمجرد قوله «راجعتك» فتحل له رأساً من غير مهر ولا عقد ولا شهود. أما اذا

(١) صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن اسماعيل ابن المغيرة بن يردزيه البخاري الجعفي.
(٢) سورة النساء آية (١٩).
(٣) سورة النساء آية ٣٥.

انتهت العدة ولم يرجع الزوج زوجته، أصبحت الطلقة بائنة. أي أن الزوج لا يستطيع أن يعود إليها إلّا بمهر وعقد جديدين.

واذا عادا للحياة الزوجية ثم تكرر الخلاف، واشتد ثانية، لجأ للتحكيم العائلي، فإذا لم ينجح هذا التحكيم في اعادة المياه الى مجاريها بين الزوجين، على الزوج أن يطلقها ثانية، ولهذه الطلقة ذات الأحكام التي كانت للطلقة الأولى. فإذا عاد الزوج الى زوجته بعد الطلقة الثانية، وعاد الخلاف بينهما، واذا اتخذا الخطوات السابقة قبل ايقاع الطلاق والتي تعني التحكيم العائلي، فاذا فشلت كافة المساعي في الاصلاح بينهما، جاز للزوج أن يطلق زوجته الطلقة الثالثة والأخيرة، فتصبح بائنة منه بينونة كبرى[1]. أي أنه لا يستطيع إعادتها إليه إلّا بعد أن تتزوج برجل آخر بعد انقضاء عدتها من زوجها الأول. واذا حصل خلاف بينها وبين زوجها الثاني وطلقها فيجوز عندها أن تعود الى زوجها الأول بعقد جديد وشروط جديدة.

وانطلاقاً من هذه التشاريع التي تحدد المعاني الشرعية للطلاق في الإسلام يتوضح لنا بأن التشريع الاسلامي قد جاء بأنظمة وقوانين لو سار الناس عليها، وتقيدوا بأحكامها لقلَت وندَرُت حوادث الطلاق، واستقرت الحياة الزوجية استقراراً أبدياً. ولكن ومع الأسف الشديد هناك البعض ممن يحاولون الاحتيال على الشريعة السمحاء واستخدامها من أجل تحقيق غاياتهم الخبيثة الدنيئة.

وإذا ما كان الخلاف قد انطلق من قبل الزوجة فالشرع يعتبر هذه الانطلاقة نشازاً، وكذلك بالنسبة للزوج. أما اذا كان النزاع سببه الطرفين فيعتبر بالنسبة للشرع الإسلامي، شقاقاً.

ويبدو أن المشرّع الإسلامي لم يغفل أي ناحية من هذه الحالات،

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون ص ١٢٢- وحقوق المرأة - ص ٤٠٣.

فرسم معالمها بأساليب حكيمة فإذا نشزت الزوجة على سبيل المثال وأصبحت صعبة القيادة على زوجها، وتنكرت لما يتمتع به من حقوق، فقد فرض الله سبحانه وتعالى لعلاج هذه الحالة أن يبادر الزوج بالرفق واللين الى وعظ زوجته مبيناً لها ما في سلوكها من خطأ يغضب الله، فإذا فشل الزوج في إقناع زوجته فليس عليه إلّا هجرها في المضجع فلا يقربها، فقد يكون هذا الهجر علاجاً رادعاً يثني المرأة عن غيها، واذا لم ينفع ذلك معها فليضربها ضرباً رقيقاً غير مبرّح، فإن أطاعته فلا هجر ولا ضرب، ولكنه إجمال وإحسان لقول الله تعالى: ﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن، واهجروهن في المضاجع، واضربوهن، فإن أطعنكم، فلا تبغوا عليهن سبيلا، إن الله كان علياً كبيراً﴾[1] لكن المرأة اذا استمرت على نشوزها وبغضها الإقامة معه، وتبينت أن ليس في استطاعتها أن تؤدي له حقه، فقد أباح لها الإسلام أن تطلب الفراق، وعليها أن تحمل عاقبة ما اختارت لنفسها. ومن العدل في مثل هذه الحالة أن ترد إليه ما أخذته منه، وليس على الرجل من بأس أن يسترد ما دفع، وهذه الحالة تسمى في الفقه الإسلامي «الخلع» وقد ورد في القرآن الكريم ما يشير إلى هذه الناحية كقوله تعالى: ﴿ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلّا أن يخافاألّا يقيما حدود الله. فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾[2].

ويذكر التاريخ أن أول عملية «خلع» جرت في الإسلام كانت لجميلة بنت سلول التي كانت متزوجة من ثابت بن قيس. وتعود أسباب الخلع الى أن جميلة رأت زوجها يوماً مقبلاً في عدة رجال، فلاحظت أنه أشدهم سواداً، وأقصرهم قامة، وأقبحهم وجهاً! فوقع في قلبها النفور منه. فأتت رسول الله ﷺ فقالت: «والله ما أعيب على ثابت في دين ولا خلق، ولكن أكره الكفر في الإسلام، لا أطيقه بغضاً. فقال لها النبي

(١) سورة النساء آية ٣٤ (٢) سورة البقرة آية ٢٢٩.

ﷺ: «أتريدين من عليه حديقته؟» (وكانت تلك الحديقة هي مهرها الذي أخذته منه) قالت: نعم. . فأمر رسول الله ﷺ زوجها أن يأخذ منها حديقته، ولا يزداد»[1].

واعتماداً على ما ورد في هذا الحديث الذي رواه ابن عباس يمكننا أن نقول اذا كرهت المرأة زوجها لخلقه، أو لدينه، أو كبره، أو ضعفه، أو سلوكه، أو قبحه، وخافت أن لا تؤ دي حق الله في طاعته، جاز لها أن تخالعه بعوض تفتدي به نفسها، استناداً على قوله سبحانه وتعالى: ﴿فإن خفتم ألا يقيما حدود الله، فلا جناح عليهما فيما افتدت به﴾[2].

وإذا كان النشوز من جانب الزوج، فلتستجمع المرأة كل حيلها وذكائها، ولتدرس أسباب نفوره في تلطف وكياسة، ولتعالج كل سبب بما يصلحه. ولا بأس من أن تقبل ما يكلفها ذلك من ألم نفساني أو جهد مالي عن طيبة خاطر. وقلما تخطىء المرأة الذكية في إصابة التوفيق والنجاح لارضاء زوجها واعادته الى حظيرتها.

ومما يروى في هذا المجال أن سودة بنت زمعة، زوجة رسول الله ﷺ شعرت بإعراضه عنها، واتجاهه الى طلاقها فلم تسأله عن أسباب هذا الأعراض كونها قد اكتشفت أن الرسول لا يجد عليها في دينها ولا خلقها، ولا معاملتها شيئاً يكرهه، ولكن لا ينشط إليها كما ينشط لسائر نسائه نظراً لكبر سنها وما صارت اليه من شيخوخة، لذلك يريد أن يسرّحها حتى لا يلقى الله وقد ظلمها حقها من دون نسائه فلما تأكد لها ما ينوي عليه الرسول سعت إلى لقائه وانتهت إليه أنها قد كبرت، ولم يعد إليها بالرجال من حاجة، وأنها تجعل حظها وليلتها منه لعائشة حبيبته ولا أرب لها إلا أن تبعث يوم القيامة في جملة نسائه. فقبل رسول

---

(١) من كتاب البخاري - والاسلام والمرأة المعاصرة ص ١٠٧ - نقلا عن ابن ماجه والنسائي.

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٩.

ﷺ منها ذلك[1] وأثنى الله على صنيعها وأنزل فيها قوله تعالى: ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير، وأحضرت الأنفس الشح، وأن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾[2].

وانطلاقاً من هذه الأحاديث والروايات التي أوردناها حول النشوز وضرورة التحكيم قبل الطلاق والإنفصال، نلاحظ أن التشريع الإسلامي يقرر اذا نشزت الزوجة أو الزوج واذا وقع النزاع بينهما وتأكد لأهلهما وأصحابهما أن لا فائدة من استمرار العشرة لا بد وأن يقع الطلاق بينهما، لأنه الحل الوحيد لأمثال هذه المشاكل البيتية.

والطلاق بمفهوم الشرع الإسلامي قد جعلت له أوقاتاً يقع فيها كما جعلت له حرمة في أوقات أخرى، وذلك عندما تكون المرأة حائضاً وحرمة في الوقت الذي تكون في طهر جامعها فيه[3]. وذلك استناداً إلى قوله تعالى: ﴿يا أيها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾[4]. وحال المرأة في الغالب يدور بين حيض وطهر، فهي إما حائض، وإما طاهر. فإذا طلقها وهي حائض فطلاقه حرام، وإذا طلقها في طهر وطئها فيه، فطلاقه حرام أيضاً. وذلك استناداً لقوله تعالى: ﴿يا أيها النبي اذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن﴾ والعدة تعني الطهر الذي لم تجامع فيه. أي فاوقعوا الطلاق في الطهر الذي لم تجامع فيه.

ويروى أن رسول الله ﷺ قد فسر ذلك في واقعة جرت لعبد الله بن عمر مع زوجته، حيث طلقها وهي حائض، فذكر عمر ذلك للرسول ﷺ فتغيظ وقال: «ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر وتحيض

---

(١) نساء محمد، والاسلام والمرأة المعاصرة ـ ص ١٠٩.

(٢) سورة النساء آية ١٢٨.

(٣) المرأة بين البيت والمجتمع ـ ص ٧٩ ـ وحقوق المرأة ـ ص ٤٠٠.

(٤) سورة الطلاق آية ١.

فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها طاهراً قبل أن يمسها، فتلك هي العدة التي أمر بها الله عز وجل في قوله: ﴿فطلقوهن لعدتهن﴾»[1].

ويبدو أن الفقهاء قد أخذوا أحكام الطلاق وقسموه الى نوعين: طلاق سنة وطلاق بدعة. فطلاق السنة هو أن يطلقها طاهر من غير جماع أو حاملاً وقد استبان حملها. وطلاق البدعة هو أن يطلقها في حال الحيض، أو في طهر قد جامعها فيه، لا يدري أحملت أم لا؟.

ومما يلفت النظر أن كثير من الناس يجهل طلاق السنة الذي شرعه الاسلام، وطلاق البدعة الذي حرمه، فيطلق الرجل امرأته غير مكترث لسنة أو بدعة، ولا ملتفت الى حلال أو حرام، لأنه لا يعرف متى يحلّ له أن يطلق امرأته، ولا متى يحرم عليه ذلك؟. فليتق المسلمون ربهم في دينهم وفي أولادهم. فإن الله تعالى قد حذرهم في آية الطلاق نفسها أن لا يجاوزوا تلك الحدود إذ قال: ﴿وتلك حدود الله، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه، لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾[2].

وفي نهاية المطاف لا بد لنا من القول بأن الإسلام في أصل نظامه الذي وضعه للطلاق قد راع فيه ضرورات الحياة، وواقع أبناء الإنسانية في كل زمان ومكان ولم يغفل حق المرأة، فانصفها من فوضى الطلاق التي كان سائداً عند العرب في الجاهلية، حيث لا عدد ولا عدة ولا حقوق ولا التزامات. فاذا عجزت جميع الوسائل والمحاولات في أبعاد الطلاق والفرقة بين الزوجين، وبطلت مساعي الصلح بين الأهل والأقارب وكان لا بد من الطلاق، فالطلاق يكون لصالح المرأة يخلّصها من الدوامة التي تعيش فيها مع رجل يكرهها ويجفوها ويتمنى لها الموت لتبتعد عنه، فلا بد من الطلاق لصالح الزوج أو الزوجة والمجتمع. فاذا تم الفراق أو الانفصال تكفلت الشريعة للزوجة المطلقة بكل ما يلزم

---

(١) الاسلام والمرأة المعاصرة ص ١١٣. (٢) سورة الطلاق آية ١.

الرجل من حقوقها ومصالحها ومن حقوق أبنائها وأبنائه، لأن الشريعة السمحاء لا تعير حنان الأب وحده لرعاية أبنائه أي اعتبار كونها مسؤولة عن حق الأم حيال هذه الناحية. فهي الوحيدة التي ترعى أطفالها وتشملهم برعايتها وحنانها.

مسلمات خالدات في التاريخ:

بعد كل الأمور التي تحدثنا عنها في هذا الكتاب والتي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمرأة بصورة عامة، والمرأة المسلمة بصورة خاصة عبر التاريخ. نرى لزاماً علينا أن نتعرض إلى بعض النساء المسلمات اللواتي خلدهن التاريخ وأصبحن مثالاً للمرأة المسلمة تقتدي فيه في سلوكها وانطلاقاتها الاجتماعية والثقافية والأدبية والعلمية، وخاصة ما يتعلق بهؤلاء النسوة من الشجاعة والإقدام ورباطة الجأش، والزهد والتقشف، والكرم والضيافة، وحسن المعاشرة. ولنبدأ بسيدة نساء العالمين، وأم المؤمنين العارفين فاطمة الزهراء.

فاطمة الزهراء:

إذا اعتبرنا النساء الشهيرات في التاريخ اللواتي قدّمن أجل الخدمات للمجتمعات البشرية. لا بد لنا أن نعرّج على سيدة نساء العالمين وأم المؤمنين العارفين الزاهدين المتقشفين الذين وهبوا حياتهم لما فيه خير الإنسانية جمعاء فاطمة الزهراء بنت محمد رسول الله ﷺ التي ولدت قبل البعثة المحمدية ببضع سنين. ونشأت بين أكناف الفضل وأحضان الكمال ومرابع الزهد والتقشف والتعبد، يرعاها أب بعثه الله سبحانه وتعالى ليتمم مكارم الأخلاق، ويخرج بالناس من الظلمات إلى النور. وأم جمعت إلى حسبها ومالها فضلاً وأدباً.

ظلت فاطمة الزهراء في مكة بعد هجرة أبيها، ثم لحقته الى المدينة

بعد استقراره فيها وكانت قد شبت عن الطوق واكتمل نضجها وازداد جمالها وفتنتها، وجمعت إلى فضائلها المتوارثة جمالاً ورقة. فتحولت إلّيها انظار كبار المسلمين كلهم يريد ربط نسبه بنسب محمد ﷺ ولكن أباها فضّل أن يزوجها الى ابن عمه علياً (ع) فزوجها إياه، وجمع بهذا الزواخ بين أحب شخصين إلى قلبه في بيت واحد، يظلله الحب ويشرف عليه رسول اللهببره ورعايته وحنانه.

وعاشت فاطمة في بيت علي تقوم بنصيبها لتوفير الاستقرار والسعادة لهذا البيت الكريم الذي عرف بالشجاعة والإقدام والزهد والتقشف. وكانت تساعد زوجها مساعدة الزوج الصادق، فتحمل عنه بعض العبء فأحبها وأحبته فأخلص لها وأخلصت له، فوهبها الله من هذه الزيجة المباركة الحسن والحسين وفاطمة الصغيرة وآمنة التي عرفت باسم سكينة فيما بعد.

وبالرغم من حب النبي لفاطمة ابنته لم يسمح لها أن تتزين بحلية متواضعة من الفضة تساوي قيمتها دراهم قليلة، وغضب عليها وأمرها أن تخلعها وتبيعها وتتصدق على الفقراء بثمنها، ففعلت وأطاعت.

ويذكر التاريخ أن حب النبي لابنته كان أمراً شائعاً معروفاً، بل أن أقرب الناس إليه وهنّ زوجاته رجونها أن تكون واستطتهن إليه وشفيعتهن عنده.

وكانت الزهراء البتول عابدة قانتة بل متصوّفة، تخشى الله حق خشيته وترهبه أيما رهبة. وكانت صوّامة النهار، قوامة الليل، توفي بالعهد وترعى الذمة.

ويذكر عنها عليها السلام، أن ولدها الحسين أصيب برمد في عينيه، فنذرت لربها أن تصوم ثلاثة أيام إن منحه الله نعمة الشفاء، وشفي الحسين. ورفعت فاطمة نذرها لربها وبدأت صوم أول يوم، وأعدت

لافطارها رغيفاً من الشعير وطرق بابها مسكين فآثرته بالرغيف على نفسها وأفطرت على الماء. وصامت الزهراء اليوم الثاني وأعدّت نفس ما أعدته بالأمس، فطرق بابها يتيم سائل فأعطته ما عندها. وطرق في اليوم الثالث أسير حرب، فأعطته طعامها راضية سعيدة عاملة على إرضاء الله وحده، غير منتظرة من الناس جزاء ولا شكورا. وجازاها الله بصبرها وايثارها على نفسها من هم أكثر منها حاجة، فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمًا وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاءً ولا شكورا.. إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا. فوقاهم الله شر ذلك اليوم. ولقّاهم نضرةً وسرورا، وجزاهم بما صبروا جنةً وحريرا»[1].

ومما يروى عندما مرض النبي مرض الموت، أحب أن يكون في بيت عائشة. أتت الزهراء وقد أخذته غاشية الموت، فلما استفاق نظر الى وجهها وابتسم، وأشار لها أن تدنو منه ففعلت، فأسرّ إليها ببضع كلمات بكت على أثرها، ثم سألها ثانية أن تدنو منه فدنت، فعاد فأسر اليها ببضع كلمات تهلّل على أثرها وجهها بالضحك وعلاه البشر. فحاولت عائشة أن تعرف سر بكاء فاطمة ثم ضحكها بعد ذلك ولكن دون جدوى، اذ أبت الزهراء أن تفشي سراً لأبيها.

وأخذته صلى الله عليه وآله وسلم غاشية أخرى وراح يعالج سكرات الموت، فصاحت الزاهراء في جزع قائلة: ـ واكرباه لك يا أبت!. ونظر محمد إلى ابنته الجازعة إلى وحيدته الباكية المعولة وقال لها في هدوء: «لا كرب على أبيك بعد اليوم يا فاطمة. وسكت وسكتت حتى أخذ الله رسوله ﷺ إلى جواره فكان صوتها أول صوت ارتفع يبكيه وسمعته المدينة ومن فيها، فهرعوا الى بيت النبي يتعرفون الخبر، وكأنما نزلت على المسلمين صّاعقة وهم يسمعون فاطمة تقول: أبتاه! أبتاه! يا

(١) سورة الانسان آية ٨ـ٩ـ١٠ـ١١ـ١٢.

أبتاه!! إلى جبريل تنعاه يا أبتاه!! أجاب رباً دعاه يا أبتاه! في جنة الفردوس مأواه!!. وظل صوتها يعلو ويخفت في إيقاع من الشجن حتى شاع أمر الفجيعة وتسامع المسلمون بالخطب، وعرفوا أن محمداً قد جرى عليه القلم، وأنه لقي الموت كغيره من عباد الله. وراحت فاطمة تكشف سرّ الكلمات التي أضحكتها ثم أبكتها من رسول الله، وأبت أن تبوح به في حينه، فقال: «بكيت عندما أسرّ لي أنه سيموت في مرضه هذا، وضحكت عندما أخبرني أني أول أهل البيت لحوقاً به».

وقصة فاطمة الزهراء مع أبا بكر رضي الله عنه مشهورة معروفة رواها التاريخ حيث بعد تخلف الإمام علي بن أبي طالب (ع) والزبير بن العوام عن مبايعته، الأمر الذي أغضب عمر بن الخطاب، فذهب إلى بيت علي وقد أقسم أن يحرقه بمن فيه. فخرج الزبير بن العوام وبيده سيفه ينتظر مقدْم عمر ليقتله إن هو فعل. وأما فاطمة الزهراء فقد عزّ عليها الأمر فسارعت تخاطب أبا بكر وتذكره بالعهود ثم أقسمت أن لا تكلم عمراً ما بقيت على قيد الحياة.

وقد حدث بينها وبين أبي بكر بعد هذا حادثاً آخر تطالبه بميراثها من أبيها فقالت له أن أباها وهبه لها، فلم يستمع أبو بكر إليها ولا إلى شهادة الشهود. فقال لها: «إن النبي ﷺ قد قال: نحن الأنبياء لا نورث وما تركناه صدقة» فسألته: ومن يرثك أنت اذا مت؟! قال: ولدي. فقالت: فما بالك ورثت رسول الله ﷺ دوننا؟! قال: والله يا بنت رسول الله، ما ورثت أباك ذهباً ولا فضة!! فقالت: سهمنا بخيبر، وصدقناك فدك.. فأجاب: يا بنت رسول الله!! سمعت أباك يقول: «إنما هي طعمة أطعمنيها الله حياتي، فاذا مت فهي بين المسلمين». ولم ترض فاطمة حكم أبي بكر وهجرته غاضبة فلم تكلمه حتى ماتت بعد ستة أشهر من موت أبيها ﷺ.

زينب بنت علي (ع):

لعبت المرأة المسلمة دوراً فعالاً على مسرح الحياة السياسية في الإسلام، لما أصاب العالم الاسلامي بعد وفاة الرسول من فتن وقلاقل وحروب واقتتال، فقد شاركت المرأة المسلمة في كـل هذه الأحـداث فأعطت صورة واضحة لما كانت تتمتع به من شجاعة واقدام.

وعندما نتصفح تاريخ تلك الفترة نرى أن السيدة الجليلة زينب بنت علي ابنة أبي طالب (ع) اقترن إسمها الكبير بالعديد من المواقف وخاصة موقفها بمأساة فاجعة كربلاء. وهي مأساة أجمع المؤرخون على أنها كانت إحدى المعارك الحاسمة في تاريخ الأمة الاسلامية بل كانت أخطر تلك المعارك وأشدها عنفاً حيث سفكت الدماء فصبغت تربـة كربلاء بصبغة حمراء قانية لا تزال لطخة عار وشنار في جبين الانسانية.

كانت ولادة زينب قبل وفاة جدها محمد رسول الله صلى الله عليه وآله بخمس سنين، أي في العام السادس للهجرة، وهو العام الذي شهد استقرار الأمر لصاحب الدعوة، وخروجه على ناقته القصواء ـ التي جاءت به من مكة أيام الاضطهاد مع صاحب واحد ـ في ألف وخمسمائة من صحابته المهاجرين والأنصار، في ملابس الأحرام البيضاء، يريدون مكة ـ معقل أعداء محمد والاسلام ـ ثم يعودون ظافرين بصلح الحديبة مع أبي سفيان والمشركين من قريش[1]. أمها فاطمة الزهراء بنت رسول الله وأبوها الإمام علي بن أبي طالب.

ومما يروى أن النبي عندما وضعت ابنته فاطمة انثى باركها النبي واختار لها اسم زينب إحياءً لذكرى ابنته الراحلة زينب التي كانت قد توفيت قبل ولادة الطفلة بقليل فحزن الرسول لفقدها حزناً ثقيلاً كونها كانت كبرى بناته ومتزوجة من ابن خالتها (أبا العاص بن الربيع بن

(١) بطلة كربلاء- الدكتورة بنت الشاطىء ـ ص٢٧.

عبد العزى بن عبد شمس) قبل النبوة، فلما كان المبعث أسلمت هي ولم يسلم، على أنه ظل رفيقاً بها محباً لها وأبى أن يستجيب لطلب قريش أن يطلقها كما فعل إبنا أبي لهب زوجا أختيها رقية وأم كلثوم حتى كانت غزوة بدر وأسر أبو العاص فيمن أسر من مقاتلة قريش، فأرسلت «زينب» - وهي لا تزال بمكة - تفتديه، وبعثت قلادة كانت أمها «خديجة» بنت خويلد قد أهدتها إياها يوم زواجها بأبي العاص. فلما رأى الرسول ﷺ القلادة رق قلبه لها وقال لصحبه المسلمين: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها فافعلوا. قالوا:- نعم يا رسول الله. وأطلق النبي أسيره، على أن يرسل «زينب» إلى المدينة، فما عاد لها مكان في بيت «أبي العاص» وقد فرق إسلامها بينها وبينه[1].

ومما يروى أن زينب ما لبثت ان ماتت متأثرة بحادث وقع لها حين هاجرت من مكة إلى المدينة بعد غزوة بدر ذلك أن أحد المشركين لقيها وهي في الطريق إلى المدينة فنخسها في بطنها وكانت حاملاً فأسقط حملها فماتت، وظل أبوها رسول الله حزيناً عليها حتى اذا ما ولدت أختها الزهراء أنثاها الأولى ، سماها زينب.

وشبّت زينب محاطة برعاية خاصة من جدها رسول الله ومن أبيها الامام علي بن أبي طالب ومن أمها الزهراء حيث ربيّت تربية عالية رفيعة ولكنها سرعان ما فجعت بوفاة جدها رسول الله ولم تكن قد تجاوزت الخامسة من عمرها فآلمها المصاب وشملها الحزن وهي ترى أمها الزهراء باكية حزينة لم تظهر الابتسامة على ثغرها حتى لحقت بأبيها قيل بعد ستة أشهر وقيل بعد ثلاثة أشهر وقيل بل أقل من ذلك.

ولما بلغت زينب مبلغ الزواج اختار لها والدها ابن عمها عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب ذو الجناحين وأبو المساكين، شقيق الإمام علي

---

(١) بطلة كربلاء - الدكتورة بنت الشاطىء - ص ١٧ .

وحبيب النبي الذي قال فيه أبو هريرة: ما ركب أحد المطايا ولا احتذى النعال أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من جعفر بن أبي طالب. وأثمر هذا الزواج فولدت زينب لعبد الله بن جعفر أربعة بنين: علياً، ومحمداً، وعوناً الأكبر، وعباساً، كما ولدت له فتاتين، إحداهما أم كلثوم التي أراد معاوية بدهائه أن يزوجها من إبنه يزيد كسباً للمعسكر الهاشمي، ولكن عبد الله أمر فتاته لخالها الإمام الحسين الذي آثر بها ابن عمها القاسم ابن محمد بن جعفر ابن أبي طالب.

ومما يلفت النظر أن زواج زينب لم يبعدها عن أبيها وإخوتها حيث بلغ من تعلق الإمام علي بابنته وابن أخيه أن أبقاهما معه، حتى اذا وليّ أمر المسلمين وانتقل الى الكوفة، انتقلا معه، فعاشا في مقر الخلافة، موضع رعاية أمير المؤمنين واعزازه، ووقف عبد الله بجانب عمه في نضاله الحربي، فكان أميراً بين أمراء جيشه في صفين.

ويقول محمد جواد مغنية وهو يصف زينب الحوراء قائلاً[1]: «وقد انعكست صفات الزهراء في نفس ابنتها زينب، وظهرت جلية واضحة في زهدها وعبادتها وصبرها وجرأتها، قال الرواة أن زينب بنت أمير المؤمنين لم تدخر شيئاً من يومها لغدها، وأنها كانت تقضي عامة لياليها بالتهجد وتلاوة القرآن، حتى ليلة العاشر من المحرم، وهي الليلة التي قتل الحسين في صبيحتها، وليلة الحادي عشر، حيث كان أخوها الحسين وأولاده وأصحابه صرعى مجزرين كالأضاحي، حتى في هذه الحال لم تدع صلاة الليل والتعبد والتهجد». أما صبرها وشجاعتها فهما مضرب المثل وقدوة حسنة لكل امرأة زاهدة قانطة طاهرة الذيل.

وتحدثنا الدكتورة بنت الشاطىء عن السيدة زينب وأخلاقها وطبائعها وشمائلها فتقول: «وكيف يصبر الإمام عن جوهرته الكريمة، وقد رأى فيها مثاله وطبائعه وجميع شمائله؟.. فلقد روى الرواة أنها

(١) الحسين وبطلة كربلاء ـ ص ١٧٣.

كانت تنطق بلسان أبيها اذا تكلمت. ونقل الشيخ النقدي عن النيسابوري «أنها كانت فصاحتها وبلاغتها، وزهدها وعبادتها كأبيها المرتضى وأمها الزهراء».

أما مصائبها وأحزانها فيحدثنا عنها محمد جواد مغنية فيقول: «شاهدت زينب وفاة جدها الرسول، وما تركه من آثار، وشاهدت محنة الزهراء، وندبها لأبيها في بيت الأحزان، ودخول من دخل الى خدرها، وانتهاك حرمتها، واغتصاب حقها، ومنع إرثها، وكسر جنبها، واسقاط جنينها، وسمعتها، وهي تنادي فلا تجاب، وتستغيب فلا تغاث.. وكلنا يعلم علاقة البنت بالأم، وتطلعها إليها، وتأثرها بها تلقائياً وبدون شعور.

وشاهدت أخاها الحسن أصفر اللون يجود بنفسه، ويلفظ كبده قطعاً من أثر السم، ورأت عائشة تمنع من دفنه مع جده، وتركب بغلة وتصيح، والله لا يدفن الحسن هنا أبداً»[1].

أما ما شاهدته في كربلاء، وحين مسراها الى الكوفة والشام مع العليل والنساء والأطفال فيفوق الوصف حيث تبدأ منذ بعث أهل العراق الى الإمام الحسين الرسل والكتب يدعونه إليهم، فخرج من مكة الى العراق في عشر ذي الحجة ومعه طائفة من آل بيته رجالاً ونساءً وصبياناً، فكتب يزيد الى واليه بالعراق عبيد الله بن زياد بقتاله، فوجه إليه جيشاً أربعة آلاف عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، وليت الحسين أطاع عقلاء الحجاز فظل حيث هو ولم يخرج في أهليه مصدقاً وعود الذين أقسموا أنهم معه وأنهم يستخلصون له الخلافة من يزيد.. لقد خذله أهل الكوفة كما خذلوا أباه الإمام علي من قبله.

ولما وصل الموكب الى المكان الذي يدعى «بكربلاء» خيم فيه

(١) الحسين وبطلة كربلاء- محمد جواد مغنية- ص (١٨٩- ١٩٠).

ليأخذ قسطاً من الراحة ريثما تصله الأخبار من الكوفة، فجلس الإمام الحسين أمام فسطاطه يتأمل ويفكر وما هي إلّا لحظات حتى سمعت زينب من مكانها الصيحات ترتفع والبنود تتقدم نحو المكان الذي يخيمون فيه، فأسرعت الى أخيها الحسين لتنبهه الى خطورة الموقف ولتقول له: أما تسمع أن الأصوات تقترب فانصت، فقال لها الحسين: إني رأيت جدي رسول الله ﷺ في الرؤ يا وهو يدعوني إليه، فصرخت زينب في جزع وأسى ولطمت وجهها بيدها وقالت: «يا ويلتاه!!». وفي ثبات المؤمن المستسلم الى قضاء الله وقدره أجابها الحسين:ـ ليس لك الويل يا أخيّة.. أسكتي رحمك الرحمن.. أرحم الراحمين، وليس عليك ويلّ يا زينب.

ولم يكن من السهل الهين على زينب وقد قال لها أخوها ما قال أن تسكت وأن يتبدد فزعها ومخاوفها، فعادت تولول وقد راحت تتخيل نهايته.. بل قتله في أرض غريبة بين قوم باعوه. ـ واثكلاه!!! ليتني مت يوم ماتت أمي فاطمة، وأبي علي، وأخي الحسن.

والتاريخ يذكر بالتفصيل كل الحوار الذي دار بين زينب وأخيها الحسين أثناء معركة كربلاء. وتلك الحوادث التي تدل على مدى رباطة جأش السيدة زينب وشجاعتها وحنوها وعطفها، ولما انتهت معركة كربلاء بمصرع سيد شباب أهل الجنة ومن معه من شباب أهل البيت الذين دافعوا دفاع الأبطال وخاضوا معارك طاحنة أثبتت عن جدارتهم وتضحيتهم في سبيل الدين الحنيف، اقتيد الأسرى الى دار الامارة في الكوفة يتقدمهم رأس الحسين الشهيد مع السبايا من أهل بيته وبنيه وبناته لينظر في أمرهم عبيدالله بن زياد! وكانت زينب أسنّ من حمل اليه وأكبرهم. ووقفوا بباب ابن زياد ينتظرون أوامره واذ ذاك لبست زينب بالي الثياب ودخلت على عبيدالله ابن زياد وحواليها جواريها واماؤ ها. ثم جلست وتبعها من كان معها من أهل البيت. ونظر عبيد الله الى

زينب ثم قال متسائلاً: من هذه الجالسة؟! وكررها ثلاث مرات فلم تجبه واحدة منهن، فصاح مزمجراً طالباً جواب سؤ اله، واذا بإحدى أمائها تجيبه: هذه زينب بنت فاطمة. واعتدل ابن زياد في جلسته وشاع السرور على وجهه وقال مستشفياً: الحمد لله الذي فضحكم، وقتلكم، وأكذب أحدوثتكم» فردت عليه ونظراتها تقطر احتقاراً: «الحمد لله الذي أكرمنا بنبيه صلى الله عليه وآله، وطهرنا من الرجس تطهيراً. إنما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر، وهو غيرنا والحمد لله». فسألها: ـ كيف رأيت صنع الله بأهل بيتك؟. أجابت وما يزايلها ترفعها: ـ كتب عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك وبينهم فتختصمون عنده، وهنا صغر الطاغية واضمحل، لكنه قال في اشتفاء: ـ قد شفي الله نفسي من طاغيتك والعصاة والمردة من أهل بيتك.. فردت عبرتها وهي تقول: ـ لعمري لقد قتلت كهلي، وأبدت أهلي، وقطعت فرعي، واحتثثت أصلي، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت؟. قال ساخراً في غيظ: هذه سجّاعة، لقد كان أبوها سجّاعاً شاعراً. فقالت في رزانة صارمة: ما للمرأة والسجّاعة؟ إن لي عن السجّاعة لشغلاً. فرد عنها بصره، وعاد يتأمل وجوه أسراه حتى استقرت عيناه على «علي الأصغر بن الحسين» فأنكر بقاءه حياً وسأله:ـ ما اسمك؟. أجاب الغلام: أنا علي بن الحسين. فعجب ابن زياد وتساءل: ولكن، أو لم يقتل الله علي بن الحسين؟ فسكت الفتى. وعاد ابن زياد يستحثه قائلاً: ما لك لا تتكلم؟ قال: قد كان لي أخ يقال له أيضاً «علي» فقتله الناس. قال ابن زياد: إن الله قد قتله..! فأمسك الفتى لا يرد، ثم قال حين استحثه ابن زياد:ـ الله يتوفى الأنفس حين موتها، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله.

فصاح الطاغية:ـ أنت والله منهم، ويحك! ثم التفت إلى رجاله فقال:ـ أنظروا هل أدرك والله إني لأحسبه رجلاً! ثم أمر به أن يقتل،

فاعتنقته عمته «زينب» وهي تقول: يا ابن زياد، حسبك منا! أما رويت من دمائنا؟ وهل أبقيت منا أحداً؟ ثم آلت عليه: ليدعن الغلام، أو فليقتلها معه. فتأملها ابن زياد برهة، ثم انثنى يقول لأصحابه:ـ عجباً للرحم! والله إني لأظنها ودت لو أني قتلتها معه: دعوا الغلام ينطلق مع نسائه.

وخرج «علي» مع أهل بيته قاصداً الشام يتقدمهم رأس الحسين ورؤوس السبعين من آله وصحبه، والأسرة من الصبية في الأغلال، والسبايا من أهل البيت محمولات على الأقتاب في حراسة بعض رجال ابن زياد الأشداء، ولم يتكلم علي ابن الحسين طوال الطريق كما لم تتكلم عمته زينب، حتى اذا بلغوا دمشق سيرت بهم تواً الى حضرة يزيد ابن معاوية، وصرخات النادبات من دوره تملأ الفضاء، وكان يزيد قد دعا أشراف أهل الشام فأجلسهم حوله، ووضعت رأس الحسين بين يديه فالتفت الى أصحابه يقول: هذا وإيانا كما قال الحصين بن الحمام:

أبى قومنا أن ينصفونا فأنصفت قواضب في إيماننا تقطر الدما
يفلقن هاماً من رجال أعزة علينا، وهم كانوا أعق وأظلما؟

ثم استطرد قائلاً وهو يشير إلى رأس الشهيد: «أتدرون من أين أتى هذا؟ قال: أبي علي خير من أبيه، وفاطمة أمي خير من أمه، وجدي رسول الله خير من جده، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر.

فأما قوله: أبوه خير من أبي فقد تحاج أبي وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له. وأما قوله: أمي خير من أمه، فلعمري فاطمة بنت رسول الله خير من أمي. وأما قوله: جدي رسول الله خير من جده، فلعمري ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً أو نداً. ولكنه ـ أي الحسين ـ أتى من قبل فقهه، ولم يقرأ: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تنشأ!﴾ [1].

---

(١) سورة آل عمران آية ٢٦.

ثم أمر بإدخال الأسرى والسبايا. وجعل أهل المجلس ينظرون الى بنات البيت الهاشمي، وقد كن - حتى أمس قريب - عزيزات منيعات مصونات! وذكروا عزة آلهن وشرف بيتهن، فغضوا أبصارهن على إستحياء إلا رجلاً شامياً ضخم الجثة أحمر الوجه، ظل يحدق في فاطمة بنت علي - وكانت شابة وضيئة - ويلتهمها بنظرات جشعة، فأجفلت منه خائفة مشمئزة، وقام الرجل الى «يزيد» فقال - يا أمير المؤمنين، هب لي هذه![1].

وخافت فاطمة أن ينتزعها ويهبها للرجل فأسرعت الى عمتها زينب وتعلقت بثيابها متوسلة مستنجدة، فهدأت ثائرتها والتفتت الى الرجل وقالت: - كذبت والله ولؤمت ما ذلك لك ولا له.. وغضب يزيد لتحديها إياه علانية فقال:- بل كذبت والله أنت إن ذلك لي ولو شئت أن أفعله لفعلت.. أجابته زينب الغاضبة غير عابئة بجلال مكانته وعلو سلطانه:- كلا والله ما جعل الله لك ذلك إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا.. وثارت ثائرة يزيد وصاح فيها:- ألي تقولوين هذا القول؟! إنما خرج من الدين أبوك وأخوك!!.

وأجابت زينب:- بدين الله، ودين أبي، ودين أخي، إهتديت أنت وأبوك وجدك. فقال: كذبت يا عدو الله. فقالت في حزن المقهورة وعجز الضعيف:- إنك لأمير، وصاحب سلطان تستطيع بسلطانك أن تقهر وتشتم. فاستحيا يزيد، ونكس رأسه وسكت. ثم التفت الى الرجل الذي عاد يطالب بفاطمة وقال له:- إذهب، وهب الله لك حتفاً قاضياً. وذهب الرجل، وقامت البطانة، وبقي يزيد وأسراه من آل البيت، وبين يديه وضعوا الرأس الطاهر، فراح ينكث ثناياه بقضيب كان في يده وهو يرتجز الشعر فأثار زينب فقالت له:-يا يزيد. ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوآى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها

---

[1] بطلة كربلاء- الدكتورة بنت الشاطىء - ص (١٣٦- ١٣٨).

يستهزءون»[1] أظننت أنك أكرم منا على الله حين أخذ علينا بأطراف الأرض وأكناف السماء فأصبحنا نساق كما يساق الأسارى، أم أن بنا هوانا على الله وبك عليه كرامة، وإن هذا لعظيم خطرك فشمخت بأنفك ونظرت في عطفيك جذلاناً فرحاً حين رأيت الدنيا مستوسقة لك والأمور متسقة عليك وقد أمهلت ونفست وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيرٌ لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثما ولهم عذاب مهين﴾[2] «أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك نساءك وإماءك، وسوقك بنات رسول الله ﷺ وقد هُتكت ستورهن يحدو بهن الأعادي من بلد إلى بلد يتشوّفهن القريب والبعيد، ليس معهن ولّي من رجالهن، وكيف يستبطأ في بغضتنا من نظر إلينا بالشفق والشنآن الاحن والأضغان. اللهم خذ بحقنا، وانتقم لنا ممن ظلمنا. والله ما أفريت الا في جلدك، ولا حززت إلا في لحمك، وسترد على رسول الله ﷺ برغمك، وعترته ولحمته في حظيرة القدس، يوم يجمع الله شملهم أني والله يا عدو الله استصغر قدرك، واستعظم تقريعك، غير أن العيون عبرى، والصدور حرّى، وما يجزى ذلك أو يغني عنا. وأن يوجب لهم المزيد من فضله فإنه ولي قدير؟».

وقالت فاطمة بنت الحسين وكانت أكبر من سكينة: أبنات رسول الله سبايا يا يزيد؟!! . فقال يزيد: يا ابنة أخي أنا لهذا كنت أكره!! قالت: ما تُرك لنا خرص. قال: يا ابنة أخي وما أتى اليك أعظم مما أخذ منك.

وبعد كل هذا الذي قدمناه لا يسعنا إلّا أن نقول كما قال الشيخ **الفاضل الأستاذ محمد جواد مغنية! إن الأحداث التي مرت بالسيدةزينب لفتت اليها الأنظار، فتحدث عنها المؤرخون وأصحاب السير في موسوعاتهم، ومنهم من وضع في سيرتها كتباً مستقلة، وأشاد الخطباء**

---

(١) سورة الروم آية ١٠. (٢) سورة آل عمران آية ١٧٨.

بفضلها وعظمتها من على المنابر، ونظم الشعراء القصائد في أحزانها وأشجانها، وصبرها وثباتها.

وحول مكان وفاة ودفن السيدة زينب روايات كثيرة منها ما تقول بأنها دفنت في الشام، ومنها من يقول أنها دفنت في المدينة المنورة، ومنها من يقول أنها دفنت في مصر. حيث ينسب اليها مسجدها، وقد تجدد بناؤه في سنة ١١٧٣ هجرية. وكانت وفاتها سنة ٦٥ هجرية، ولا يزال قبرها في الشام ومصر مزاراً مباركاً يفد اليه المسلمون حتى عصرنا هذا من كل فج عميق.

أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه:

من مزايا البطولات الإسلامية الخالدة التي خاضت غمارها المرأة المسلمة نذكر بفخر اسم السيدة أسماء بنت أبي بكر التي تعتبر في طليعة البطلات المسلمات الخالدات، المجاهدات اللواتي وهبن أرواحهن وأجسادهن على مذبح نشر الدعوة الاسلامية. كانت ولادة «أسماء» في بيت عُرف بالزعامة والقيادة باعتباره أول قرشي استطاع أن يحرر نفسه من عبادة الأصنام ويصغي بتمعن واهتمام الى صوت صاحب الرسالة وهو يدعو الى عبادة الله الواحد الأحد الذي يخرج الناس من ظلمات الجهالة الى نور الإسلام والهداية فكان أول رجل نطق بإسلامه غير عابىء بثورة قريش ولا بحملات السفهاء.

وعلى الرسالة الاسلامية السمحاء وما تحمله من قيم انسانية دينية خالدة تفتحت عينا «أسماء» لتشاهد صور البطولة وقصة الصراع الرهيب في سبيل نشر العقيدة الاسلامية، فكان لها خير زاد تكوكب في أعماق قلبها فراحت تشتم منه التقوى والإيمان العميق.

وهكذا لمست أسماء بنت أبي بكر في أفعال السابقين الأوائل الى الاسلام التضحية الكاملة، والبطولة الرائعة في أنصع بياناتها، شاهدت

بأم عينيها كيف صبر هؤلاء الأبطال وصابروا، وكيف استهانوا العذاب وسخروا بإيذاء قريش لهم، فكانت هذه المناقب نبراساً لها يهديها الى الطريق القويم التي شقته لنفسها لتتبوء الصدارة بين النساء المسلمات الخالدات.

ومع مسير ركب الزمن وخلال تيار البعثة المحمدية في قريش شبّت أسماء في صميم الحوادث الجسام، وأحست بلافح الصراع العقيدي حتى شاء لها حظها بعد ذلك أن تعيش في خضم أحداث التاريخ الإسلامي، وأعظمها قداسة وروعة.

وكان لأسماء في هذه الأحداث دور البطولة الذي اتّسم بالشجاعة والاقدام، فلم يكد الرسول صلى الله عليه وآله يخرج مهاجراً مع أبيها الصديق حتى انبرت أسماء الصبية اليانعة لتقوم بدورها الايجابي الفعّال، إذ كان عليها أن تتنسم أخبار قريش الغاضبة التي بثت العيون في كل النواحي من أنحاء البلاد ترقب المؤمنين المهاجرين لتكيل لهم أنواع العذاب والآلام وترصد الجوائز لمن يأتي بالرسول ورفيقه ميتان أو على قيد الحياة!!..

وكانت أسماء كما يذكر التاريخ تنقل هذه الأخبار كلها مع الزاد والماء بغار «ثور» الى الرسول ورفيقه دون أن تتلفت الى ما كان يعترضها من عقبات وأخطار أقلها الموت المحتوم. ولكنها كانت تعتقد في أعماقها بإيمان عميق ما يضرها لو ماتت واستشهدت أو قطعت إرباً إرباً في سبيل نشر رسالة التوحيد والدعوة الإسلامية.

ومما يروى أنه حدث ذات يوم أن شعرت بثقل ما تحمله من مؤونة للرسول ﷺ، فشقت نطاقها الى قسمين لتتمكن من إخفاء ما تحمله ولتخفيف عبء هذا الحمل.

ولما رأى رسول الله ما فعلت أسماء بنطاقها وهي لا تزال صبيّة

بشّرها بأن الله سيعوّضها عن نطاقها بنطاقين في الجنة، فسميت من وقتها «ذات النطاقين»!!.

وحدث خلال هذه الفترة ـ ومحمد وصاحبه في الغار، ينتظران اللحظة الحاسمة للانطلاق عبر الصحراء الى يثرب ـ إن اشتمت قريش في تكرار خروج بنت أبي بكر، ما يقطع بأن وراءها شيئاً تبالغ في إخفائه.

ودهمها أبو جهل رأس الشرك ذات يوم وهي على مقربة من الغار، وراح الأشرار الذين معه يحاولون انتزاع سرها ولكن بلا جدوى، حتى لقد فقد الشرير العاتي غريزة الحنان، ولطم الصبية لطمة قاسية مزقت قرطها وسقطت على الأرض باكية!! فتركها وهو يتميز غيظاً من شجاعتها وعنادها وقد أبت أن تشفى غلته وتبوح له بالسر الذي كان يبتغيه!!.

ويذكر التاريخ أن أسماء بعد ذلك هاجرت الى يثرب، وتزوجت من حواري الرسول وابن عمته «الزبير بن العوام» وأنجبت له ولدها البكر عبد الله، فكان أول مولود للمهاجرين ولد في يثرب.

وشهدت أسماء في مدينة رسول الله انتشار الاسلام، وتعاظم شأنه، ورأت نصر الله والفتح، وكيف يدخلون الناس في دين الله أفواجا، فتعلمت في هذا درساً خالداً في الثبات على المبدأ، والاستهانة بالكثرة الظالمة صاحبة الباطل، التي انتصرت عليها القلة المؤمنة التي تنادي بالحق وتجاهد في سبيله.

ولما تولى أبو بكر أمر المسلمين بعد رسول الله ﷺ وجرى ما جرى، بين المسلمين من خلافات ونزاعات، لم يؤثر هذا الخلاف وذلك النزاع على عقيدة أسماء فلم تتغير أو تتبدل بل راحت تراقب ما يجري من أحداث والألم الممض يتفاعل في أعماقها ويخترق كيان نفسها ويسبب

لها العذاب والآلام، فصمتت وانزوت في بيتها ترقب الأحداث وتتألم في كيانها لما أصاب المسلمين من تفرقة وخزلان. ثم جاء عمر ومن بعده عثمان. ثم كانت الفتنة الكبرى التي أعقبتها بيعة الإمام علي بن أبي طالب (ع) وخرج زوجها الزبير بن العوام على البيعة، وشق عصى الطاعة على ابن خاله الإمام علي هو وطلحة ومن تبعهما من المسلمين. وشاهدت أسماء كيف استطاع زوجها الزبير بن العوام أن يخرج أختها عائشة من خدرها لتتزعم الخارجين على أمير المؤمنين، وتدعو إلى قتاله، فلم يرقها ذلك الحادث ذاته وعزّ عليها أن يتفرق أمر المسلمين، فآثرت البعد عن النزاع السياسي وكرهت الخروج وبقيت منزوية على نفسها في مدينة رسول الله حتى بعد اغتيال الإمام علي بن أبي طالب (ع) وأخذ البيعة لمعاوية بن أبي سفيان.

ولما شعرت أسماء بتغيّر الأجواء، راحت تبحث عن أحاديث من بقي من الصحابة على قيد الحياة وهم يصفون سياسة معاوية الخرقاء التي أوجدت نظاماً جديداً في الاسلام لا عهد للمسلمين به، إذ جعل الله أمرهم شورى بينهم، وجعلها معاوية وراثة في أهله.

ودارت عجلة الزمن وتطورت الأحداث تعصف بكيان الأمة الاسلامية من كل حدب وصوب، فراحت أسماء ترقبها في صمت وحذر، ثم اذا بها تفاجأ بولدها البكر «عبد الله» يقود الثورة ضد الحكم الأموي، ويجمع حوله المهاجرين والأنصار فيؤلف منهم جيشاً ساعده على قطع الخطبة عن الأمويين، ثم أعلن نفسه حليفة على العالم الاسلامي كله دون بلاد الشام.

في ذلك الوقت كانت «ذات النطاقين» ترقب الأحداث وتتطلع الى الخلاف الذي ذرّ قرنه بين ولدها عبد الله بن الزبير والخليفة الأموي مروان بن الحكم. بينما كانت تسير في طريقها الى الشيخوخة التي أوجبت انزوائها وبعدها عن حلبة الصراع، فلم تجد بمقدورها إلّا

الدعاء لولدها بالفلاح ليتمكن من رصّ الصفوف وجمع شمل المسلمين والعودة بهم إلى الطريق القويم الذي أوجده رسول الله صلى الله عليه وآله.

وقصة خلافة عبد الله بن الزبير ذكرها التاريخ بالتفصيل فمن شاء الاستزادة فليراجعه.

وبعد أن دارت الأيام وأصبحت نهاية عبد الله ونهاية خلافته قاب قوسين أو أدنى بعد أن تخلى عنه الولد والصديق ونصحه بعض المقربين بلزوم الهرب، لم يجد أمامه من يشير عليه أصدق من أمه أسماء التي قالت له كلمتها المشهورة: «وما يضرّ الشاة أن تسلخ بعد ذبحها ان كنت على الحق فكن حيث أنت ولك في السابقين أسوة» وشجعته على المضي في خوض المعركة والثبات حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

ولما سقط عبد الله قتيلاً وسيفه في يده وعرفت أسماء بالنبأ، لم تجزع بل بقيت صامتة لا تتكلم، وأبت أن تخرج من بيتها، ورضيت لجسد ابنها أن يصلب في العراء حتى بعث اليها الحجاج يأمرها أن تأتيه، فسخرت من الرسول ورفضت الخروج من بيتها، فلم يجد الحجاج بداً من الذهاب إليها، فوقفت تجاهه مرفوعة الرأس تسخر منه وتقول: «إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً!! جئتني في قضك وقضيضك وحرسك وأعوانك، لترهب بهم عجوزاً عمياء!! لقد قتل الأسد، فلا ضير على الثعالب إن هي حومت حول العرين!!».

فأجابها الحجاج وقد أذهلته جرأتها عليه: «لقد شرفتك بحضوري إلى هنا !! فأجابته بقوة: «لقد شرفنا الله، ورفع من قدرنا، قبل أن تأتي أنت الى الدنيا!! وما كانت زيارة الحجاج لترفع من قدر أسماء بنت أبي بكر!!».

وحاول الحجاج أن يخفف من ثورتها عليه فقال لها متلطفاً: هل

من حاجة أقضيها لك يا أم؟. فصاحت الأم الثكلى تقول له: «لست لك بأم!! أنا أم المصلوب على الثنية، وانك وجيشك لتعرفون قدره».

فقال الحجاج: إني لعاذرك يا ذات النطاقين، وما زلت أسألك ان كنت في حاجة الى شيء أقضيه لك؟!

فقالت: «يا حجاج!! هذا الراكب، الذي أبى له قدره إلاّ أن يرتفع فوق الرؤوس حتى في موته، أما آن له أن ينزل؟!».

فأجاب الحجاج: يا بنت الصديق!! إن إيمانك الشديد هذا ليروعني، وان ما حدث كان قدراً مقدوراً، ولقد أراد ابنك الخلافة لنفسه، وأرادها الله لعبد الملك!!.

قالت: «ظل عبد الله أميراً للمؤمنين تسع سنوات طوالاً، رفع فيها راية الاسلام، وكان خير قدوة للحاكم الصالح، الذي بايعه الناس على الطاعة، لا الذي فرضه طاغية، أو أخذوا له البيعة بحد السيف!!».

أجاب: ولكن ارادة الله تمت على هذه الصورة، والله ما حقدت على ولدك، ولكني أحسست بالزهو عندما تخلصت منه.

وهتفت أسماء رافعة رأسها الى السماء قائلة: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة، انك أنت الوهاب﴾[1].

وأجاب الحجاج في خجل خافضاً رأسه: هزمتني والله يا بنت أبي بكر!!..

هذه هي أسماء «ذات النطاقين» بعزيمتها وقوة شكيمتها وايمانها، برسالة الاسلام وما فيها من مناقب سامية.

---

(١) سورة آل عمران آية٨

حفصة بنت عمر بن الخطاب:

هذه امرأة أخرى من النساء المسلمات الخالدات اللواتي لعبن دوراً هاماً في تاريخ الأمة الاسلامية منذ فجر الاسلام ولا تزال أسماؤ هن تتردد في كافة الأوساط العلمية والثقافية والتاريخية لما أبدينه من شجاعة وتقوى وإيمان خاصة في الوقت الذي كانت فيه الدعوة الاسلامية تنتشر بقوة في ربوع الجزيرة العربية بعد أن حقق الله لرسوله الكريم وأمده بجنود من عنده مما أدى الى تقوية الايمان وثباته والدعاء إلى الله عزّ وجل بالحمد والشكر والثناء.

وبعد عدة سنوات لا تتجاوز الثلاث من هذا الانتصار المؤ زر للدعوة الاسلامية، مات «خنيس بن حذافة» زوج السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب الذي حزن عليه حزناً عميقاً وطلب له الرحمة من الله سبحانه وتعالى، وتجّمل ابنته بالصبر وقد ترملت وهي لم تزل في ريعان الشباب.

ولما كانت التقاليد العربية منذ القدم تشغل ذوات العرب بمصالح البنات وكان أهم ما يهتم له كل أب أن يرعى ابنته، ويراها وهي تعيش عزيزة الجانب في بيت سعيد مستقر وفي رعاية زوج كريم يقدرها ويحبها ويكفيها مؤ ونة العيش.

وكان عمر بن الخطاب قد مرّ بهذه التجربة من قبل، حتى تزوجت «حفصة بخنيس» وعاشت في كنفه ما شاء له الله أن يعيش، وكفت أباها مشقة التفكير في أمرها وأمر مستقبلها.

أما اليوم وبعد أن أصبحت «حفصة» أرملة، فلا بد لوالدها من أن يفكر في أمرها من جديد ويحاول أن يجد لها الزوج المناسب الجدير بها. فاستعرض في مخيلته الكثيرين من شباب المهاجرين والأنصار، ممن كان يرى فيهم الجدارة «لحفصة»، ولكنه لم يستقر على شخص معين

بالذات. فأخيراً بعد تفكير طويل قرر أن يزوجها الى «عثمان بن عفان» كونه أخوه في الايمان وينحدر من أسرة عريقة من قريش وخاصة كون عثمان بن عفان كان قد ترمل هو الآخر بعد العودة من بدر حيث توفيت زوجته السيدة «رقية بنت رسول الله» فقرر أن لا يتزوج بعدها. وأسرع عمر بن الخطاب الى عثمان يحدثه في شأنها ويعرضها عليه، غير أن عثمان أجابه بأنه ليست به الى النساء حاجة، خاصة بعد أن انقطعت صلة رحمه برسول الله. ولم يستكن أو يهدأ عمر بن الخطاب، بل أسرع الى صاحبه أبي بكر وتحدث اليه في أمر «حفصة» ولكن أبا بكر ظل صامتاً ولم ينطق بكلمة واحدة مما أدهش عمر وحيره. فاتجه الى رسول الله وقصّ عليه قصة ابنته «حفصة» وما جرى له من عثمان وأبي بكر واعراضهما عنها، فقال له الرسول الكريم: قد زوج الله عثمان خيراً من ابنتك، وزوج ابنتك خيراً من عثمان، فتزوج رسول الله حفصة، وزوج ابنته أم كلثوم بعثمان بن عفان.

ومما يروى أن ولادة حفصة كانت قبل ظهور الاسلام بخمس سنين، وكانت أول من دخلن الاسلام، ومن أوائل من هاجرن من مكة الى المدينة، اذ هاجرت مع زوجها الأول خنيس بن حذافة، وبقيت معه هناك حتى مات.

وبعد أن دخلت حفصة بيت النبي وأصبحت الزوجة الثالثة بعد زوجتيه، سودة بنت زمعة وعائشة بنت أبي بكر عاشت فيه عيشة وادعة هادئة يخيم عليها الصفاء والاستقرار.

ويقال أن الرسول كان يصحبها في بعض غزواته حيث أطنب بعض المؤرخين في وصف رفقة رسول الله لأمهات المؤمنين، وافتعلوا القصص والروايات التي تظهر معالم الغيرة بين زوجات النبي، نضرب صفحاً عنها لضيق المجال كما واننا نغض الطرف عما رواه بعض الرواة حول طلب نساء الرسول السعة في النفقة الى آخر ما هنالك من

أقاصيص وحكايات لا تتفق مع الموضوع الذي نتحدث عنه فمن أراد الاستزادة فليراجع كتب التاريخ.

وقصتها أي قصة حفصة مع مارية القبطية أشهر من أن تعرّف حيث طالبت الرسول بضرورة الابتعاد عنها. ويقال أنه ﷺ قد حرّم الدخول على «مارية». ولكن الله سبحانه وتعالى قد أنزل الآية الكريمة فقال: ﴿يا أيها النبي لم تُحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم﴾[1].

وهذه الآية تتضمن عتاباً للرسول يذكره الله فيه بأنه قد أحلّ له مارية القبطية فكيف يقدم هو على تحريم ما أحّله الله له ليرضي أزواجه وخاصة حفصة وعائشة، وتتالت الآيات بعد هذا تكمل التشريع السماوي في قوله تعالى: ﴿ قد فرض الله لكم تحله ايمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم ﴾[2].

ولهذا كان لا بد للنبي من أن يرد مارية الى عصمته لتكون حلالاً له، لأن الله تعالى قد أراد هذا وليس على الرسول غير الطاعة فلا يقدم لا هو ولا غيره من المسلمين على تحريم ما أحله الله له.

ويروى أن هذه الرواية قد سببتها حفصة بنت عمر وقد قضى الله سبحانه وتعالى عليها وهي في المهد، ولم يعد لها في المجتمع الاسلامي سلطان ولا وجود.

وكذلك حسم الأمر وعلم أمهات المؤمنين درساً في الطاعة حتى لا يعدن لمثلها أبداً. ولكن خفصة على ما يبدو لم ترتدع عن دس الدسائس ومحاولة الايقاع بين نساء النبي متعاونة مع زميلتها عائشة، خاصة عندما كان الرسول مسجّى على فراش الموت، حيث طلبت من

---

(١) سورة التحريم آية ١.   (٢) سورة التحريم آية ٢.

عائشة أن تقول له بأن يأمر عمر ليصلي بالناس، ولكن الرسول لم يستمع الى كلامها وأمر أبا بكر ليصلي بالناس غير أن حفصة لم ترتدع، بل عادت الى عائشة وهي متمسكة في رأيها وطلبت منها أن يؤم عمر المسلمين للصلاة، وأبلغ بلال عمر بن الخطاب أن يصلي بالناس في مكان رسول الله.

ولما سمع رسول الله صوت عمر انتبه من غشيته وعظم لديه أن تعصي عائشة وحفصة أمره ونادى غاضباً أين أبو بكر.. أين أبو بكر.. ان الله لا يرضى بذلك أبداً.. لا يرضى الله بذلك ولا رسوله. أين أبو بكر.. مره فليصل بالناس.. ووصل الأمر الى عمر، فتراجع وترك مكانه لخليفة رسول الله، فعلا صوته بالتكبير، فسمعه رسول الله، فالتفت الى حفصة وعائشة فقال: يا صواحبة يوسف، تخفين في أنفسكن غير ما تبدين.

ولما انتقل الرسول الى جوار ربه وخلفه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، عاشت حفصة خلال فترات الجهاد الاسلامي حياة وادعة مستقرة هادئة في بيتها بعيدة عن مجال الحياة اليومية للمسلمين، لا تعرف غير شؤون دينها وتعبدها، ولا تعرف من أمور دنياها غير التخلف لماماً الى بيت أبيها عمر بن الخطاب لزيارته والاطمئنان عليه.

ويقال أن حفصة عندما قتل أباها بكته وقالت: «الحمد لله الذي لا نظير له، والفرد الذي لا شريك له أما بعد ـ فكل العجب من قوم زين الشيطان أفعالهم وارعوى الى صنيعهم ورب في الفتنة لهم ونصب حبائله لختلهم، حتى هم عدو الله بأحياء البدعة ونبش الفتنة وتجديد الجور بعد دروسه، واظهاره بعد دثوره واراقة الدماء واباحة الحمى وانتهاك محارم الله عز وجل بعد تحصينها، فاضرى وهاج وتوغر وثار غضبا لله ونصرة لدين الله، فأخسأ الشيطان، ووقم كيده وكفف ارادته وقدع محنته واصعر خده لسبقه الى مشايعة أولى الناس بخلافة رسول الله

ﷺ الماضي على سنته، المقتدي بدينه، المقتص لأثره، فلم يزل سراجه زاهرا وضوؤ ه لامعاً، ونوره ساطعاً، له من الأفعال الغرر ومن الآراء المُصَاص ومن التقدم في طاعة الله اللباب الى أن قبضه الله اليه قالياً للدنيا اذ عرفها لا فظاً لها اذ عجمها وشانيا لها اذا سبرها. . عركها بالعزم الشديد حتى أجابت بالرأي الجليد فأقام فيها دعائم الاسلام وقواعد السنة الجارية ورواسي الآثار الماضية وأعلام أخبار النبوة الطاهر حتى دعي فأجاب ونودى فأطاع». ثم راحت تقول:

أكظم الغلة المخالطة القلـ
ب أعزى وفي القرآن عزائي
لم تكن بغتة وفاتك وجدا
إن ميعاد من ترى للفناء

وعادت حفصة بعد ذلك حتى قامت الفتنة بعد مقتل عثمان فرافقت صاحبتها عائشة في حمل قميص عثمان تطالب بالاقتصاص من قاتليه. ولم تكد حفصة تبلغ مشارف المدينة حتى لحق بها أخوها عبد الله وأرجعها الى بيتها الذي أمرها الله أن تقر فيه.

ويقال أن حفصة قد شهدت خلافة معاوية وتوفيت عام ٤٥ هجرية ودفنت في البقيع. وعمرها وقتذاك بضعة وستون عاماً.

سكينة بنت الحسين (ع):

تعتبر سكينة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (ع) خير مثال للمرأة المسلمة التي استطاعت بفضل أدبها وحكمتها أن تخلد اسمها على كر الدهور، وتحتل صفحات خالدات في تاريخ الأمة الاسلامية لما قامت به من أعمال رائعة لا يزال الناس حتى يومنا هذا يذكرونها بالخير والثناء. كيف لا وقد كان أبوها الحسين سيد شباب أهل الجنة وشهيد

الظلم والتعسف والانحراف. وأمها الرباب ابنة امرىء القيس بن علي الكلبي من أفضل نساء عصرها.

ترعرعت ونشأت سكينة في بيئة حديثة العهد بالاسلام تربطها بالرسول العظيم رابطة القرابة والرعاية، فكانت عابدة قانتة محافظة على شعائر الدين بكل قواها.

ولما شبت عن الطوق واكتمل نضوجها وازداد حسنها تقدم لخطبتها كثيرون، منهم ابن عمها الحسن بن الحسن بن علي .. ولكن عمه الحسين قال له لقد اخترت لك فاطمة ابنتي الأخرى، فانها أشبه النساء بأمي الزهراء.. وهي تقوم الليل وتصوم النهار، ولها جمال الحور. أما سكينة فلا أراها تصلح لرجل، اذ غلب عليها الاستغراق مع الله.

ولا بد من الإشارة ان سكينة عند ولادتها قد سموها آمنة ولكن أمها تعودت أن تناديها سكينة، فغلب عليها الاسم وعرفت به، وبذلك تبخر وتلاشى اسمها الأول.

وبعد مقتل جدها الإمام علي بن أبي طالب (ع) عاشت سكينة في الحجاز مع أبيها الحسين (ع)، ولما استشهد الحسين في معركة كربلاء استقرت في موطنها في الحجاز ونعمت بالترف في صدر العصر الأموي، وتأثرت الى حد بعيد في البيئة المحيطة بها، بيئة الشعر والآداب الذي انصرف اليهما الناس، فاستمعت الى مهاجاة جرير والفرزدق والأخطل، ووصلت الى أسماعها أشعار مجنون بني عامر، وأنصتت الى تشبيب جميل ببثينة، وغزل كُثيِّر في عزّة، وأقاصيص ابن أبي ربيعة الخيالية عن عاشقاته المفتونات به.. فكانت راوية للشعر ناقدة له، خبيرة بضروبه وأوزانه، عالمه ببحوره وقوافيه، ذوّاقة للأدب عارفة بأقدر رجاله.

وحدث ذات مرة أن الفرزدق بعد أن أتم حجه، شاء أن يزور السيدة سكينة فعدل عن زيارة المدينة وقصد بابها، فدخل عليها مسلمًا.

فسألته عن أشعر الناس فادعى أنه هو. فقالت له أشعر منك جرير إذ يقول:

بنفسي من تجنُّبهُ عزيزُ علّي ومن زيارته لمام
ومن أمسى وأصبح لا أراه ويطرقني إذا هجَعَ النيامُ

فأراد أن يجادل وأن يسمعها ما هو خير مما قالت.. فلم تسمح له.. فعاد اليها مع الغد، واذ بها تسأله ثانية عن أشعر الناس فادعى أنه هو!! فعادت تقول له: صاحبك جرير اشعر منك حيث يقول:

لولا الحياء لهاجني استعبارٌ ولزرتُ قبرك والحبيب يُزار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا ليل يكر عليهم ونهار

فقال الفرزدق: والله لئن أذنت لي لأسمعتك ما هو خير منه، فلم تسمح له.. فخرج.. وعاد اليها مع اليوم الثالث ليسمعها ما هو خير منه فسألته ثالثة من أشعر الناس؟.. فعاد يدعي أنه هو. فكذبته وقالت: جرير أشعر منك اذ يقول:

إن العيون التي في طرفها حور قتلننا.. ثم لم يحُين قتلانا
يصرعن ذا اللبِّ حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله انسانا

فسألها أن تأمره باسماعها ما ظنه خيرا من شعر جرير، فلم تأذن له. فاحتج وقال: يا بنت رسول الله!! إن لي عليك لحقاً عظيًما.. ضربت آباط الابل من مكة لأسلّم عليك، فكذبتني وطردتني وفضلت جريراً عليّ.. وأبيت أن تسمعي ما هو خير من شعره!! وإن بي ما قد عيل منه صبري، وهذه المنايا تغدو وتروح، ولعلي لا أفارق المدينة حتى أموت، فاذا أنا مت فمري أن أدرج في كفني وأدفن في حرّة هذه، وأشار الى جارية بارعة الحسن من جواريها. فضحكت سكينة وأمرت له بالجارية وقالت له: يا فرزدق احتفظ بها واحسن صحبتها، فإني آثرتك بها على نفسي.

ويروى عن سكينة بنت الحسين أنها كانت ناقدة بارعة للشعر العربي ولما يقوله الشعراء في المناسبات، ومن نقدها في مجلسها للحارث بن خالد المخزومي الذي قال:

ففزعن من سبع وقد جهدت   أحشاؤهن موائل الخمر

فقالت للحاصرين: أحسنٌ عندكم ما قال؟ فقالوا نعم. فقالت: وما أحسنه؟ فوالله لو كانت الابل سبعا لجهدت أحشاؤ ها.

ويحدثنا التاريخ بأن سكينة لم تكن ذواقة للشعر وناقدة له فحسب، بل كانت لها أذن تعشق دروب الموسيقى وتفرق بين ألحانها حتى لقد حدث أن حكّمها الفريض وابن سريج في نغم لكل منهما، فقال لها ابن سريج: يا سيدتي إني كنت قد صنعت صوتاً وحسّنته، ونتوقف فيه، وخبأته لك في حريرة في درج مملوء مسكاً، فنازعنيه الغريض، فأردنا أن نحتكم اليك، فأينا قدّمته فينا تقدم. فقالت: هاته. فغناها:

وعرّجي علينا ربة الهودج   انك لا تفعلي تحرجي

فقالت: هاته أنت أيضاً يا غريض. فغناها إياه. فقالت لابن سريج، أعده فأعاده. وسألت الغريض أن يفعل ففعل. فسكتت لحظة قالت بعدها: ما أشبهكما باللؤ لؤ والياقوت في أعناق الحسان، لا يُدرى أيهما أحسن.

ومما يقوله ابن خللكان ان سكينة كانت سيدة نساء عصرها وأحسنهن أخلاقاً، وأكثرهن ظرفاً. ولعل من دعابتها لكثير عزّة ما يشفّ عن نفسها الصافية وحبها للممازحة البريئة، اذ حدث ان خرج كُثيرّ في الحاج ليبيع جملاً له، فمر بسكينة، ومعها عزة وهو لا يعرفها. وكان كثير شهيراً بالبخل، فأرادت أن تسخر منه، فأمرت أتباعها أن يسوموه جمله، فأسرعوا إليه وساوموه فطلب مائتي درهم. وعند ذاك سألته سكينة من

وراء حجاب، أن يُنقص الثمن ، فأبى، فدعت له بتمر وزبد، فأكل حتى شبع. وعادت تسأله أن ينقص من الثمن الذي عينه شيئاً فأبى، فقال له أتباعها: ولكنك يا كثير قد أكلت بأكثر مما تسألك أنقاضه، فضع عنا شيئا ولكنه أصرّ على ألا ينقص من الثمن الذي عيّنه دانقاً واحداً. واذ ذاك قالت سكينة: ارفعوا الحجاب، فانكشف عن سكينة وعزّة إلى جانبها، فما إن رآهما كثير حتى استحى وانصرف وهو يقول: هو لكم، هو لكم.

ومن المؤكد أن بيت السيدة سكينة كان محجاً للزوار تتوافد إليه شريفات المدينة وحسناواتها، وكن يتذاكرن أو يتدارسن أو يروين أقاصيص في شتى شؤون الحياة، ولقد حدث ذات مرة ان رحن يتفاخرن في الأنساب، فقال بنت عثمان بن عفان: أنا بنت الشهيد، وسكتت النسوة جميعاً ولم تجسر إحداهن أن ترقى بأبيها أو أخيها أو زوجها على عثمان. واتجهت أنظارهن الى سكينة التي ظلت بدورها صامتة حتى حان موعد الصلاة، وعلا صوت المؤذن حتى وصل الى قوله: أشد لا إله الا الله وأشد أن محمداً رسول الله. وعند ذلك نظرت سكينة الى بنت عثمان وسألتها: أهذا أبي أم أبوك؟ وسكتت بنت عثمان ولم تجد ما تقول بعد أن قالت سكينة قولها.

ويقال أن سكينة قد تزوجت أكثر من مرة، تزوجها عبد الله بن الحسن، فقتل عنها قبل أن يدخل بها ثم تزوجها مصعب بن الزبير، وأمهرها ألف درهم، فولدت له ابنته الرباب وكانت كأمها آية من آيات الحسن. واعتادت سكينة تدليلها وتزيينها باللؤلؤ قائلة: أنها ما ألبستها إياه، إلّا ليفضح جمالها جماله، ويزري بريقها ببريقه.

ولما قتل مصعب بن الزبير أثناء الصراع على الخلافة بين أخيه عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم، تزوج سكينة عبد الله بن عثمان بن حكيم. فأنجبت منه عثمان الذي عرف باسم قُريب. ثم تزوجت بعد

ذلك من الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان وقيل أنه فارقها قبل الدخول بها، فتزوجها يزيد بن عمر بن عثمان بن عفان، فأمره سليمان بن عبد الملك أن يطلقها ففعل.

وقيل: بل أنها تزوجت الأصبغ ودخل بها، وأنها لحقت به الى مصر وهو وال عليها وظلت في كنفه حتى توفيت الى رحمة الله ودفنت في قبرها الحالي بالقاهرة.

أما القول بأن يزيداً حفيد عثمان طلقها بأمر سليمان بن عبد الملك وأنها ماتت ودفنت في المدينة يؤكده ابن خللكان والنووي والسخاوي، ويؤكد من ناحية أخرى وفاتها ودفنها في مصر «الشعراني والمنادي والحلبي . فسواءً ماتت سكينة في مصر أو في المدينة ودفنت هنا أو هناك، فقد عاشت وماتت وهي كما قال عنها الأصفهاني: «ان امرأة تختار على سكينة لمنقطعة النظير».

أروى الصليحى ملكة اليمن:

في الوقت الذي كانت فيه المرأة في اليمن لا قيمة لها في المجتمع إلّا من حيث خدمة الزوج، وانتاج النسل والقيام بمهام تدبير المنزل، وكان يقال عنها في تلك البلاد: (المرأة ناقة وان هدرت). أقول في ذلك الوقت بالذات ظهرت السيدة الحرة الملكة أروى الصليحي، وكانت مثلاً أعلى للمرأة المسلمة في عصرها، لعبت دوراً هاماً في السياسة اليمنية، وأثبتت كفاءة وجدارة في ادارة شؤون البلاد، ويقظة تامة، واخلاصاً منقطع النظير في نشر المذهب الاسماعيلي. وحرصت أشد الحرص على تمتين العلاقة مع إمامها المستنصر بالله الخليفة الفاطمي، فتفانت في اطاعة أوامره ونشر دعوته وتقويتها في كافة المناطق الواقعة تحت نفوذها، مما جعل الإمام يوليها ثقته، ويفوضها في أمر تعيين الدعاة في المناطق البعيدة عن اليمن.

وتبين الرسائل التي كان يزودها بها الامام المستنصر بالله من وقت لآخر مدى تقديره لاخلاصها الذي لا يتزعزع، كما وأنها تشيد بإيمانها العميق وبمقدرتها السياسية. وكان أهل اليمن يتفانون في الاخلاص لها فيخاطبونها بلقب «سيدتنا الحرة الملكة» حبا فيها واجلالاً لها.

ولدت السيدة الحرة أروى بنت أحمد بن محمد القاسم الصليحي[1] سنة ٤٤٠ هجرية، أمها الرداح بنت الفارع بن موسى الصليحي، أشرفت على تربيتها وتهذيبها وتأديبها السيدة الحرة أسماء بنت شهاب زوجة الملك علي الصليحي، فترعرعت في بيئة طيبة فاضلة، ووجه الملك علي الصليحي كل اهتمامه لتنشئتها تنشئة علمية أدبية صالحة، فكان كثيراً ما يقول للملكة أسماء «اكرميها، فهي والله كافلة زرارينا، وحافظة هذا الأمر على من بقي منا».

وكانت على جانب كبير من الذكاء والأخلاق الفاضلة، الى جانب ما وهبها الله من جمال الخلقة، فكانت بيضاء اللون مشربة بحمرة، مديدة القامة، معتدلة البدن، تميل الى السمنة، كاملة المحاسن جوهرية الصوت، قارئة، كاتبة، تحفظ الأخبار والأشعار والتواريخ وأيام العرب ولها تعليقات وهوامش على الكتب تدل على غزارة مادتها. ولقبت ببلقيس الصغرى لرجاحة عقلها وحسن تدبيرها.

ويذكر الداعي ادريس فيقول: «كانت الملكة الحرة متجرة في علم التنزيل والتأويل، والحديث الثابت عن الأئمة والرسول عليهم السلام.. وكان الدعاة يتعلمون منها من وراء الستر، ويأخذون عنها ويرجعون اليها».

وامتازت السيدة أروى بالصلاح والتقوى والخبرة الواسعة، والمعرفة الفائقة بأحوال الناس، مما ساعدها على ادارة شؤون بلادها في ظروف سيئة أحاطت بالبلاد.

(١) عيون الأخبار للداعي ادريس عماد الدين ٧/٢١٨- ٢١٩- ٢٢٣.

قال الداعي ادريس: «وكانت امرأة فاضلة ذات نسك وورع، وفضل وكمال وعقل وعبادة وعلم، تفوق الرجال فضلاً عن ربات الحجال، وتستحق مدح الشاعر حيث قال: «.. وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال»[1].

وقال أيضاً: «وقد استحقت التقديم والتفضيل على الفضلاء من الرجال. وكان الإمام المستنصر أصدر إليها أجل أبواب دعوته، فأفادها من علوم الدعوة ورفعت عن حدود الدعاة الى مقدمات الحجج».

ومن المعقول جداً بعد أن نبغت السيدة أروى هذا النبوغ وهي تعيش في كنف السلطان علي الصليحي وزوجته وقد أشرفا بنفسهما على تربيتها واعتنيا بها أشد الاعتناء، أن يختاراها زوجة لابنهما الأمير أحمد المكرم، فاقترنت به بعد أن تولى ولاية العهد سنة ٤٥٨ هجرية وكان لها من العمر ١٨ سنة. وفي هذا الزواج قال الشاعر الحسين بن علي القمي من قصيدة جاء فيها:

وكريمة الحسبين يكنف قصرها	أسد تخاف الأسد من صولاتها
وتكاد من فرط الحياء تغض عن	تمثالها المرئي من مرآتها
طفرت يداك بها، فبخ انما	لك تذخر العلياء مضنوناتها

وكان الصليحي أصدقها عدن حين زوجها ابنه المكرم، ولم يزل ارتفاع عدن من حين زواجها يرفع اليها وهو مئة ألف يزيد وينقص.

فأنجبت عليّاً ومحمداً وفاطمة وأم همدان. فأما علي ومحمد فسنتكلم عنهما فيما بعد، وأما فاطمة فقد تزوجت من شمس المعالي (علي بن سبأ ابن أحمد الصليحي) وتوفيت سنة ٥٣٤ هجرية، وتزوجت ابنتها الثانية (أم همدان) من ابن خالها (أحمد بن سلمان بن عامر بن سليمان ابن عبد الله الزواحي) فرزقت منه بعبد المستعلي، وتوفيت سنة ٥١٦ هجرية.

---

(١) أعلام الاسماعيلية- الدكتور مصطفى غالب - ص ١٤٤.

وبدأت نشاطها السياسي في عهد زوجها المكرم، وفي ذلك قال عمارة: «لما توفيت أسماء بنت شهاب والدة المكرم، فوض الأمر لزوجته الملكة السيدة الحرة، ولما توفي زوجها سنة ٤٧٧ هجرية تحملت وحدها عبء هذه المسؤولية الجسيمة، وأصبحت بتفويض من الخليفة تتصرف في أمور الدولة والدعوة في الهند واليمن وعمان، فوقفت حائلاً دون تيارات الفتن والخلافات الداخلية لما عرفت به من حسن التدبير ومعرفة اختيارها للرجال وتقديرها الصحيح لعواقب الأمور».

ومن المؤكد أن أفراد أسرة الصليحي وعلى رأسهم السيدة الحرة أروى كانوا دعاة مخلصين يحرصون أشد الحرص على إظهار ولائهم للخليفة الفاطمي كإمام روحي لهم.

ومما مدحت به الملكة الحرة الصليحية قول الخطاب بن الحسن الحجوري وهو لا يمدح أحداً إلّا الحرة الملكة، وذلك من خالص ولائه وعظيم اجلاله لها:

همم النفوس على النفوس مدارُها	وبها تَبيُن كبارُها وصغارُها
اذا تفرّس في الورى متفرّس	ببصيرة لاحدت له أخبارُها
إن النفوس فروع أجسام وما	تبديه من همم النفوس ثمارُها
وحياة أفضلها التقي اذ بالتقى	تحوي بها مما ابتغت آثارُها
كوحيدة الزمن التي أضحى التقى	وشعارها من محضه ودثارُها
رضى الائمة سعيها فتوطّدت	في الأرض دولتها وقرّ قرارُها
وتواصلت بركاتها ممدودة	منها حبائل ما استرمّ مغارُها
موصولة بحبالها تبقى على	مرِّ الزمان وصرفه أسرارُها
واذا الملوك أطاعت الرحمن لم	تخذل وطالت في الورى أعمارُها
أما علاك فانها مشهورة	لاحت أدلتها وطال منارُها
شهدت عداك فان هم طالبوا	ادراكها فقصارها أقصارُها
أنتم بنو الأصلوح جوهر يعربٍ	وسواكم أصدافها وبحارُها

ولأنت يا ابنة أحمد تنميك من تلك اللآلي الفائقات كبارُها
أنقذت من يمٍّ الضلالة أهلها كانوا بها طامٍ بهم تيارُها

كما مدحها الشاعر الحسين بن علي بن القِمِّ في قصيدة أولها:

أعلمت أن من الرماحُ قدودا ومن الصَّفائح محاجرا ونهودا

ومنها:

أعلى الأنام أبا وأكرم طيبة وأتم أعراقا وأصلب عودا
لو كان يعبد للجلالة في الورى بشر لكانت ذلك المعبودا
أو كان في أثوابها بلقيس ما هابت سليمانا ولا داودا
واذا الوفود تأخرت وفدت عطا ياها، فكانت للوفود وفودا
هي نعمة الله التي ما مؤها ثمدا ولا معروفها مجحودا
هي رحمة الله التي ما زال من فوق البرية ظلها ممدودا

هذه الصفات التي لم تجتمع قط إلّا في قليل من نساء العالم، قد تجمعت في السيدة الملكة الحرة في بلد كان ولا يزال الرجل ينظر إلى المرأة نظرة أمة مملوكة لأبيها ان كانت في عصمته، ولزوجها ان كانت في حصانته.

وعندما توفيت الملكة الوالدة، أي والدة أحمد المكرم زوج السيدة أروى،كتب الإمام المستنصر بالله كتاباً يدعو فيه أروى لاقتفاء أثر الفقيدة والسير على منوالها فقال[١]:

«بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين»

«معلوم لك أيتها الحرة المخلصة المكينة، السديدة، ذخيرة الدين، عمدة المؤمنين، كهف المستجيبين، ولية أمير المؤمنين، حفظها الله تعالى وأحسن توفيقها، اصطناعنا للحرة والدة: الملك الأوحد، المنصور، المظفر في الدين، نظام المؤمنين، عماد الله وغياث الأمة، شرف

(١) أعلام الاسماعيلية ـ الدكتور مصطفى غالب ـ ص (١٤٦ـ ١٤٧).

الايمان، ومؤيد الاسلام، عظيم العرب، سلطان أمير المؤمنين وعميد جيوشه، أدام الله تمكينه وعلوه، وكبت حسدته وعدوه، رحمها الله، وأخراجنا اياها من زمرة ربات الجمال، الى سياسة الدولة وتقديم الرجال، لما لمع لنا نور ايمانها، ونيتها وايقانها، وإنها بالزهد معروفة، وبالتقى موصوفة، فاستحقت ما خولنا لها، وقامت بشكر ما أنلناها، ورعت أحوال المؤمنين رعاية وفت على رعايا الدعاة، وسلكت في تربيتهم مسلكاً قارب مسلك الهداة، وكان المقدم لديها من تحلى بحلية الدين، وجانب أمور الضالين، وطهر الدرن اردانه، وأبعد من الخنا جوارحه، ومن الرفث لسانه، فاذا أطلعت على من هذه صفته، ورأت من هذا حليته، قدمته الى كفئها وتعاهدته في كل حين ببرها، ومن كان عن هذه الحالة بائناً، ولشرائط الإيمان خائنا، لم يكن له عندها مجال، ولا مجال لديها مثال، ولم تزل على هذه الحالة الى أن لحقها الأجل المحتوم، والقضاء الموقت المعلوم، ونحن لأفعالها شاكرون وعليها مترحمون، ويجب عليك أيتها الحرة التدرع بمدارعها، والسلوك في أحسن مسالكها، والاقتفاء لأثرها، والعمل بمشور أخبارها، فأنت من العقل والسداد بحيث كانت تلك. كتب في العشر الأواخر من شوال من سنة ٤٧٢ والسلام عليك ورحمة الله وبركاته. والحمد لله وحده، وصلى الله على جدنا محمد رسوله خاتم النبيين، وسيد المرسلين وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهذبين وسلم تسليما، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

وبلغ من ثقة الامام فيها أن كتب إلى السلاطين وكافة المؤمنين يأمرهم بأتباع أوامرها ونواهيها بالطاعة. كما أن الإمام فوضها بإدارة شؤون الدعوة في الهند وعمان، رغم خروجهن عن نطاق حكمها، وهناك وثائق ورسائل عديدة تبودلت بينها وبين الامام المستنصر لا نرى مجالاً لذكرها خشية التطويل. ومن تلك الرسائل رسالة يدعوها فيها لمناصرة الأمير عبد الله ابن علي العلوي والي الاحساء، ليتمكن من اعادة

الأمن الى بلاد الحجاز، فسارت على رأس جيش جرار وتمكنت من إخماد الفتنة واعادة الأمن الى تلك البلاد.

وفي سنة ٤٧٨ هجرية توفي زوجها الملك أحمد المكرم، فاختلف رأي أمراء اليمن الصليحيين والرواحيين فيمن يتولى الحكم بعده، فلم تقف السيدة الحرة مكتوفة اليدين عند هذا الاختلاف فأرسلت خطابا الى الامام المستنصر تعلمه فيه بوفاة زوجها واختلاف الأمراء على تولي الحكم، وتتوسل اليه ليوافق على تعيين ابنها الوحيد (عبد المستنصر) الذي كان لا يزال طفلا خلفا لوالده، فوافق الامام المستنصر وكلف عضد الدين أبا الحسن جوهر المستنصري أن ينقل تعزيته الى السيدة أروى ويثني على اخلاصها ووفائها للدعوة، وبنفس الوقت كتب الى أمراء اليمن يدعوهم الى الاتحاد والتضامن ونبذ الضغائن والأحقاد، ويحضهم على طاعة السيدة الحرة وابنها. وما كادت أوامر الامام المستنصر تسلم الى الأمراء الصليحيين والرواحيين حتى عقدوا اجتماعاً فوق العادة أنهوا على أثره كافة الخلافات، والمنازعات التي نشبت فيما بينهم عقب وفاة زوج السيدة الحرة الملك أحمد المكرم الصليحي، وأعلنوا عن تأييدهم المطلق لعبد المستنصر الذي نصبه الامام المستنصر خلفاً لأبيه، على أن يكون للسيدة الحرة حق الوصاية وادارة دفة الحكم ريثما يبلغ عبد المستنصر أشده[1].

ويقول ادريس عماد الدين: «ان المكرم عندما توفي كتمت الحرة الملكة الأمر الى أن جاءها سجل أمير المؤمنين المستنصر بالله باقامة ولد المكرم الأصغر عبد المستنصر علي بن المكرم أحمد».

كما أمر المستنصر بأن ترسل كل المراسلات الى علي بن المكرم، وكلفه بالقيام بمرافق الدعوة وأمور الدولة بقوله: «... وقد رأى أمير المؤمنين أن يصطنعك ويلحقك برتبة أبيك وينصبك منصبه ويرقى بك

(١) أعلام الاسماعيلية- الدكتور مصطفى غالب - ص (١٤٨- ١٤٩).

درجته.. وأمره (أي الأمير أبي الحسن جوهر المستنصري) أن يقلدك النظر فيما كان أبوك تقلده من الدعوة الهادية والأحكام في سائر اليمن وسائر الأعمال المضافة اليه برا وبحرا وسهلا ووعرا ونازحا ودانياً وقريبا ونايئا.. حتى خصك من ملابس الامامة بشريف الحباء».

وهكذا بقيت السيدة الحرة بعد موت زوجها تدير دفة السياسة اليمنية، فأظهرت كفاءة نادرة في ادارة شؤون البلاد، ويقظة تامة في أمور الدعوة الاسماعيلية. ولم يعمر عبد المستنصر طويلاً، فقد وافته المنية أثر مرض عضال، فعاد الخلاف يزر قرنه من جديد بين الداعي سبأ بن أحمد المظفر (الذي كان يهدف الى حكم اليمن والتزوج من السيدة الحرة)، وبين السيدة الحرة التي أظهرت كرهها لهذا الزواج واستعدت للقتال.

وبالفعل اشتعلت نيران الحرب بينهما أياما، وكادت أن تعم جميع أنحاء المملكة اليمنية لولا أن تدخل قسم كبير من الأمراء الصليحيين والرواحيين لفض النزاع، خشية أن تتعرض الدعوة للانهيار، ولقد أعلنت السيدة الحرة، بأنها لن تجيب الداعي سبأ الى مراده الا بأمر الإمام المستنصر فأوفد الداعي سبأ بن أحمد الى الإمام المستنصر رسولين، هما القاضي أبو عبد الله الحسين بن اسماعيل الأصبهاني وأبو عبد الله الطيب. ليعرضا الأمر على الإمام عسى أن يوافق على هذا الزواج حقنا لدماء الاسماعيلية. فلما وصل هذان الرسولان الى القاهرة وعرضا الأمر على الإمام المستنصر الذي لم يرض عن بقاء هذا النزاع بين أنصاره، فكتب الى السيدة الحرة يأمرها بقبول أمر الزواج، وأرسل كتابه مع أحد الأستاذين ويعرف بحامل الدواة يمين الدولة، فسار بصحبه هذين الرسولين حتى دخلوا على السيدة الملكة، وهي بدار العز في ذي جبلة. فتكلم الأستاذ الرسول وهو واقف بين وزرائها وكتابها وأهل دولتها قيام لقيامه، فقال: «أمير المؤمنين يقرأ السلام على الحرة الملكة السيدة

الرضية الطاهرة الزكية وحيدة الزمن سيدة ملوك اليمن عمدة الاسلام ذخيرة الدين عصمة المؤمنين كهف المستجيبين ولية أمير المؤمنين كافلة أوليائه الميامين، ويقول لها: وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أن يكُونَ لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا. وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الداعي الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبي حمير سبأ بن أحمد المظفر الصليحي، على ما حضر من المال وهو مائة ألف دينار عينا وخمسون ألفا أصنافا من تحف ولطائف وطيب وكساوى». فقالت: «أما كتاب مولانا فأقول: إني ألقي إلّي كتاب كريم، أنه من سليمان وأنه بسم الله الرحمن الرحيم، ولا أقول في أمر مولانا: أيها الملأ أفتوني في أمر ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون. وأما أنت يا ابن الأصبهاني! فوالله ما جئت الى مولانا من سبأ بنبأ يقين، ولقد حرفتم القول عن موضعه، وسولت لكم أنفسكم أمرا فصبرا جميلاً والله المستعان على ما تصفون» ، وأعلنت عن قبولها بهذا الزواج تحقيقاً لرغبة أمير المؤمنين.

وبالرغم من أن السيدة أروى أصبحت زوجة للداعي سبأ فانها لم تمكنه من السيطرة على شؤون البلاد بل استأثرت بالسلطة وظلت موالية للمستنصر حتى وفاته، والدليل على ذلك الرسائل العديدة التب تبودلت بينها وبين الإمام المستنصر ووالدته وأخته.

وتوفي ابن الملكة الأصغر وهو الأمير محمد بن أحمد المكرم في حياة أخيه علي بن أحمد.

ولما توفي الامام المستنصر سنة ٤٧٨ هجرية وانقسمت الاسماعيلية على نفسها الى نزارية ومستعلية أيدت السيدة الحرة أبا القاسم المستعلي فساعد هذا التأييد الخليفة المستعلي ووقف حائلاً دون تسرب الدعوة النزارية الى بلاد اليمن مدة من الوقت.

ظلت السيدة الحرة تعمل جاهدة في سبيل نشر الدعوة المستعلية في اليمن وتقويتها حتى أعلن الخولانيون انضمامهم للدعوة النزارية سنة ٥٠٤ هجرية فاشتد النزاع بينهما، فأخذ الخليفة المستعلي يقدم المساعدات والامدادات للسيدة الحرة، ولما تعقدت الأمور، أرسلت السيدة الحرة الى مقر الخلافة بمصر تطلب منها ارسال من يساعدها في تدبير شؤون دولتها، فشعرت الخلافة الفاطمية بأن مركز الدولة الصليحية بدأ يتزعزع، فبادر الوزير الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥١٣ هجرية الى ارسال الأمير الموفق علي بن ابراهيم بن نجيب الدولة بصحبة عشرين فارساً مختارة منتقاة الى بلاد اليمن، ليقوم بهذه المساعدة. ولما وصل الى اليمن اشترك مع السيدة الحرة في ادارة شؤون البلاد، وأخذ يشن الحملات لاعادة الاستقرار والهدوء.

مما أثار حقد الأمراء اليمنيين، فأخذوا ينتهزون الفرص للتخلص منه. وفي سنة ٥٢٠ هجرية أوفد الخليفة الفاطمي الآمر رسولا من قبله الى اليمن، فلم يستقبله ابن نجيب، فاستغل الأمراء والدعاة هذا الموقف واستمالوا الرسول الذي أوعز اليهم بأن يكتبوا الى الخليفة الفاطمي كتابا يتهمون فيه ابن نجيب بأنه يدعوهم للدعوة النزارية. وأن ابن نجيب قد ضرب سكة نزارية ووزعها في البلاد..

ولما علم الخليفة بالأمر عهد الى الأمير الموفق بن الخياط بالقبض على ابن نجيب وارساله الى مصر، ولكن السيدة الحرة لم توافق على هذا التدبير فكتبت الى الخليفة كتابا تشفع فيه بابن نجيب وأرسلته مع كاتبها محمد ابن الأزدي، غير أن رسولها لم يصل الى القاهرة كونه أغرق في البحر عند باب المندب نتيجة مؤامرة دبرها الخصوم.

فعمد أعداء ابن نجيب الى اعتقاله وارساله في قفص من الخشب الى القاهرة حيث أعدم سنة ٥٢١ هجرية، فجزعت السيدة الحرة لوفاته، واختارت السلطان علي بن عبد الله الصليحي للدفاع عن

دولتها. وفي سنة ٥٣٢ هجرية توفيت السيدة الحرة وكان موتها سبباً في أفول نجم الدعوة الاسماعيلية في اليمن وضياع النفوذ الفاطمي»[١].

تطور المرأة العربية في العصر الحديث:

ذكرنا فيما تقدم من صفحات أن المرأة العربية بصورة خاصة والمرأة المسلمة بصورة عامة كانت في أكثر البلدان تلزم خدرها، وتحتفظ بحجابها، وتظل متمسكة بعاداتها وتقاليد بلادها حتى اشتعلت نار الحرب العالمية الأولى، وأعقب هذا الحرب دخول الدول الأجنبية أغلب البلدان العربية والاسلامية التي كانت تخضع قبل الحرب للحكم العثماني.

ولما دخلت الجيوش الأجنبية، دخل معها العديد من العلماء والمثقفين والأدباء الذين بادروا على نطاق واسع الى افتتاح المدارس والمؤسسات العلمية والأدبية، وقد رافق هذا النشاط التعليمي والأدبي الأجنبي، إقبال الطلاب والطالبات على هذه المدارس ودور العلم والمعرفة لارتشاف العلم والمعرفة.

وبالإضافة الى هذا الاقبال على المدارس ودور العلم، اختلط المواطنون بالجاليات الأجنبية مما أدى الى تطوير النشاط العلمي والثقافي في هذه البلاد المتخلفة. ومن البديهي أن يكون للمرأة المسلمة نصيب كبير من هذا التطور، وحظ وافر من هذا التقدم مسايرة مع ركب الحضارة الناهد الى السمو والرفعة، رغم محاولات السلطان عبد الحميد وغيره في صدد ابقائها ضمن نطاق خدرها وعاداتها.

ولما وقع الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ واستبدت جمعية الاتحاد والترقي بالحكم في السلطنة العثمانية، تحسن الموقف بالنسبة للمرأة. فالاتحاديون كانوا قبل أن قاموا بهذا الانقلاب يعيشون مشردين في

(١) أعلام الاسماعيلية- د. مصطفى غالب ص (١٥٠- ١٥٣).

أوروبا، ومن جراء احتكاكهم بأهلها كانوا قد أيقنوا أن الاصلاح في الشرق يجب أن يبدأ بتحرير المرأة، غير أن نفوذهم في هذه الناحية ظل في أول الأمر، محدوداً، حتى اذا نشبت الحرب العالمية الأولى بين (١٩١٤ الى ١٩١٨) وتمتعوا بحرية التصرف المطلق، خفّوا الى تنفيذ سياستهم، وكان في عدادها تحرير المرأة، ولاسيما في الاقطار العربية-العثمانية وكان لهم في هذا التحرير مأرب آخر يتصل بسياستهم الرامية الى تتريك العناصر الأخرى على اعتبار أن الأم هي المربية الأولى.

وعندما نشبت هذه الحرب كان بعض الأجانب في بلاد الشام قد أقفلوا مدارسهم، فوجد الاتحاديون بذلك فرصة سانحة لتطبيق هذا البرنامج ، وسرعان ما أوفدوا الى سوريا السيدة خالدة أديب، أديبتهم المشهورة، وذلك بالاتفاق مع أحد أركان جمعيتهم جمال باشا، الذي كان قد عين في العام الأول من الحرب قائداً عاماً للجيش الرابع، مطلق (الصلاحية) في الشؤون الحربية والادارية في بلاد الشام.

وقد عهد الى هذه الأديبة بدراسة الأحوال في سوريا. وبعد أن مكثت فيها مدة، عادت الى اسطنبول، ثم لم تلبث الا قليلاً حتى قفلت راجعة الى بلاد الشام، مصحوبة بفريق من المعلمات التركيات وعلى رأسهن شقيقتها نيكار عثمان خانم، وهي أيضاً من الأديبات التركيات المعروفات.

وكانت الحكومة قد صادرت الكليات والمدارس الأجنبية المقفلة، فسلّمتها الى هذه البعثة، وأغدقت عليها الأموال، ومنحت خالدة أديب وشقيقتها نفوذاً كبيراً الى حد أنهما كانتا تستطيعان الحصول على اعفاء من تشاءان من الخدمة العسكرية. وكان من نصيب هذه البعثة في بيروت احتلال كل من دير الناصرة، مقر مدرسة البنات الافرنسية، وقسم من كلية الآباء اليسوعيين المعروفة بالقديس يوسف، فحولتاهما الى مدرستين للبنات.

وقد أقبلت الأوساط الشعبية على هذه المدارس أيما اقبال، بيد أن العائلات الأخرى البيروتية- ولا سيما - الارستقراطية، قابلتها بالانكماش. ذلك لأن هذه الأسر كانت، بالاضافة الى عروبة مبادئها، قليلة العناية باللغة التركية، وترى في الأعمال التجارية المجدية غنى عن الوظائف الحكومية، وذلك خلافاً لسائر البلاد العربية - العثمانية.

وكانت هذه المدارس في الواقع، مصدر نفع ثقافي مرموق في بلاد الشام، وكانت في نفس الوقت مجدية للدولة من حيث أمانيها في نشر اللغة التركية وفي تأليف القلوب حول الأتراك. كما أن بعثات المعلمات التي أوفدتها حكومتا دمشق وبيروت وغيرهما الى اسطنبول للتعلم في مدارسها أدت للبلاد وللدولة مثل هذه الفوائد. بيد أن الناس كانوا على وجه عام يؤاخذون طالبات تلك المدارس التركية وخريجاتها على تصرفات وأعمال كانت لا تتفق حينئذ مع تقاليد البلاد. وكان مردها للانتقال فجأة ودون استعداد من نطاق المحافظة الى مستوى حياة اسطنبول المتقدمة في حريتها. وكان الناس وقتئذ ينتقدون تلك المدارس بسبب الحرية الواسعة التي انتشرت في رحابها، ولا سيما حيث اقامة الحفلات المختلفة، وما يرافق بعضها من الرقص والخلاعة.

والواقع أن نفوذ الاتحاديين في حدود انطلاق المرأة لم تقتصر على هذه المدارس وطالباتها، بل لم يلبث أن تعداها وشمل العائلات المحافظة في بلاد الشام عامة، وفي بيروت بصورة خاصة حيث انكمشت تلك الأسر عن مدارس الحكومة، وانتقدت تصرفاتها. فالناس على دين ملوكهم. فاذا بنا نرى سائر النساء يقلدن مديرات تلك المدارس في الأزياء والتبرج، وفي تصفيف الشعر، ويقلدنهن أيضاً في الملابس والأزر. وراجت وقتئذ ربطات للرأس كان يطلق عليها «نيكارة» نسبة الى نيكار خانم المشار اليها.

ويحدثنا الأستاذ محمد جميل بيهم في مقال له نشره في العدد الثاني

والعشرون من مجلة العربي التي تصدر في الكويت عن هذه الفترة في عهد والي بيروت، عزمي بك فيقول: «ومن حسن الحظ أن هذا التطور الذي أصاب نساءنا خلال الحرب لم يقف عند حد الأزياء والمظاهر، بل تعداه الى الجوهر. فقد كان هذا الوالي مخلصاً في تحرير المرأة، رغّاباً في رفع مستوى المسلمة الى مستوى غيرها من المواطنات. وكان الى حرصه على توثيق الصداقات بينه وبين أعيان البلاد، لا يفتر يثير الحماس مع هؤلاء لإشراك السيدات في الأعمال الاجتماعية. وقد أصاب نجاحاً مرموقاً حينما حملهم في بيروت على انشاء نادٍ للفتاة المسلمة، وكان أول ناد من نوعه، فاذا بفتياتنا اللواتي كن بالأمس على عزلة تامة عن الهيئة الاجتماعية، إذ بهن يبرزن نشيطات الى الميدان فيعقدن الاجتماعات في النادي، ويحيين فيه الحفلات لسماع مشاهير الأدباء والعلماء واذا بنشاطهن يتعدى النادي الى نطاق انشاء مدرسة مجانية للفقيرات، وكانت عضوات النادي يتولين بأنفسهن ادارتها واعطاء الدروس فيها. وأكثر من ذلك، فان عزمي بك استطاع اقناع الأسر الكبرى من كل الطوائف بأن من واجب سيدات البلد المبادرة الى العمل لتخفيف حدة البؤس عن ضحايا الحرب. فاذا بنا نراهن، على اختلاف طوائفهن، يضعن اليد باليد، ويخففن نشيطات الى مساعدة المحتاجين، ولا سيما عائلات المجندين، فيُدرن المطاعم المجانية، ويُشرفن على دار الصنائع والمؤسسات الخيرية».

ولما عُين جمال باشا والياً على بلاد الشام، حدد من نشاطات المرأة ان لم نقل أوقف كافة النشاطات الثقافية والاجتماعية للمرأة التي كانت تعيش في بلاد الشام وتحاول ممارسة واجباتها الاجتماعية والانسانية لتساهم في تطور وتقدم بلادها. ولكن محاولات جمال باشا هذه باءت بالفشل ولم تتمكن من وقف تيار تطور المرأة العربية حيث انقلبت المرأة الى امرأة تشعر بوجودها وبالتبعات الملقاة على عاتقها، فتخرج من منزلها وتزور من تشاء من معارفها وتساهم في الجمعيات والحفلات.

ولما ذهب جمال باشا الى حيث ألقت رجلها أم قشعمي وتوقفت سياسة التتريك التي كان يحاول تطبيقها في بلاد الشام، فتحت الأبواب على مصاريعها أمام المرأة المسلمة لتتحرر من التقاليد الاجتماعية البالية، فأقبلت على طلب العلم تتأبط الكتب المدرسية وهي رافعة الرأس، تفتخر بتطورها وتقدمها نحو الأفضل.

فالمرأة المسلمة التي كان محظوراً عليها مغادرة بيتها لوحدها نراها تعمل لمستقبلها وتحاول أن تحتل نفس المكان الذي يحتله الرجل. فتحملت مشقات الأسفار لتساهم مع زوجها في بناء أسرتها.

ولما انتهت الحرب العالمية الأولى، خرجت الفتاة المسلمة لتؤلف الجمعيات وتنشيء النوادي وتقيم المعارض وتصدر المجلات وتشارك في ادارة المؤسسات الثقافية والاجتماعية والتعليمية. وما عتم ان وصلت المرأة المسلمة بعد فترة وجيزة الى مرحلة عالية من التعليم والثقافة فدخلت الجامعات وحصلت على أعلى الدرجات حيث أصبح منهن المحاميات والطبيبات والمهندسات والمربيات والخبيرات في كافة الشؤون الاجتماعية. وفي بعض الأقطار العربية منحت المرأة أعلى المناصب بالاضافة الى حق الانتخاب والمساواة مع الرجل.

واذا أردنا أن نعطي فكرة واضحة جلية عن تطور المرأة العصرية لا بد لنا من الرجوع الى كتاب عنوانه (المرأة العصرية)[1] وضعه طبيب نفساني زاول مهنته مدة طويلة، تعرف خلالها على الجوانب النفسية لمختلف الأنماط النسائية من حيث السن، والثقافة، والوسط الاجتماعي، واستطاع أن يصل الى أعماق شعورها وفكرها وأن يكشف عن مكنوناتها، فحللها في كتابه تحليلاً نفسياً واجتماعياً واليك ما يقوله حول ماهية المرأة العصرية: «اذا سلمنا بأن المرأة العصرية هي نتاج

(١) تأليف الدكتور اينسلي ميرز.

التطور الاجتماعي الذي يجري من حولنا فمن حقنا أن نتساءل عن الخصائص الأساسية التي تميز المرأة العصرية عن سابقتها والتي نطلق عليها المرأة التقليدية؟ إنها تحاول جاهدة التوصل الى حياة أفضل للنساء، وتكافح من أجل تحقيق المساواة في الفرص مع الرجل كي تستمتع بكامل الحياة، وتسعى الى حق تقرير أمورها، دون وصاية من أحد عليها، ومن بينها حق تقرير مصيرها كمخلوق بشري يتمتع بجميع حقوقه. ان المرأة العصرية تتميز بأنها مؤكدة لنفسها، ومتحررة الى حد ما من سلطان العاطفة في مقابل الميل نحو العقل والمنطق»[1].

إن أول ما تطالب به المرأة العصرية هو مطلب المساواة فشعارها الذي تردده دائماً: «إنني مثل الرجل تماماً عدا كوني امرأة وكونه رجلاً». ويبدو أن مطلب المساواة بالنسبة للمرأة العصرية أصبح تعبيراً عن عدم ارتياحها العام، فهي تطلب المساواة بالحاح شديد، على الرغم من عدم وضوح ذلك في ذهنها وضوحاً تاماً، وإذا ما حللنا هذا الوضع من الزاوية النفسية نرى أن مطلب المساواة هذا ذو شقين بارزين: الأول يتعلق بالحقوق التي تؤهل المرأة العصرية لها. بينما الثاني يبين لنا أن مطلب المساواة نفسه ما هو إلا مجرد تعبير عن عدم الراحة مع نفسها، إذ هي دوماً تقول: «ان الأمور تسير بعكس ما تريد المرأة».

إن من مظاهر المساواة بين الرجل والمرأة- كما تراها فتاة اليوم - تحمل أعباء البيت وتقسيم الأعمال المنزلية حتى يكون لديها متسع من الوقت تمارس فيه أمورا خارج البيت، وتأخذ نصيبها كالرجل من متع الحياة. فالحياة ليست للرجل وحده، إنها لها أيضاً، فهي وهو شركاء شراكة متساوية فيها. وكذلك ينبغي أن **تعطى** لها فرص متساوية مع الرجل حتى تشاركه في اعداد العمل وتنفيذه، وأن تتساوى بالرجال في

---

(١) كتاب المرأة العصرية- اينسلي ميرز - عرض الدكتور محمد علي الفرا.

جميع المجالس المختلفة التي تسيطر على الدولة وتسير شؤونها. ولكن المرأة العصرية تنسى أحياناً أن المساواة المادية مع الرجل لا تؤدي بالضرورة الى المساواة بالخبرة الداخلية. ولتوضيح ذلك نقول: بأن ممارسة المرأة نفس العمل والنشاط الذي يقوم به الرجل لا يكسبها نفس الرضا الذي يناله الرجل من هذا العمل والنشاط. وهذا يتضح حين اختيار برامج التلفاز مثلاً. فهناك مواضيع ترضي النساء بينما أخرى ترضي الرجال، كذلك فان اهتمام الجنسين يختلف بالنسبة لمشاهدة مباراة كرة القدم. ونفس الشيء ينطبق على أمور المهنة والوظيفة.

فالمرأة العصرية ليست عادلة بحق نفسها اذا طلبت التساوي بالرجل في الأعمال، والأفضل لها أن تطلب لنفسها فرصاً متساوية مع الرجال، كي تعمل ما تشعر بأنه يرضي ذاتها ويحقق طبيعتها وخلقتها من أن تحاول عمل ما يقوم به الرجل بالضبط دونما تمييز يخدم اختلاف تكوين الجنسين.

والمرأة الحديثة دائماً تبسط فكرة المساواة، فنراها تكرر القول بأنها كالرجل تماماً، ولا تختلف عنه إلاّ من حيث الإنجاب، فعقلها مثل عقله، وفي رأينا أن هذا يسيء للمرأة ولا يخدمها، فهي ولا شك مختلفة عن الرجل حتى من حيث تكوين دماغها. وعلى المرأة أن تكون واضحة وصريحة وواقعية حينما تطلب المساواة التي لا تجيء عن طريق مزاولة نفس الأعمال التي يؤديها الرجل، ولكن ينبغي عليها أن تبحث في المساواة عن طريق تطوير وتنمية قدراتها الكاملة كمخلوق بشري مثلها في هذا مثل الرجل تماماً.

ومن مظاهر المساواة التي تعلق عليها المرأة العصرية كبير الآمال ما يتعلق بالمجتمع من حيث أنظمته وقيمه، وهذا ينبع من شعورها بأنها دون الرجل احتراماً. فالأدب والمجاملات التي يبديها الرجال نحو النساء هي كلها في نظرها عبارة عن مظهر كاذب ورقيق يخفي حقيقة نظرة

الرجل الدنيا للمرأة. وبناء عليه فإن هذا النمط من سلوك الرجال نحو النساء، يؤكد ويزيد من ذنب الرجل الذي يرتكبه بحق المرأة. وفي نفس الوقت يسحب البساط من تحت قدمي المرأة، ويفقدها الأساس العادل لشكواها. إنها تشعر في أعماق نفسها بأن الرجل يخفي وراء هذا المظهر السلوكي الاستعراض الكاذب في حقيقته عدم احترامها، وأنها ليست مساوية له في الاحترام، فآراؤ ها تهمل وأفكارها تنبذ، وكثيراً ما استخدمت لمجرد السخرية والتفكه. إن المرأة تتألم من هذا الوضع، وتحاول تغييره وتصحيحه، بل تعتبر هذا ظلمًا مسلطاً عليها لا بد من التخلص منه.

وقد نشأ عن هذا الشعور لدى المرأة رد فعل عنيف في داخل نفسها، وتمثل في سلوكها وتصرفاتها وانفعالاتها، لعل من أبرز مظاهره أنها تطرفت في مبدأ المساواة، وغالت فيه حتى أصبحت لا تتبين النافع لها من الضار، فهي كما قلنا تطلب المساواة في الأعمال التي لا تناسبها، وتسعى لتقليد الرجال في كل شيء، ابتداء من الزي والملبس الى طرق التفكير والتفاعل مع الأحداث، وهذا كله ناجم من قناعتها الذاتية بأن هذا وضعها في الطريق الصحيح للمساواة مع الرجل. ولكن للأسف فات المرأة أن تدرك بأن مطالبها هذه تعبر عن مشكلة نفسية توضح المنظر الخارجي لقضية المساواة.

أما المساواة الحقيقية فهي شيء مختلف تماما لم تتوصل المرأة الى فهمه تماما. إن المساواة في رأينا يمكن أن تتعايش مع اختلاف طبيعة كل من الرجل والمرأة.

أما ما تنشده المرأة العصرية هو أن يكون لها وحدها الحق في تحديد مصيرها وتقريره، ولا تريد أن تخضع لضغوط المجتمع الذي يسيطر عليه الرجل. وقد قبلت المرأة التقليدية الحياة كما فرضها عليها المجتمع وارتضاها لها.

ولكن المرأة العصرية لم ترض بهذا، فهي تكافح من أجل صياغة حياتها الخاصة بالطريقة التي تريدها وتبتغيها. كذلك فان المرأة التقليدية تميل الى تقبل أحكام المجتمع ولا تمانع في أن تخضع حياتها للمؤثرات الخارجية عن ذاتها، فهي بذلك تسير على نمط الحياة المنزلية ذات السلطة الأبوية، فاذا تقلدت وظيفة قبل زواجها، فانها تكيف نفسها فيها باجراء تعديلات على نفسيتها مما يترتب عليه تعديل سلوكها ومسلكها حتى تتمشى مع واقع الحال. وحينما تتزوج، فإنها تسمح بالتعديل الذي يشمل نمط حياتها، والذي يتحدد بحسب الظروف النفسية لزوجها. وبناء عليه فان تكيفها هذا مع الواقع الجديد مستمد من مؤثرات البيئة، وليس من مؤثراتها الذاتية، أي أنها تكون بمعنى آخر سلبية تتأثر ولا تؤثر. إلّا أنه على الرغم من هذه السلبية فقد تكون أحياناً انتقائية فتختار العناصر البيئية المحببة لها، وتستخدمها لصالحها بينما تتجاهل غيرها من العناصر التي تنفر منها. انها أذن مسألة اختيار أفضل ما هو متوفر لديها من امكانيات، فاذا كان الزواج لا يحقق آمالها وطموحها، فإنها تعمل على تقبل رضا الجوانب الطيبة منه، وفي نفس الوقت تتحمل الجوانب التي تراها غير مريحة لها.

وعلى العكس من ذلك تماماً نجد المرأة العصرية لا تتقبل الحياة، كما هي بل تكافح من أجل تقرير مصيرها، وهذا جزء من فلسفتها الأساسية. فاذا شعرت أنها غير مرتاحة لمستويات السلوك المطلوب من جانب والديها فإنها لا تحاول أن تكيف نفسها سلبياً لهذا الوضع كما تفعل المرأة التقليدية، ولكنها تترك البيت، وتقرر مصيرها طبقا لمعايير السلوك التي تخلفها في ذهنها، واذا لم ترض عن أحوال عملها وظروفه وشروطه، فأما أن تتركه وتطلب عملاً آخر في أي مكان ترى أنه أكثر تناسبا معها، أو تحاول بطريقة أخرى تعديل تلك الظروف. ونفس الشيء ينطبق على الزواج، فلو وجدته غير محتمل بالنسبة لها فإنها تعمل

على فصمه، ولا تحاول تكييف نفسها طبقا لمتطلباته لايمانها بأن هذا لن يرضي تطلعاتها، ولن يحقق غاياتها وأهدافها. أما اذا وجدت في الزواج أمورا طيبة وأخرى سيئة فلن تروض نفسها على الزواج بخيره وشره، بل يكون قصدها المكافحة من أجل تغيير الأشياء التي تراها سيئة ليصبح الزواج بالنسبة لها كله حسناً.

ومن مظاهر الاختلاف الجوهري بين المرأة التقليدية والمرأة العصرية فيما يختص بالزواج، أن الأولى تحاول مطابقة زوجها والسير على نهجه وهداه وارشاداته، وهذا يحتم نمط حياتها، ويقرر رضاها الذاتي. وبسبب هذا التطابق فإنها تشعر بالرضا والسعادة كلما حقق زوجها نجاحاً في حياته، وتقدما في عمله، أنها بهذا تشاركه عاطفياً في كل ما يعمله ويمارسه ويحققه كما لو كانت هي شريكة له في العمل والممارسة والتحقيق.

أما المرأة العصرية فليس عندها شيء من هذا كله. فسعادتها المستمدة من نجاح زوجها تأتي عندها في المرتبة الثانية، ان سعادتها الحقيقية، وفي الدرجة الأولى، تستمدها من ممارستها هي بنفسها العمل والتنفيذ، وبدون ذلك تشعر بأنها سلبية ولا تشعر بالرضا والسعادة عن حالها وواقعها.

إلى جانب حق تقرير المصير تطالب المرأة اليوم بأن يكون لها قولاً فعالاً ومؤثراً في تطور المجتمع الذي تعيش فيه، وتسهم في بنائه، ففي الماضي كان صوت المرأة قليل الشأن لأن رغبتها تتمشى آنذاك مع رغبة زوجها، وكانت آراؤها السياسية مستمدة من آرائه. ولكن هذه الأمور تغيرت اليوم مع ظهور ما أسميناه بالمرأة العصرية التي تستخدم صوتها بشكل مستقل في ترجمة صراعها الداخلي إلى الواقع الخارجي للمجتمع، دون أن تظل سائرة خلف الرجل أو مستترة في ظله.

وتطالب المرأة العصرية اليوم بممارسة نشاطات خارج مملكة البيت

وهذا يمكن تحقيقه اذا ما خففت الأعباء المنزلية عنهن من اهتمام ورعاية بشؤ ون الأطفال وتدبير المنزل وادارته، الى غير ذلك من أعمال تستنزف كل وقت المرأة التقليدية. فالسعادة في نظرهن ليست في هذه الأعمال، وإنما يمكن تحقيقها بالتحاق المرأة بالمهن والأعمال خارج المنزل، وحتى ما كان منها تجارية كانت في السابق وقفاعلى الرجال دون النساء. فالأعمال التجارية تكسب المرأة الحركة والنشاط والاحتكاك بكل مستويات المجتمع. ولكن بعض النساء معتدلات في مطالبهن، اذ لا يرون بأساً من التوفيق بين العمل في البيت والعمل خارجه.

وتقول المرأة العصرية أنها تعتبر الحرية ذات قيمة عالية جدا، فهي لذلك تطلب المزيد منها، ولكن الحرية وحدها يمكن أن تولد الحيرة التي بدورها تقيد الفرد، ذلك لأننا نعيش في مجتمع يتميز بأن سلوكنا فيه يسير وفق قواعد وأسس مسلكية محددة. وهذه القواعد أكثر صعوبة على النساء منها على الرجال، والمرأة العصرية في مسيرتها نحو الحرية ترغب في نبذ القواعد والأسس وتريد أن تترك الناس ليصبحوا أحراراً يعملون ما يشاءون بشرط أن لا يتسبب هذا في إيذاء الآخرين. وبذلك يتم انقاذ النساء من العيش المزعج تحت قسوة هذه القواعد والقوانين الاجتماعية التي هي من وضع الرجال.

ويقال بأن المرأة العصرية جاءت بمفهوم جديد للأنوثة يختلف عن المفهوم الذي نادت به من قبلها المرأة التقليدية. وطبيعي أن هذا الموضوع من الصعب الخوض فيه، لأننا لا نملك المقياس الدقيق الذي به نحدد ما نعنيه بالأنوثة. فالأنوثة كما هو شائع لدى الناس هي صفة من صفات المرأة التي تميزها عن الرجل، أي كونها أنثى، وعكسها كون الرجل ذكرا. ولكن المرأة العصرية لها في هذه المسألة وجهة نظر مخالفة، الّا أنها لم تتمكن من صياغتها الى مفهوم واضح، ولهذا سنحاول حل هذا الغموض اذا ما أردنا فهم المرأة العصرية.

لا شك في أن المرأة التقليدية ترى أنوثتها من خلال تلك الصفات الجسدية والعقلية التي تجذبها الى الرجال وتجذب الرجال اليها، وهذا ما يميزها عن الرجل، أن لها جسم امرأة بكل مغرياته، ولها عقل امرأة مزود بحساسية وقدرة تستشعر بهما ما يحتاجه الرجل، وهي تتفاعل وتستجيب بطريقتها التي زودت بها. ولكن المرأة العصرية ترى أنوثتها بشكل مختلف فهي ترى نفسها كائناً بشرياً أصبح امرأة بطريقة لا خيار لها فيها، قد يكون صدفة، ولذلك ليس في الأمر طلاسم والغاز.

وفي هذا الصدد تقول المرأة العصرية: «إنني نوع معين من البشر يمكنني أن أجعل الرجال سعداء اذا أردت. وفي مقدوري أن يكون لي أطفال إذا رغبت. ومن نواح أخرى، فإنني بشر عادي ـ لا يختلف عن الرجل ـ أريد المشاركة في الحياة التي تجري من حولي».

إن هذا ولا شك مفهوم جديد، فالمرأة العصرية يمكنها جذب الرجال وانجاب الأطفال وفوق هذا وذاك تريد المشاركة في مجريات الأحداث وحوادث العصر الذي تعيش فيه والبيئة التي تحيا عليها والمجتمع الذي تشارك في بنائه.

إن المرأة العصرية تعبر عن آرائها المغايرة عن مفهوم الأنوثة نحو موقفها من الرجال، إنها على حد قولها لا تريد أن تكون الدمية المحبوبة، والسلوى التي يتسلى بها الرجال، ويعبثون اذا ما أرادوا الترويح عن نفوسهم، إنها تشعر بأن هذا الدور الذي خصصه لها الرجل يقلل من شأنها، ويدني من مستواها، ويجعلها دون الرجل مكانة وقيمة.

إن المرأة التقليدية ترتدي ملابسها التي تصممها بطريقة تعبر عن مفهومها للأنوثة، وهي كيفية جذب الرجل اليها، والذي يرى في أنوثتها أكبر سعادة له. أما المرأة العصرية فالأمر عندها مختلف، فتلبس من

الملابس ما يشف عن مفهومها المتغير للأنوثة، إنها ملابس تسير بها نحو عالم الرجل، فترتدي ما يرتديه الرجال، وهي بذلك تعبر عن فكرتها التي تنادي بها والتي مؤداها «يمكنك أن ترى بأنني لست مختلفة عنك كثيراً أيها الرجل، إنني مخلوق مثلك الا أنني امرأة وأنت رجل، أريد أن أقاسمك من مظاهر الحياة، وافعل كما تفعل أنت».

والمرأة حينما ترتدي البنطال (البنطلون) اذن انما تتشبه بالرجل، تخفي ذلك بالتعليل أنه أكثر راحة لها، وأكثر مناسبة وأشد دفئاً لها، خصوصاً في حالة العمل وفي مهنة تعرضها للأوساخ. ان هذا هو التعليل الذي تتعلل به لشيء يكمن داخل أعماق شعورها. إذ من الصعب أن تقول الفتاة بأنها تلبس هذه الأشياء لتعبر عن تغير مفهوم الأنوثة عنها.

ومما لا شك فيه بأن التعليم قد لعب دوراً رئيسياً في اظهار المرأة العصرية وخلقها، وذلك يجعلها وجهاً لوجه أمام مسألة عدم المساواة الجنسية في مجتمعنا. وطالما ظلت المرأة متمسكة بالتعليم الذي يؤهلها للحياة الاجتماعية الحالية ويجعل منها مجرد انثى للرجل، ويلقي على عاتقها مسؤولية حمل الأطفال وولادتهم، وواجبات المنزل، فليس هناك امكان لها كي تشارك بطريقة واقعية في حياة المجتمع. حتى في علاقاتها الاجتماعية الحالية يكون دورها بسيطاً أقل من دور الرجل، فوظيفتها هي جلب السرور للرجل الذي يفوقها مكانة أو بتعبير أدق آخر أنه دور جنسي لا أكثر ولا أقل. أما لذتها هي فتأتي في الدرجة الثانية. وقد ترك لها الرجل أمر الأطفال وشؤون المنزل وهي تعتقد أنها بذلك مواطنة من الفئة الثانية.. وعلى الرغم من أن في مقدورها أن تحب، ولكن لا تقدر على تعدي هذه المرحلة، فهي لا تستطيع الاتصال بزوجها بأية طريقة حقيقية، لأنه ليس لديها إلّا معرفة بسيطة عن العالم من الناحية السياسية والاجتماعية أو فيما يختص بالعمل.

ولكن تعليم هذا العصر غيّر كل هذه الأمور، فأصبحت المرأة اليوم تدرك كثيراً من شؤ ون العالم وفي امكانها أن تأخذ مكانها اللائق على أساس من المساواة مع الرجل. إلاّ أنها لا تشعر بالأمان من تعليمها الحالي. وهذه الخطورة تستشيرها أحيانا مما يجعلها تعبر عن آرائها بصورة عدوانية. وترى المرأة العصرية ن نظام التعليم نشأ من زمن بعيد نتيجة استجابة لحاجات الرجل، ولم يأخذ في اعتباره متطلبات النساء وحاجاتهن. وهي تريد أن تكون كالرجل في هذا المضمار. اذ أنه ـ على حد رأيها ـ كلما كان تعليمها قريبا من تعليم الرجل حقق سعادتها وسرورها.

ومن المؤ كد أن المرأة تؤ ثر تأثيراً كبيراً على المجتمع من خلال مشاركتها في المهن والأعمال المختلفة فبالعمل تشعر المرأة أن باستطاعتها تأكيد ذاتها وشخصيتها وبامكانها نيل حقوقها بالكامل كمخلوق بشري، وهي في نفس الوقت تحقق رضاء عاطفياً وتبرز مواهبها خارج منزلها. ولذلك رأينا في الأونة الأخيرة غزواً كاسحاً من قبل المرأة لكافة المهن والوظائف المختلفة، وكان لهذا آثاره الايجابية والسلبية. ففي المقام الأول اكتسبت المرأة ثقتها بنفسها واستطاعت أن تعبّر عن آرائها وتنقل أفكارها الى زملائها من الرجال الذين ازدادوا لها فهمًا واحتراماً.

أما النواحي السلبية فان اشتغال المرأة، جرّ عليها كثيراً من المشاكل، منها المنافسة التي زادت حدتها بين الرجل والمرأة، وكذلك فقدت كثيراً من العطف الذي كانت تحظى به من قبل.

وخلاصة القول أن التعليم قد أكسب المرأة عدة نشاطات اجتماعية أعطتها ثقتها بنفسها وأمدتها بالقوة والجرأة في التصريح ٩٤ـ ٩٥ هجرية (٧٤ـ ٧٥ ميلادية) في المرحلة الابتدائية وحدها

بآرائها. وبفضل التعليم دخلت المرأة العديد من المهن والنشاطات، منها الطب والكتابة والمحاماة والهندسة والمراكز الاجتماعية الخاصة بالأطفال والعجزة.

أما العمل في الصحافة والكتابة فقد أفاد المرأة كثيراً كونها استطاعت أن تعبر عن آرائها وتؤكد أفكارها وتبسط قضاياها، وقد حققت بذلك نجاحاً يستحق التقدير.

تطور المرأة السعودية:

كانت المرأة السعودية منذ عهد الرسالة الاسلامية معززة مكرمة مدللة محجبة، لا تخرج من بيتها إلّا في الملمات أو اذا دعتها الحاجة للقيام ببعض الزيارات للأهل والأقارب والأصحاب. وكانت أغلب النساء السعوديات تعيش تحت وطأة تعدد الزوجات أو الطلاق بشكل عفوي لا روية فيه ولا تفكير. ولم يكن للمرأة السعودية أي رأي في اختيار عريسها، لأن رضا الفتاة من رضا والدها، حتى العريس لا يرى عروسه، إنما يرسل أهله لرؤيتها. وفي حالة تشككه يبيح له الشرع رؤيتها من مكان خفي يتم تدبيره في غفلة عنها.

ونظام تعدد الزوجات الذي أباحه القرآن الكريم والشرع معروف ومشهور في كافة البلاد السعودية. وفي بعض المناطق في الجزيرة العربية من عادات الزواج وضع حزام سميك من زهور الفل حول وسط العروس، لهذا يلاحظ في كل منزل في منطقة «أبو عريش وأبها» شجرة فل، وقد عرفت تلك البلاد من قديم الزمان بجمال نسائها خاصة في منطقة أبو عريش وأبها حيث قال فيهن الشاعر:

عج بوادي الهضاب في الأسحار ... وترنم هناك بالأوتار
بربا «بي عريش» حيث الغواني ... لابسات الحجول والأسوار
الصبا والصبا بها يا معنى ... وطلوع البدور والأقمار

وقصة تطور المرأة السعودية تختلف عن قصص تطور المرأة العادية في مختلف بلاد العالم حيث لم يبدأ نشاطها التعليمي وخروجها من المنزل بمفردها لقضاء حاجاتها، أو للذهاب الى المدرسة أو الجامعة، إلّا منذ فترة قصيرة لا تتجاوز بضع سنوات، حيث كانت تعامل بنفس الأسلوب الذي كان متبعاً في العصور القديمة المتأخرة ليس لها أي حق من الحقوق إلّا بإذن من رجلها وما تكاد تبلغ العاشرة من عمرها حتى يفرض عليها الحجاب وتقبع في المنزل. واذا حدث واضطرت للسير في الشارع، فإن الرجال يسيرون على الرصيف المقابل لخط سيرها.

أما في بعض القرى والدساكر فكانت المرأة تشارك الرجل في عمله تزرع وتحطب وتسقي، وتتحدث مع الرجل في جرأة وشجاعة، كل هذا يتم في أدب واحترام متبادلين.

ولما عمت النهضة الحديثة كافة أنحاء المملكة العربية السعودية، وانفتحت أبواب المملكة على العالم، نالت المرأة من هذه النهضة حصة كبيرة، حيث اهتمت بشؤونها ورعايتها الدولة وخاصة ما يتعلق بالشؤون الاجتماعية والتعليمية والصحية والزراعية. فأنفقت على النهوض بالمرأة لتلحق الركب المتطور وتغيير العادات القديمة الضارة وتطوير المجتمع، والمرأة، وتشجيع السكان على المساهمة بهذه النهضة المباركة، الملايين من الريالات.

ولم تكد تمضي فترة وجيزة حتى انتشرت مدارس الفتيات في كافة أنحاء المملكة، فخاضت الفتاة السعودية معركة العلم ودخلت المدارس الابتدائية والثانوية والجامعة. وذهب الكثير من الفتيات في بعثات تعليمية الى الخارج حيث أتيحت لهن فرص التعليم جنباً الى جنب مع الذكور على حد سواء.

والجدير بالملاحظة أنه قد بوشر في تعليم البنات على نطاق واسع عام ١٣٨٠ هجرية الموافق ١٩٦٠ ميلادية حيث بلغ في العام الدراسي

٢١٤٠٠٠ طالبة مقابل ٤٠١٠٠٠ طالباً من الذكور. وكان طبيعياً أن ازدياد عدد الطلبة في المرحلة الابتدائية سيؤدي حتمًا إلى ارتفاع مواز في عدد طلاب المرحلة الثانوية، وبالفعل فإن عدد هؤلاء ظلّ في ازدياد مضطرد حتى بلغ ٩٩٣٠٠ طالباً و ٤٦٠٠٠ طالبة.

وعلى المستوى الجامعي بلغ عدد الطلاب ١٥٦٠٠ في عام ١٩٧٥ بينهم ١٠٠٠ طالبة بالاضافة الى كليات تدريب المعلمين القائمة حالياً وعددها أربعة، ثلاث منها في الرياض وواحدة في الطائف.

وعلى سبيل تشجيع الطلاب على اتمام دراستهم بالرغم من اغراءات المناصب في الصناعةِ والادارة الحكومية، فان الحكومة تمنح المتفوقين منهم مكافآت شهرية، أما الراغبون في مواصلة الدراسة بعد المرحلة الجامعية، فيتم ابتعاث اعداد منهم الى الخارج، ليس من قبل وزارة المعارف فقط، بل من جانب الوزارات الأخرى. ويبلغ عدد المبتعثين سنوياً عدداً يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف. ونتيجة لاتباع هذه السياسةَ فإن هناك الآن أكثر من ثلاثمائة سعودي بينهم عدد لا بأس به من النساء، يحملون شهادات الدكتوراه في تخصصات متعددة. بينما هناك أكثر من سبعمائة بينهم عدد من النساء يحملون شهادة الماجستير في الفنون والعلوم.

هذه النهضة المباركة المتطورة للفتاة السعودية لا يعني أن الفتاة السعودية كانت محرومة تماماً من التعليم قبل بضع سنوات، وإنما معناه أن الدولة لم تبدأ بإنشاء مدارس رسمية لتعليم البنات إلّا قبل بضع سنوات كما ذكرنا لأن تعليم البنات في المراحل الأولى لانشاء المملكة كان مقتصراً على العائلات ذات الذهن المتفتح. وكان تعليم البنات، أي بنات هذه العائلات يتم في دار الأسرة، ومن قبل معلمات خاصات على مستوى فردي. ثم تطور هذا التعليم فأصبح على شكل مدارس

للبنات، ولكن هذه المدارس بقيت بعض الوقت من عمل القطاع الخاص الذي لا تدخله الدولة مباشرة، وإن كانت تساهم في دفع بعض نفقاته.

ولما فكرت الدولة أن تشمّل التعليم للبنات ولا تجعله مقتصراً على الأولاد الذكور، قام في المجتمع من اعترض بقوة على مبدأ تعليم الفتاة السعودية أصلاً. في حين قام آخرون ينادون بجواز تعليم البنات، ولكنهم يعارضون بأن تتولى وزارة المعارف هذه المهمة، حتى ولو أنشأت مدارس خاصة لتعليمهن. وبعد بحث طويل تقرر أن تتاح فرصة التعليم أمام الفتيات السعوديات، وأن تقام لهن مدارس خاصة من قبل الدولة، وإن كانْ الأشراف على هذه المدارس قد ربط برئاسة عامة مستقلة يتولى الاشراف عليها المفتي العام للدولة.

رغم ذلك، ورغم أن مناهج التعليم في هذه المدارس قد أفسح فيها مجال مرموق للدروس الدينية، بالاضافة الى الدروس المهنية التي تعين الفتاة عندما تصبح أماً، فقد حاولت بعض المجتمعات في المملكة الاعتراض بقوة على مبدأ فتح الدولة مدرسة للبنات في بلدتهم، وتشبثت بقوة لدى الأمير فيصل، يوم كان ولياً للعهد ورئيساً للوزارة، ليأمر بإغلاق هذه المدرسة، بحجة أن أهل البلدة جميعاً لا يريدون لبناتهن أن يتعلمن. وتوسلوا إليه أن يجنب الفتاة السعودية ما يمكن أن يلحق بها عن طريق المدرسة.

وناقش الأمير فيصل الاعتراضات التي سمعها، واستخدم كل فصاحته ليقنع المعترضين بأن تعليم البنات عمل خيرّ، وأن كل الضمانات متوفرة في المدارس التي أنشأتها الدولة لتبقى الفتاة السعودية التي تتعلم محافظة على دينها وأخلاقها، منسجمة مع مجتمعها، ومعدة على نحو أفضل للقيام بوظيفتها في المستقبل كزوجة وأم. فلما أصر المعترضون على اعتراضهم، أصر فيصل على أن الدولة لن تغلق أبداً

المدرسة التي فتحتها للبنات، حتى ولم تأت إليها ولا فتاة واحدة لتتعلم. وقال المعترضون: إن الدولة تفتح المدرسة تنفيذاً لواجبها تجاه المجتمع، ولكنها لا تملك إكراهكم على إرسال بناتكم إليها. وما دام هناك احتمال بأن تأتي ولو فتاة واحدة في أي يوم من الأيام لتتعلم في هذه المدرسة، فإن المدرسة يجب أن تكون موفورة ومعدة مسبقاً بالمعلمات، وأن تحمي الدولة بقاءها بما لها من سلطة.

وأخيراً، تمسك المعترضون بوجهات نظرهم، وتمسك فيصل بما قال، وأبقى المدرسة مفتوحة وحمَاها. وما إن مضى وقت قصير، حتى جاءت أول فتاة للمدرسة، ثم لحقت بها جاراتها، ولحق بالجارات الجارات، ودار دولاب التعليم في المدرسة، وتقبلت البلدة التي كانت تعترض مبدأ تعليم بناتها، لتتلمس بعد ذلك لمس اليد فوائد مدارس البنات وفوائد تعليم البنات.

وإذا ما حاولنا تعداد المعلمات ومعرفة جنسيات اللواتي يضطلعن بمهمة تعليم البنات في المملكة العربية السعودية نجد أن نسبة السعوديات منهن تبلغ زهاء الثلث، في حين أن بقية المعلمات من جنسيات عربية مختلفة، منهن الفلسطينيات والأردنيات والسوريات والمصريات واللبنانيات.

أما المؤهلات العلمية التي تحملها معلمات المدارس فإنها تتراوح بين الدبلوم العالي للمعلمات والشهادات الجامعية وبين الشهادات الإعدادية، ويتوسطها شهادات معهد معلمات والثانوية العامة النسوية وشهادة ـ المترك ـ والثقافة العامة.

ويبدو أن مناهج التعليم في مدارس البنات قد شملت بالإضافة الى المواد المعتادة من مراحل التعليم المختلفة عناية خاصة بدروس الدين، وعناية فائقة بالتدبير المنزلي، بالإضافة الى الخياطة والتطريز والحياكة وشيئاً من اللغات الأجنبية.

واذا كانت كليات الجامعة في المملكة العربية السعودية لا تقبل الفتيات المتعلمات الا كمنتسبات بعد، فإنها تفسح المجال أمامهن للتقدم الى الفحوص ونيل الشهادات الجامعية. في حين اتفقت رئاسة تعليم البنات مع وزارة الصحة على افتتاح معاهد للتمريض تدخلها الفتيات السعوديات. وقد أخذت الدراسة تنتظم في هذه المعاهد.

ومن المؤكد أن الفرص والمجالات مفتوحة أمام الراغبات من الفتيات السعوديات المتعلمات بدخول الميدان الوظيفي في حقل التعليم، وحقل الخدمة الإجتماعية والحقل الصحي. لذلك نتوسم بالفتاة السعودية أن تتقدم وتتطور بسرعة لتلحق شقيقتها المسلمة السائرة في طليعة ركب التطور والتقدم الحضاري.

تطور المرأة المغربية:

اذا تحدثنا عن تطور المرأة في المغرب لا بد لنا من أن نتحدث عن تطور المغرب ككل. لأن تطور المرأة ظلّ فترة طويلة وهو يخطو خطواته الأولى مرتبطاً مع تطور المغرب ذاته، لذلك يمكن أن نعتبر المرأة ركيزة من الركائز الهامة التي شيدت عليها المغرب تطورها وتقدمها. فالمغرب التي يسميها بعض العرب مراكش قد عرفت مواقف مشرفة فاضلة للمرأة المغربية منذ تاريخ وجود المغرب كدولة مستقلة لها كيانها وسيادتها. والمرأة المغربية خاضت المعارك من أجل استقلال البلاد وساهمت في تطورها العمراني، وأضاءت الطريق أمام الأجيال المغربية الصاعدة.

ولم يتخلف المغرب عن مسايرة الموكب إلّا عندما فرضت التقاليد على الفتاة ملازمة عقر دارها جاهلة مَهيضة الجناح، فكانت أسيرة لا تملك الحرية فيما تريد أن تعمل. حيث كانت قيمة الفتاة الخلقية تقاس عند الأسرة بمقدار لزوم الفتاة بيتها، ويروى عن الفتاة المغربية أنه كان

لها خرجتين في العمر: خرجة الى بيت زوجها، وخرجة الى قبرها!، وكانت الفتاة الفاضلة هي التي لا ترى خارج بيتها الا محمولة على هودج العرس، أو محمولة على النعش. وكان من النادر جداً أن يسمح الأب لابنته بالتعلم، ولو أنه لم يخل عصر من وجود كُتابّ خاص بالصغيرات في المدن الكبرى.

واذا كانت المرأة في المدينة رهينة البيت، فإنها في البادية على العكس من ذلك، فهي تظل خارج الخيام تُعين الزوج وتحمل الماء وتجمع الحشيش، وتحلب البقرة وترعى الشياه، كالعادة في سائر الأرياف. ومن المناظر المألوفة التي تشاهدها في الريف المغربي وفي الضواحي الرجل يركب حماره مثلاً بينما تمشي زوجته على قدميها وهي لا تشعر مع هذا بأي غضاضة انما تعتبر نفسها سعيدة كون زوجها قد رضي باصطحابها معه الى المدينة.

وحتى الآن لا تزال المرأة المغربية محجبة في المدن، والسافرات قليلات. أما في القرى والسهول والجبال فلا حجاب. والزي التقليدي الذي يلبسنه في المدن جلباب واسع له قلنسوة يستوي فيه الرجال والنساء حتى اذا نظرنا أحياناً الى ظهور المارة لا نعرف الرجل من الامرأة، وفي الأرجل نرى البالغات الصفر أو البيض وعلى الوجوه منديل يخفي الأنف والفم وما تحتها، فلا تبدو إلّا الأعين.

واللباس التقليدي للمرأة المغربية لا يساعدها على الحركات الخفيفة، إذ هو شبيه ببذلات النوم، ولكنه مع ذلك مريح وجميل، وهو يقوم على ثلاثة أقمشة عادة: القميص الذي يباشر الجسد، والقباء الذي يعرف باسم «القفطان» ثم «المنصورية» وهي ثوب خفيف شفاف يُجعل فوق القفطان، منسوب الى «المنصور» أحمد الذهبي الذي كان يمتد سلطانه الى صميم أفريقيا السوداء. وتختلف الثلاثة من حيث القيمة تبعاً

للمناسبة التي تلبس فيها: فهي متوسطة متى كانت المرأة في بيتها، وفاخرة متى حضرت حفلاً أو موسمًا أو مناسبة.

وتعتمد زينة المرأة المغربية في البادية على الفضة والأحجار الصناعية وربما اتخذت الريفية عقدها من عملة قديمة، تنظم قطعها في خيط وتحلي به جبينها ونحرها، وكثيراً ما تفرط الريفية في الحلى حتى ليُرثى لحالها وهي تحمل عليها بضعة أرطال من الزينة.

وبمقدار ما تسرف ساكنة الشمال في استيعاب أنواع الزينة، نرى المقيمات في الجنوب يملن الى البساطة. فالفتاة تجلّل رأسها بقبعة سوداء عليها عقال أشبه ما تكون بالموضات التي تستجد في أوروبا.

أما في المدينة فان المرأة تتحلى بالذهب الخالص والأحجار الكريمة الثمينة، فهي تجعل في معصمها الأساور العديدة وفي أصابعها الخواتم المتنوعة، وتشنّف أذنيها باللآلي الطبيعية، وتزين رأسها بتاج.

ورغما عن شعور المغربيين بالحاجة الى النهوض بمستوى الفتاة المغربية، فقد ظلّ كثير من الأسر يعادي ارسال الفتيات الى المدرسة، وكانت الانتقادات توجه قاسية الى طلائع النساء التي انبرت تتحدث باسم الفتاة المغربية وتدافع عنها من أمثال السيدة مالكة الفاسي «باحثة الحاضرة».

ولما شعر جلالة الملك محمد الخامس بالخطر الذي يهدد المغرب لو استمر الآباء في هذا الاصرار، جمع أعيان المملكة في يوم عيد (١٣٦٢-١٩٤٣) وكاشفهم بأن الوقت قد حان لتعميم تعليم الفتاة بالمغرب.

ومن طريف ما يذكر هنا أن أحد الشيوخ المحافظين توجه بالخطاب لجلالة الملك متسائلاً: أفعى وتسقيها سمًا؟ وأجاب الملك: ان الفتاة ليست أفعى. وهبها كذلك، فإن العلم ما كان ولن يكون سمًا، وإنما هو ترياق.

وبعد مرور هذه الحادثة بمدة أربعة أشهر في ٢٥ جمادي الثاني ١٣٦٢ هجرية، خطب العاهل بجامعة القرويين خطبتـه المشهورة في العلماء وأعيان البلد، إذ قال: «هناك أمر نهتم به كل الاهتمام وهو تعليم بناتنا وتثقيفهن لينشأن على سنن الهدى، وليضمن تثقيفهن رقي الأمة، فيتسنى لها أن تسـابق الأمم من غير خـروج على مبـدأ ديننا الأقوم».

وبفضل ارشادات وجهود ملك المغرب انطلقت المرأة المغربية من عقالها نحو التطور والتقدم معتمدة على تضافر جهود الملك من جهة، وجهود الطبقة المتنورة المثقفة من جهة أخرى، فقضت على كل العناصر الرجعية ووضعت حداً لمعارضتها وخاصة عندما ظهرت الأميرة عائشة، كريمة الملك، تظهر للجمهـور في الحفلات، وتـدشّن المدارس وتلقي الخـطب والمحاضـرات داعية الى ضـرورة الأخذ بيـد المرأة المغـربيـة ومساعدتها لتنهض وتتطور أسوة ببقية نساء العالم.

ولم تلبث المرأة المغربية طويلاً حتى غزت سائر الجهات، وأخذ عدد المعلمات المغربيات يرتفع من يوم لآخر. وبين عشية وضحـاها أمسى الحجاب من الأشياء التقليدية المنسية، حتى عند الأوساط المتعصبة والمحافظة، وهكذا نافست الفتـاة الفتى في المدرسـة، في المعهد، في الجامعة، في المتجر، في الشركات، في الهيئات، بل وفي الوزارات، وفي المناصب السياسية.

وبعد ان كان للمـرأة المغربيـة خرجتـان، وجدت نفسهـا أمام ضرورات تدعوها الى الخروج مرات عديدة للقيام ببعض الواجبـات الاجتماعية أو لمرافقة زوجها أو أطفالها الى الحدائق والمنتزهات أو لزيارة الأصدقاء، أو لتحضر احتفالاً عاماً أو خاصاً.

تطور المرأة التونسية:

ساهمت المرأة التونسية كغيرها من النساء في البلاد العربية في معركة تحرير المرأة وتطورها فكانت كما قالت عنها السيدة (سيدة القائد) للرجل: أنتم القوس ونحن السهام.. أنتم السلاح ونحن الرصاص.. فافعلوا بنا ما شئتم.. في سبيل تحرير البلاد ومساعدتنا على التقدم والتطور.

ونتيجة لجهاد المرأة التونسية في معركة التطور والتحرير فقد ربحت الجولة وشمخت بكبرياء تقود النهضة التونسية الحديثة وتساهم بركب الحضارة والتطور، فأعيدت لها كرامتها التي عوضتها عما فاتها من وقت ظلت خلاله تحت سيطرة العادات والتقاليد لا ترى ما حولها إلاّ من خلال قطعة قماش سوداء يسمونها «التقريتة».. مصيرها معلق بكلمة من الرجل والعمل محرّم عليها إلاّ في البيت، حيث تتولى الطبخ والغسل وتربية الأطفال، وزيادة في إذلالها اعتادوا أن يسمونها «وعاء الصديد».

أما اليوم وقد نفضت عنها غبار الزمن وما علق بها من تقاليد وعادات غاية في الرجعية والتخلف انطلقت المرأة تبني وتعمر صروح الحضارة وبنيان التقدم والرقي جنباً الى جنب مع الرجل.

ولما نزعت المرأة التونسية حجابها وشاركت الرجل في كافة أعماله شعرت بأنها بفضل وعيها وادراكها قد استطاعت أن تتخلص من سجنها الضيق لتعمل وتنتج من أجل رفع مستوى بلدها ومجتمعها الناهض المتطور.

ومما لا شك فيه بأن المرأة التونسية أصبحت هي المسؤولة تماماً عن كافة قضايا المرأة الاجتماعية والصحية والتعليمية الى جانب مسؤوليتها المنزلية وانطلقت من خلال فروع الاتحاد النسائي آخذة بيد أختها تنتشلها من ظلمات الجهل.. واعتنت بالطفولة ففتحت رياض

الأطفال وأقامت الأسواق الخيرية، وأصبحت موظفة في المؤسسات، وعاملة في المصانع ولم تغفل عن أختها في الريف، فعملت مرشدة اجتماعية توجهها وترشدها صحياً واجتماعياً.

ولم تعد المرأة التونسية تقضي لياليها بمفردها تنتظر عودة زوجها من المقهى أو من سهراته.. بل أصبحت تشترك معه في السهرات والحفلات ويذهبان سوية لزيارة الأقارب والأصدقاء ومشاهدة أفلام السينما.

ويقول الأستاذ عثمان الكعاك مستشار وزارة الثقافة التونسية وعضو المجمع العلمي العربي بدمشق: المرأة هي نصف البشر.. وأنت **اذا شيدت نصف جسر، لا يمكنك العبور عليه أبالاحرى لا يمكنك ان تدعي بانك قد شيدت جسراً، لهذا وحتى تكمل هذا النقص في بناء الجسر لتتمكن من العبور عليه باطمئنان لا بد للتكامل الاجتماعي من وجود المرأة في المجتمع..**

من المؤكد أن بعض المتعصبين والمتزمتين من أصحاب التقاليد والعادات البالية يخشون على المرأة من خروجها.. والمشكلة اذا نظر اليها نظرة جدية نلاحظ بأنها هي واحدة، فما يجري في الخلوات وظلمات الدهاليز ليس أقل فظاعة مما يتحدثون به من فجور مكشوف.. ان فجور المرأة هو نتيجة حتمية لفجور الرجل، لهذا يجب أن نصلح الرجل أولاً ثم المرأة ثانياً.. وأنا أعتقد أن المرأة التي لا تخرج الى المجتمع تبقى غضة كالبيضة سهلة الكسر.. وأما اذا خرجت للمجتمع فإن تجارب الحياة تكسبها مناعة وقوة.

ولا بد لنا من العمل المجدي لمساعدة المرأة على رفع مستواها وتسهيل مهمة تعاونها الكامل مع الرجل لبناء المجتمع التونسي. باعتبار أن التعاون بين الرجل والمرأة قد يذيب الفروق بين الجنسين، حتى لا يظل الاختلاف الذي تعودناه من تقاليدنا وعاداتنا بين الجنسين حيث يعيش الرجل طول يومه في عمله وفي مقهاه وشارعه وبين أصدقائه ويعود أخيراً الى البيت فقط من أجل المنامة. أما المرأة فكانت تعيش بين

صديقاتها وفي عقر دارها منتظرة عودة الرجل من سهرته. وهذه المشاكل من أشد القضايا الاجتماعية صعوبة حيث لا مفاهيم ولا اتفاقات ولا انسجامات بين الرجل والمرأة. ولا حياة عائلية مشتركة، ولا مبادىء اجتماعية وأدبية وفنية وعقلية متطابقة بين الطرفين. فالرجل ينظر للمرأة ولا يراها سوى متعة وآداة للطبخ وتربية الأطفال. أما العلم والأدب والفن وحلّ المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فحلّها موكول الى الدولة التي ترعى كل شيء في البلاد.

وانطلاقاً من هذه الأفكار فقد طبقت الدولة نظام التعليم المختلط وبذلك تمت المساواة وأسرعت المرأة في تقدمها وتطورها حتى بلغت أرفع المناصب في الدولة وخاصة في التعليم والثقافة والصحة والاقتصاد، وتخرج المزيد من المحاميات والطبيبات والمهندسات والمرشدات الاجتماعيات اللواتي يشرفن على كل شاردة وواردة في الحياة الاجتماعية في تونس.

والواقع أن تطور المرأة المذهل في تونس العاصمة لم يصادف تجاوباً سريعاً في بعض القرى والدساكر حيث اشتهر سكانها بالتمسك الزائد بالتقاليد ولكن بنتيجة التطور والسعي الدائم للنهوض من الكبوة والتخلف فقد تبخرت الكثير من العادات والتقاليد، وبدأت الفتاة التونسية الريفية تسير سافرة في طريقها الى مدرستها وتتلقى تعليمها وبجانبها الفتى..

وتعود أسباب تأخر تطور المرأة الريفية عن تطور زميلتها في المدينة الى المرأة نفسها التي تعودت حياة الإنغلاق والانطواء، فأصبحت تخاف من التطور والتقدم.

إن تطوير المرأة الريفية أصبح يعتبر بنظر المرأة التونسية المتطورة عملية استئصال شاملة يجب القيام بها بسرعة لاصلاح الأوضاع الاقتصادية المتخلفة وتطوير المجتمع ككل. لذلك لا بد من الانطلاق

من قاعدة التعليم باعتبارها الأساس الذي يصلح هذه الأوضاع ويوصل المرأة الى المكانة اللائقة والتي ينبغي أن توجد فيها. وهكذا أصبحت المرأة التونسية ككل على درجة كبيرة من التطور والتقدم مما جعلها تساهم الى جانب شقيقها الرجل في ادارة كافة الأعمال المعروفة في المجتمعات الحديثة المتطورة.

تطور المرأة الجزائرية وبطولاتها:

الاستعمار الافرنسي الذي استعمر الجزائر فترة طويلة قد أخذ بيد المرأة الجزائرية وخاصة التي تقطن في المدن الكبرى، فاستخدم العديد من النساء المتحررات في الوظائف الحكومية وفي بعض المؤسسات الافرنسية التي كانت منتشرة انتشاراً كبيراً في الجزائر. ولكن المرأة القروية والريفية ظلت محافظة على عاداتها وتقاليدها التي ورثتها عن الأجداد حتى حصلت الجزائر على استقلالها، فشفّ الحجاب وتطور مع تطور المرأة الجزائرية التي لم تعد تغطي وجهها إلّا بمنديل من الحرير المزخرف أو من النايلون غاية في الأناقة.

أما جيل الفتيات بعد الاستقلال فيخرجن ويسرن في الشوارع ويرتدن الأماكن العامة سافرات لا يقيدهن حجاب ولا أي غطاء للوجه أو الرأس. وبذلك انعدم الحجاب مع انعدام العادات والتقاليد التي كانت تحدّ من نشاط المرأة الجزائرية.

وبالفعل أسس اتحاد نساء الجزائر بعد الاستقلال مباشرة حيث قامت السيدات الجزائريات بتكوين اتحاد يجمع شملهن حيث حقل العمل الاجتماعي واسع جداً أمامهن، خاصة وأن أبناء الشهداء يكونون العمل الأساسي الذي تهتم به المرأة الجزائرية المتطورة.

والمرأة الجزائرية التي خاضت حرب الاستقلال جنباً الى جنب مع الرجل لفتت اليها أنظار العالم أجمع لما قدمته من تضحيات وبطولات

أثناء المعارك التي خاضتها وخاصة جميلة بو حيرد وأوريدة مداد التي عذبت تعذيباً شديداً لا يمكن لأي مخلوق أن يتحمله مهما كان نوعه وألقيّ بها من الطابق السادس حيث لقيت ربها مطمئنة لما قامت به من خدمات لوطنها. وكذلك لا ننسى التضحـة الكبرى التي قـامت بها الجزائرية يمينة عبيد التي انفجرت قنبلة زمنية كانت تحملها في حقيبتها قبل دقيقة من التوقيت المحدد فقطعت قدميها ويدها.

واذا ما أردنا أن نتفحص تاريخ المرأة الجزائرية بعد الاستقلال لاحظنا أن كافة المفاهيم التطورية الحديثة التي جسدتها المرأة الجزائرية في ثوريتها تنطبق على ما يقوم به من أعمال خيرة معطاة للاتحاد النسائي الجزائري جاهداً ليوفق بين الآراء الثورية للمجاهدات الشابات، وبين وقار السيدات المجاهدات ذوات الماضي الحافل بالتضحية والشجاعة.

لقد تحولت المجاهدات من فتيات عاديات من بنات الشعب، الى نجوم لامعة يشار إليهن بالبنان، وخاصة في الحفلات العامة التي كانت الدعوة توجه اليهن لحضورها.. كان ذلك مفـاجأة لهن، ولم يحسبن حسابها.. فكن يظهرن في هذه الحفلات ووجوهن لم تلمسها البودرة أو أصابع الروج، وكن يرتدين نفس الثياب العادية البسيطة التي يرتدينها في حياتهن العادية.. حتى في الحفلات الرسمية التي تشهدها سيدات السلك الدبلوماسي بملابس الحرير والقصب.

ان كثيرات من المجاهدات اتجهن الى الخدمة الاجتماعية ورعاية شؤ ون أبناء الشهداء الذين ذهبوا في سبيل الاستقلال وسقوا بدمائهم الطاهرة تربة الوطن ليربوا الأجيال الصاعدة على الشموخ والتضحية والفداء. بينما اتجهت الباقيات نحو العمل في مختلف الوظائف الحكومية والدوائر والمؤ سسات العامة أو الخاصة.

وليست المرأة الجزائرية رغم ما خاضته من معارك طاحنة لتحرير بلادها بعيدة عن التقدم العلمي حيث نبـغ من النساء الجـزائريـات

طبيبات ومهندسات وعالمات ومحاميات وأديبات ساهمن في نشاط كافة الحقول التي تمّ على أساسها بناء المجتمع الجزائري الجديد بعد الاستقلال.

تطور المرأة الليبية:

لم تكن المرأة الليبية أحسن حالاً من زميلاتها اللواتي كن يعشن في تونس والمغرب والجزائر وبعض البلدان العربية المتخلفة حيث كانت تقبع في منزلها لتقوم بالأعمال المنزلية وتربية الأطفال، محظراً عليها الخروج من المنزل. واذا عرضت لها أية حاجة اضطرارية كانت تخرج محجبة برفقة زوجها أو أحد أخوتها. لقضاء تلك الحاجة.

وتعتبر المرأة فاضلة شريفة حسنة السيرة والأخلاق تلك التي لم يقع أبداً وجهها على ضوء الشمس، أي المرأة التي تظل في بيتها تقوم بخدمة أولادها وزوجها فلا تخرج حتى يريد الله أمراً كان مفعولا. فهي تجلس حسب التقاليد والعادات المرعية منذ القديم في البيت لتتعلم المهن المنزلية، ولا تذهب الى المدارس، ولم تتلق أي نصيب من العلم حتى أن المدارس القرآنية التي كان يذهب اليها الأطفال محرمة هي أيضاً عليها.

ومن التقاليد المعروفة عند أهل الريف في ليبيا أن الزوجة لا تجلس أبداً على مائدة واحدة لتأكل مع زوجها، فالزوج يأكل مع أولاده، والأم تأكل مع بناتها، وفي حال عدم وجود أبناء، فان الزوج يأكل وحده، والزوجة تأكل وحدها تأدباً وحياءً.

والزوجة الريفية تظل منزوية في منزلها فلا تخرج منه إلاّ عندما تغيب الشمس عندها تتسلل من منزلها لزيارة صديقاتها، فتسير مغطاة تماماً، وكأنها شبح يتحرك بين الأزقة والزواريب.

ومن عادات الفتاة القروية في ليبيا أن لا تتزوج اذا كانت لها أخت أكبر منها سناً في المنزل قبل أن تتزوج هذه الأخت، والسن العادية

للزواج في ليبيا هي ١٦ سنة للفتاة و ٢٠ سنة للرجل. ولا يرى العريس عروسه قبل الزواج، وانما تختارها له أخته أو أمه. والوالد هو الذي يخطب لابنه. وفي حفلات الزواج التي تدوم سبعة أيام اذا كانت العروس بكراً، واذا كان سبق لها ان تزوجت فإن أيام العرس تدوم ثلاثة أيام فقط.

وتعرف الليلة الأولى بليلة (الرَميِّ) وهي التي يحمل فيها أهل العريس الملابس والحلى والثمن والأرز وبعض الأغنام الى بيت العروس.. والليلة الثانية يطلق عليها (ليلة الحنة) وتأتي فيها أم العريس مع الأهل والأصحاب لتخضيب يدي العروس وقدميها بالحناء الحمراء، وسط قرع الدفوف دون العزف على أي مزمار أو غناء كونهما ممنوعان في الريف.

والليلة الثالثة تسمى (كابوسة على أهل العروسة) لأن نساء أسرة العريس يأتين لأخذ العروس من بيت أبيها الى بيت زوجها. وبعد الزواج تجلس الزوجة في بيتها تقوم بكل عمل، فهي التي تطهو الطعام.. وهي التي تغسل الملابس.. وهي التي تنظف الأرض وتمسحها.. وهي التي تغزل الصوف لتصنع منه ملابسها وملابس زوجها وأطفالها.

وظلت المرأة الليبية على هذه الأوضاع البائسة المؤلمة خلال الاستعمار الايطالي حتى حصلت ليبيا على الاستقلال وأصبحت تخضع للنظام الملكي الإسلامي، فأخذت المرأة الليبية تتأرجح بين المحافظة والتحرر، ومع هذا التأرجح استطاعت المرأة الليبية أن تشق لها طريقاً لتتنفس منه بقيادة عميدة النهضة النسائية الليبية السيدة حميدة العنيزي التي كافحت وناضلت حتى قبل الاستقلال ولكنها كانت دائماً وأبداً في كل حركة من حركاتها تواجه بمعارضة الرجل. وأخيراً توصلت الى ايجاد جمعية النهضة النسائية التي كاد الرجال يقضون عليها وهي في المهد لولا

بعض المساعدات التي قدمت لهذه الجمعية من قبل الدولة. وسرعان ما أصبح للمرأة مجلة تنطق باسمها وتحمل على معارضي حقها في الحياة الحرة الكريمة، كما جاء في هذا المقال «.. وصفوا المرأة الليبية بالسلبية، وما سلبتها إلّا انعكاس لسلبية الرجل الذي يعيش في مجتمع رجالي جاف ركبه الغرور، يأبى المجتمعون فيه التخلي عن مملكتهم الوهمية، وتأبى المرأة أن تقبع تحت ظلاله.. قالوا عن المرأة الليبية ان تيار المدنية قد جرفها فخرجت عن التقاليد في لباسها ونظرتها للحياة، ولو ألقوا نظرة على المرأة الغربية لشعروا بالفخر والاعتزاز لفتاتنا الكادحة العاملة في البيت وخارجه..».

وقالت احدى الفتيات الليبيات في مقال آخر: «أمنيتي أن تنقشع الغشاوة عن عيون الآباء ليكفوا عن الربح والبيع المزري لبناتهم قانعين بما نصت عليه الشريعة الاسلامية..».

وتقول فتاة ثالثة: «الرجل الذي يتزوج يختار أسرة المرأة قبل أن يختارها هي، فهو لا تهمه المرأة كمرأة بقدر ما تهمه الأسرة وعراقتها.. وبعد ذلك يتنكر لها، فيطمرها في البيت.. يحرمها من أن تفتح النافذة لا لترى الشمس، ولكن لكي لا تدخل الشمس الى البيت..».

وعندما بدأت النهضة التعليمية الليبية سمح للمرأة بحق التعليم في جميع أنحاء ليبيا إلّا في بعض القرى النائية حيث حرمت من ممارسة هذا الحق حتى حفظ القرآن في المدرسة حرّم عليها نتيجة لرجعية وتخلف أهلها رغم محاولات الدولة الكثيرة التي بذلتها في سبيل تعميم مدارس البنات المسلمات في جميع أنحاء المملكة الليبية في ذلك الوقت.

وعندما انطلقت ثورة الفاتح من أيلول، نالت المرأة الليبية العناية والاهتمام من قبل المسؤولين وحصلت على المزيد من حريتها وحقوقها التي كانت مهضومة في العصور البائدة، فانطلقت من سجنها الضيق تفعل وتبني ركائز المجتمع الليبي وفق أسس حديثة ومناهج تطبيقية

تعليمية رائعة، وما هي إلّا سنوات حتى تخرج من الجامعات والمعاهد العديد من الفتيات المتعلمات اللواتي تربعن في أرفع المناصب واحتللن أكبر المراكز التعليمية والصحية والاجتماعية.

ومن المؤكد بأن المرأة الليبية في عهد ثورة الفاتح سوف تتبوأ مكان الصدارة في عالم المرأة العربية المؤمنة المسلمة الناهدة الى خدمة بلدها وأمتها ومجتمعها، وستحصل على حقوقها الكاملة في المساواة مع الرجل.

تطور المرأة السودانية:

لا يختلف حال المرأة السودانية وعاداتها وتقاليدها عما هي عليه حال المرأة العربية المسلمة في بقية البلدان العربية، خاصة عندما كانت السودان مستعمرة خاضعة للنفوذ الأجنبي.

ورغم أن السودان هو خليط من أبناء القبائل العربية في الأماكن الشمالية ومن القبائل الأخرى التي تسكن في الجنوب فلكل قبيلة من هذه القبائل عاداتها وتقاليدها. لذلك لا نستغرب اذا كانت نسبة التعليم بين النساء نسبة ضئيلة جداً أو شبه معدومة.

أما بعد الاستقلال فقد بدأت النهضة التعليمية بين الذكور والاناث، وبدأت مع هذه النهضة العادات البالية والتقاليد القديمة تنهار وتتداعى الواحدة بعد الأخرى. فبدأت المرأة السودانية تشق طريقها لتنهل من مناهل العلم وتحصل على المزيد من حقوقها المهضومة، وخاصة حقوقها التعليمية والاجتماعية. وأخذت الجمعيات والهيئات النسائية التي تألفت بعد الاستقلال تحاول بقدر طاقاتها القضاء على الأمية بين النساء وخاصة اللواتي فاتهن قطار التعليم وذلك بتلقينهن مبادىء القراءة والكتابة بالاضافة الى الأشغال اليدوية التي تزيد من دخل الأسرة.

ولما تكوّن الاتحاد السوداني النسائي العام راحت بعض العضوات تعمل بجد ونشاط على رفع مستوى الفتاة السودانية وتأهيلها لتصبح عضواً فاعلاً في المجتمع السوداني تلقّن دورها في تكوين الأسرة وتأسيس المجتمع المتطور بالاضافة الى تزويدها بالتربية الصحيحة من الناحية الثقافية والصحية.

والآن بلغت المرأة السودانية درجة رفيعة من التطور والتقدم حيث شاركت في كافة المرافق العامة والخاصة تعمل جنباً الى جنب مع الرجل، فهي محامية وطبيبة وممرضة ومديرة ومدرسة ومهندسة وباحثة وعالمة لا فرق بينها وبين الرجل.

تطور المرأة السورية:

لم تكن المرأة السورية خلال تاريخها الطويل تختلف عن المرأة العربية المسلمة في جميع البلدان العربية من حيث الحجاب والانزواء في منزلها للطبخ والنفخ وتربية الأطفال.

وعندما كانت سورية تخضع للنفوذ الافرنسي، حاول الاستعمار الابقاء على الحجاب وعلى حقوق المرأة السورية بصورة عامة مطوية الى ما يشاء الله. حتى لا يتسنى للمرأة اللحوق بركب المدنية الحديثة.

وبالرغم من كافة العقبات التي وضعت في طريق تطور وتقدم المرأة السورية فقد قامت في سنة ١٩٤١ حركة رجعية ضد المرأة تطالب بمنعها من الخروج من المنزل وارتياد الأماكن العامة والإبقاء على حجابها. فهبت بعض النسوة المتحررات وعلى رأسهن رئيسة جمعية النهضة النسائية في دمشق سافرات يتظاهرن في الشوارع، فألقى عليهن المتزمتون ماء الفضة والحجارة والبندورة والبيض.

ولما كانت المرأة السورية مصممة على نيل حقوقها وحريتها

صمدت وناضلت غير عابئة بمؤ امرات المتعصبين وحملات الرجعيين باسم الغيرة على الأخلاق والشرف الذين كانوا ينهدون الى حبسها خلف الحجاب وابقائها قابعة في منزلها دون أن يكون لها أية قيمة في المجتمع.

ومع مرور الأيام وصراع المرأة السورية المستمر استطاعت أن تنال بعض حقوقها الاجتماعية والسياسية والتعليمية. فساهمت في كافة النشاطات التعليمية والثقافية والاجتماعية وانخرطت تتحدث في السياسية أكثر مما تتحدث في أي شيء آخر، وتقود المظاهرات التي تطالب في حقوق سورية العامة وحقوقها الخاصة.

وما عتّم أن أصبح للمرأة السورية العديد من الجمعيات والمنتديات ونبغ العديد منهن فأصبحن أديبات ومحاميات وطبيبات ومهندسات ومربيات ومرشدات اجتماعيات وخبيرات في الشؤ ون الاقتصادية والادارية وحتى السياسية.

ومع دوران الزمن وقيام الثورات في سورية استطاعت المرأة السورية أن تستغل الظروف وتحصل على المزيد من حقوقها المهضومة في التعليم والسياسة والانتخاب. فأصبحت المرأة السورية نائبة ووزيرة وموظفة في السلك السياسي وفي الأمن وفي مختلف مؤ سسات الدولة كما أنها ساهمت في المعارك التي خاضتها سورية مع اسرائيل وتدربت على حمل السلاح والقفز في المظلات وساهمت في صفوف الجيوش الشعبية تدافع بجرأة عن وطنها.

ولا نتحدث عن عدد مدارس البنات الابتدائية والثانوية وعن عدد الفتيات اللواتي دخلن الجامعة وتخرجن منها، لأن عددهن قد يفوق عدد الشباب بكثير، لأن التعليم في سورية مجاناً وأصبح مختلطاً في أغلب المدارس.

تطور المرأة اللبنانية :

ولما كانت بيروت عاصمة لبنان تعتبر بحق وصدق عاصمة الشرق الأوسط التي تطل من على شواطىء البحر الأبيض المتوسط على العالم الشرقي والغربي. فقد تعددت فيها الثقافات وأصبحت فيها العديد من المعاهد والجامعات تمثل ثقافات عديدة ومختلفة، فقد ساهمت المرأة اللبنانية في هذه الثقافات فدخلت المعاهد والجامعات وتعلمت العديد من اللغات وتسلمت الكثير من المسؤوليات في الادارات والشركات لما تتمتع به من ذكاء وقدرة على القيام بواجباتها بعد أن تسلحت بالعلم والمعرفة.

والمرأة اللبنانية قد نزعت الحجاب منذ فترة طويلة وخاصة في مدينة بيروت ودخلت المدارس والجامعات المختلطة. أما في غير بيروت فالمرأة تختلف كل الاختلافات عن شقيقتها في العاصمة، فالحجاب ما زال يحتل مكانه على وجه عدد كبير من سيدات وآنسات مدينة طرابلس على سبيل المثال. مع أن المرأة الطرابلسية لم تتأخر عن ركب التطور ولا عن الدخول في المدارس والجامعات أسوة بغيرها من النساء اللبنانيات.

ونلاحظ بأن المرأة العاملة في الخدمات الاجتماعية من كافة المدن والقرى اللبنانية أصبحن سافرات متحررات، يعملن بجد ونشاط في الحقول الاجتماعية ويساهمن في الجمعيات والمنتديات والمؤسسات الناهدة الى رفع مستوى المواطن اللبناني كما أن العديد من النساء الريفيات يعملن بالتطريز والأشغال اليدوية تحت رعاية الجمعيات النسائية الخيرية.

وكلمة حق نقولها أن المرأة اللبنانية قد تطورت تطوراً سريعاً وملموساً خاصة بعد الاستقلال، فساهمت مساهمة فعالة في كافة الحركات الاجتماعية والخيرية جنباً الى جنب مع الرجل ان لم نقل بأنها قد فاقته في كثير من النشاطات.

ولما كانت المرأة اللبنانية قد انخرطت في سلك التعليم وتلقت المعارف بكافة أنواعها في أغلب الجامعات العالمية المشهورة، فقد أصبح من النساء اللبنانيات الطبيبات والمهندسات والمحاميات والممرضات والأديبات والمربيات والصحفيات والدبلوماسيات، وفي سلك الأمن ومع كل هذا التطور فلم تحصل بعد المرأة اللبنانية على حقوقها السياسية كاملة.

تطور المرأة في الخليج العربي:

الخليج العربي من أقصاه الى أقصاه كان خاضعاً بمجمله الى الاستعمار يتحكم فيه وبما يضمه من سكان وفق السياسة الاستعمارية الناهدة الى التخلف والانحطاط وبقاء القديم على قدمه يخضع للتقاليد وتتصرف بمصيره العادات القديمة البالية.

لذلك لا نستغرب اذا كانت المرأة الخليجية قد ظلت طوال مدة الاستعمار واقعة تحت سيطرة العادات والتقاليد البالية التي تفرض عليها الحجاب والبقاء في المنزل لاعداد الطعام وتربية الأطفال بدون أن يكون لها أي أهداف تعليمية أو ثقافية أو اجتماعية.

وبالاضافة الى هذا السجن التي كانت تقبع فيه المرأة الخليجية قد فُرض عليها نظام الحجاب الكثيف ونظام تعدد الزوجات، حيث قلما نجد أي رجل خليجي يكتفي بزوجة واحدة، بل يطبق نظام تعدد الزوجات المذكور في الشريعة الاسلامية، وربما يضيف اليه اذا كان ميسوراً العديد من الزوجات والجواري والسرايا.

تطور المرأة الكويتية:

ويختلف تطور المرأة الكويتية وتقدمها عن تطور غيرها من النساء في البلاد العربية الأخرى، فقد خاضت المرأة الكويتية صراعاً مريراً في

بيئة رجعية متعصبة تخضع للتقاليد والعادات وتتمسك بحياة البداوة والتشاريع الاسلامية المعمول بها في كافة أنحاء الخليج، والتي تطبق بدقة وعناية. لذلك رأت بعينها البصيرة التواقة الى الانطلاق والتحرر للحصول على حقوقها المهضومة لتتمكن من مسايرة ركب الحضارة والتقدم.

وانطلاقاً من هذه العوامل التي تتفاعل في أعماق المرأة الكويتية خططت لصراعها الطويل ولمعركتها الأساسية فاتجهت وهي متكلة على شموخها ونشاطها لتثقف نفسها ولتتلقى العلم كما يتلقاه الفتيان في بلادها وهي لا تزال تخضع لعادات وتقاليد الحجاب الذي فرض عليها فرضاً.

وبعد فترة من الزمن والجهاد المتواصل ازداد عدد مدارس البنات كما ازداد عدد الطالبات اللواتي نهلن من مناهل التعليم الابتدائي وهن محجبات ثم دخلن الجامعات وتخرجن منها محاميات ومهندسات ومعلمات ومرشدات اجتماعيات ساهمن في نهضة الكويت وتطورها.

ونتيجة لهذا التقدم الملموس بدأ الحجاب يرتفع رويداً رويداً عن وجه المرأة الكويتية. ولم يكن هذا الارتفاع عن وجه الطالبات المثقفات فحسب بل تعداه الى المرأة في المجتمع الكويتي، حيث شرع بعضهن بنزع الحجاب عن وجوههن وارتياد الأماكن العامة والعمل في التدريس أو في دوائر الصحة أو في الاذاعة والتلفزيون.

ومما لا شك فيه أن هذا التطور الذي حدث للمرأة الكويتية قد قوبل في بداية الأمر بحملات رجال الدين وبعض المتزمتين المتمسكين بالعادات والتقاليد، ولكن هذه الحملات باءت بالفشل وارتدت خائبة بفضل شجاعة وجرأة المرأة الكويتية التي لم تعد شيئاً مهملاً قابعاً في ركن من أركان المنزل، بل أصبحت متعلمة مثقفة خاضت غمار كل أنواع العلوم والمعارف التي خاضتها المرأة الغربية.

واذا ما رجعنا الى تاريخ المرأة الكويتية نلمس بان نهضتها وتطورها الحديث قد لقيا تأييداً كبيراً وتشجيعاً منقطع النظير من قبل المغفور له أمير الكويت السابق الشيخ عبد الله السالم الصباح الذي كان يقول: «انني أؤ من بأن الفتاة التي تمثل نصف المجتمع، والتي ترعى المنزل لتربي جيلنا الجديد، يجب أن تنال قسطها الكامل من التربية والتعليم.. فالمجتمع الذي لا تتعلم فيه المرأة لن يستطيع النهوض على قدميه في عالمنا الحديث، ولذلك فإنني أشعر بالغبطة وأنا أرى فتاتنا الكويتية وهي تأخذ نصيبها من التعليم كاملا، وتتحمل مسؤ ولياتها في الحياة.. ولقد أثبتت المرأة في البيئات المتطورة أنها قادرة على شغل العديد من المناصب الحساسة».

وانطلقت المرأة الكويتية محاولة التعويض عما فاتها من سنوات التأخر تؤ سس الجمعيات النسائية والصحية والاجتماعية ونوادي المعلمات وجمعيات الخريجين والجمعيات الثقافية وتدعو الى الأسواق الخيرية لصالح المعاقين والمعوزين.

ومع كل هذه الأشواط التقدمية التي قطعتها المرأة الكويتية لا تزال بعض التقاليد موجودة حتى الآن. ولكن المرأة الكويتية استطاعت أن تثبت وجودها وتؤ كد مدى كفاءتها في مختلف الأعمال التي قامت بها وهذا وحده أدى الى القضاء على الكثير من العراقيل التي كانت تعوق تقدمها.

واليوم ازداد اقبال الفتاة الكويتية على اقتحام ميادين العمل المتعددة فهي الآن مدرسة، وطبيبة، وسكرتيرة، ومذيعة، وصحفية، وممثلة، وممرضة، وعاملة تليفون، ومهندسة زراعية، وكيماوية، ومديرة شركة، ومديرة بنك، ومعيدة في الجامعة، وغير ذلك من المهن التي كانت مقصورة على الرجال فقط.

تطور المرأة في الإمارات العربية:

عندما خاضت المرأة الكويتية معارك التحرر والانطلاق انتقلت هذه المعارك بصورة عفوية الى كافة الإمارات الواقعة على الخليج العربي، ومن جملة تلك الإمارات إمارة أبو ظبي ودبي والشارقة وغيرهم من الإمارات حيث بدأت المرأة فيها تتصارع لايجاد مكاناً لها في المجتمع تعوض عما فاتها من ظلم واضطهاد وتخوض غمار العلم والمعرفة كونهما الطريق الوحيد الذي يوصل المرأة الى أهدافها ويحقق لها مطالبها وينقلها من مرحلة الأم والزوجة الى مرحلة الإدراك لأنها كائن له حقه في أن يلعب دوراً رئيسياً في تطوير بلاده.

ومن الطبيعي جداً في هذا العصر المتطور أن تنتشر المدارس الابتدائية والثانوية والمعاهد والجامعات في كافة البلدان المتخلفة التي تنهد الى التطور والتقدم. لذلك عممت المدارس والجامعات والمعاهد في كافة الإمارات مما أفسح في المجال أمام المرأة لتقبل على التعليم والتزود بالمعرفة، ومع دورة الأيام ازداد عدد المتعلمات وأسست الجمعيات النسائية والخيرية والاجتماعية التي ترعاها المرأة في تلك البلاد لتحد بموجب نشاطها من أنانية الرجل الذي كان يعاملها معاملة قاسية حيث يرفض أن يجلس واياها عندما يتناولا الطعام على مائدة واحدة، ويا ويلها لو مضغت أو لاكت الطعام وهي أمامه! إنها تحترق كالشمعة وهي تنتظر رجوع زوجها من سهراته مع أصحابه في المقاهي ورغم كل هذا الظلم والتعسف التي لاقته المرأة في الإمارات من قبل الرجل فقد استطاعت أن تنهض وتتطور وفق مناهج علمية دقيقة أوجدها حكام تلك الامارات.

وبمقدورنا بعض هذا المخاض العسير أن نلمس مدى تقدم وتطور المرأة في الإمارات العربية حيث شرعت بنزع الحجاب ومزاولة الأعمال الرسمية والحرة وأصبح بين نساء الإمارات العديدات منها المحاميات

والطبيبات والمهندسات والمدرسات والمرشدات الاجتماعيات اللواتي يقدمن أجل الخدمات لبلادهن.

كلمة لا بد منها:

لا نغالي إذا قلنا بأن قضية المرأة في الشرق قد بدأت تظهر الى عالم الوجود بعد أن انتهت من مخاضها العسير في الغرب حيث كان تاريخ المرأة الغربية مثقل بما حمل من جهالة الوثنية وخرافات القرون الوسطى ومعارك الدين والدولة في القرون المتأخرة.

ومن المؤكد أن المرأة الغربية بعد صراعها الطويل في سبيل نيل حقوقها كاملة بدون نقص قد توصلت بفضل العلم والمعرفة والقيادة الحكيمة الى نيل مبتغاها. فخاضت غمار الحياة العامة بشكل تساوت فيه مع الرجل. لذلك فقضية المرأة الشرقية التي لا تزال ترزح تحت وطأة بعض القيود التي خلفتها العادات والتقاليد البالية القديمة لا بد لنا من متابعة النضال والصراع للوصول الى حقوقها كاملة في كافة المجالات خاصة الحقوق السياسية والانتخابية.

فالمرأة كما هو معروف ومشهور هي النصف المتمم للرجل فلماذا ولأي سبب نترك هذا النصف محطماً مسحوقاً عالة على المجتمع الذي ينهد الى التحرر والتقدم والتطور.

ولا نجادل أو نناقش وخاصة أولئك الذين لا يزالون حتى بعد وصول الانسان الى القمر وارتياد الفضاء ينظرون الى المرأة نظرة خاطئة تنطلق من حب السيطرة والتملك.

فالمرأة بعد أن خاضت غمار التعليم وتوصلت بفضل عزمها ونشاطها الى مكان الصدارة في المجتمعات الشرقية لا بد لها مهما طال

الزمن من أن تحصل على حقوقها الكاملة سواء عن طريق العنف أو عن طريق الرضا والقبول.

ونحن لا ننكر مطلقاً بأن الحقوق والواجبات التي فرضتها الشرائع والكتب السماوية على كلا الجنسين قد أصلحت الكثير من أخطاء العصور الغابرة في كل أمة من أمم الحضارات القديمة والحديثة، كما أكسبت المرأة منزلة سامية رفيعة لم يتسن لها أن تكسبها من قبل. فالمعاملة التي زكتها التشاريع والكتب السماوية هي المعاملة الانسانية المفيدة المبنية على العدل والاحسان. فلا بد لنا اذا ما أردنا الأخذ بيد المرأة وانتشالها من الهوة السحيقة التي تكاد أن تتردى فيها من أن نمد لها يد المساعدة لتصل الى حقوقها كاملة بدون نقصان.

«تم الكتاب»

المراجع التي اعتمدنا عليها

١ ـ **الانسان والحضارة،** كلود لفي شتراوس.
٢ ـ **الأسرة والمجتمع،** علي عبد الواحد.
٣ ـ **الاسلام والمرأة المعاصرة،** البهي الخولي.
٤ ـ **المرأة بين البيت والمجتمع.** البهي الخولي.
٥ ـ **المرأة بين الفقه والقانون.** د. مصطفى السباعي.
٦ ـ **تاريخ العالم.** هيرودوت.
٧ ـ **المرأة في القرآن.** عباس محمود العقاد.
٨ ـ **المسيح في الأناجيل الأربعة.** فتحي عثمان.
٩ ـ **مجمع الأمثال،** للميداني.
١٠ ـ **بلاغات النساء،** ابن طيفور.
١١ ـ **الأغاني،** لأبي الفرج الأصفهاني جـ ٦.
١٢ ـ **الفاروق عمر،** محمد حسنين هيكل جـ ٢.
١٣ ـ **المنهج،** الإمام علي بن أبي طالب.
١٤ ـ **المرأة في حضارة العرب،** محمد جميل بيهم.
١٥ ـ **سيرة ابن هشام،**
١٦ ـ **البلوي ألف باء** جـ ١/٢/٣،
١٧ ـ **عبقرية الإمام،** عباس محمود العقاد.

١٨ ـ العقد الفريد جـ ١ ـ ٣.
١٩ ـ فتوح الشام، للواقدي.
٢٠ ـ الامبراطورية الشرقية، ادوار جيبون.
٢١ ـ بلاغات النساء، ابن طيفور.
٢٢ ـ حقوق المرأة، أحمد أجاييف.
٢٣ ـ حقوق المرأة، حسني نصار.
٢٤ ـ المرأة في التاريخ والشرائع، محمد جميل بيهم.
٢٥ ـ التمدن الاسلامي جـ ٥، زيدان ـ ج.
٢٦ ـ المرأة العربية، عفيفي ـ عبد الله.
٢٧ ـ قوانين الزواج عند العبرانيين الأقدمين، نيوفلد.
٢٨ ـ كتاب الإسلام والنصرانية، نورجيه.
٢٩ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد.
٣٠ ـ عيون الأخبار، للدينوري.
٣١ ـ أمراء البيان، محمد كرد علي.
٣٢ ـ أعلام الإسماعيلية، د. مصطفى غالب.
٣٣ ـ عيون الأخبار، ادريس عماد الدين.
٣٤ ـ جامع البيان في تفسير القرآن، ابن جرير الطبري.
٣٥ ـ السرخسي في المبسوط.
٣٦ ـ أحياء علوم الدين، الغزالي.
٣٧ ـ الأحكام الشرعية المادة ٦٥،
٣٨ ـ الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، الشيخ محمد علي الشوكاني.
٣٩ ـ صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن اسماعيل. . الجفخي.
٤٠ ـ السيرة النبوية لابن هشام، مصطفى السقا وابراهيم الأبياري والشلبي.
٤١ ـ المسند، لابن حنبل ـ أحمد محمد شاكر.
٤٢ ـ موسوعة آل النبي، الدكتورة بنت الشاطىء.
٤٣ ـ الحجاب، أبو الأعلي المودودي دار الفكر الاسلامي.
٤٤ ـ الحلال والحرام في الاسلام، يوسف القرضاوي.
٤٥ ـ الزواج الموقت، محمد تقي الحكيم.
٤٦ ـ آداب اللغة العربية، ج ـ زيدان.
٤٧ ـ الدر المنثور، زينب فواز.
٤٨ ـ كتاب روح الاجتماع، كوستاف لوبون.
٤٩ ـ أخبار ذات السوار، حامد حشيشو.
٥٠ ـ تحرير المرأة، قاسم أمين.

٥١ ـ العربي مجلة كويتية العدد ١٢٤، د. محمد سلام زناتي.
٥٢ ـ المستظرف، للأشبهي.
٥٣ ـ حقائق الاسلام وأباطيل خصومه، عباس محمود العقاد.
٥٤ ـ النظم الاسلامية نشأتها وتطورها، د. صبحي الصالح.
٥٥ ـ الأسرة في الشرع الاسلامي، د. عمر فروخ.
٥٦ ـ نساء محمد، سنية قراعة.
٥٧ ـ بطلة كربلاء، د. بنت الشاطىء.
٥٨ ـ الحسين وبطلة كربلاء، محمد جواد مغنية.
٦٩ ـ حياة محمد، واسنجتون ارفنج ـ حسني الخزبوطلي.
٦٠ ـ الاتجاهات الأدبية في العالم العربي الحديث، أنيس الخوري المقدسي.
٦١ ـ الصحائف السود، ولي الدين يكن.
٦٢ ـ الاسلام دين الفطرة والحرية، الشيخ عبد العزيز جاويش.
٦٣ ـ المجتمع الانساني في ظل الاسلام، محمد أبو زهرة.
٦٤ ـ الاسلام دين الهداية الجديدة، د. محمد فريد وجدي.
٦٥ ـ معالم الحياة العربية الجديدة، د. منيف الرزاز.
٦٦ ـ الاسلام والأسرة، معوض عوض ابراهيم.
٦٧ ـ من هدى القرآن، محمد نمر الخطيب.
٦٨ ـ معجزة فوق الرمال، أحمد عسّه.
٦٩ ـ عصر النبي، محمد عزة دروزة.
٧٠ ـ فلسفة التشريع، صبحي محمصاني.

فهرس الكتاب

مقدمة الكتاب ٥
المجتمعات البدائية والأسرة ١١
الحياة الزوجية والأسرة ١٨
كيفية اختيار الزوجة ٢٨
المرأة وحرية الاختيار ٣٠
المرأة عند الأشوريين ٣١
المرأة عند الاغريق ٣٢
المرأة عند الرومان ٣٧
المرأة عند الفراعنة القدماء ٤٠
المرأة عند شريعة حمورابي ٤١
المرأة عند الحضارة الصينية ٤٢
المرأة عند اليهود ٤٦
المرأة عند المسيحية ٤٩
المرأة في الجاهلية ٥٣
المرأة في الاسلام ٦٣
المرأة في صدر الاسلام ٨٠
المرأة في العصر الأموي ٨٧
المرأة في العصر العباسي ٩٤
المرأة والحجاب ١٠٥
حقوق المرأة في الاسلام ١١٦
الزواج ١١٧
عقد الزواج ١٢٤
تعدد الزوجات ١٣٠
المهر أو الصداق ١٤١
زواج المتعة ١٤٣
الطلاق في الشريعة الاسلامية ١٤٧
مسلمات خالدات في التاريخ ١٥٨
فاطمة الزهراء ١٥٨
زينب بنت علي (ع) ١٦٢
سكينة بنت الحسين (ع) ١٨١
تطور المرأة العربية في العصر الحديث ١٩٦
تطور المرأة السعودية ٢١٠
تطور المرأة المغربية ٢١٥
تطور المرأة التونسية ٢١٩
تطور المرأة الجزائرية وبطولاتها ٢٢٢
تطور المرأة الليبية ٢٢٤
تطور المرأة السودانية ٢٢٧
تطور المرأة السورية ٢٢٨
تطور المرأة اللبنانية ٢٣٠
تطور المرأة الكويتية ٢٣١
تطور المرأة في الخليج العربي ٢٣١
تطور المرأة في الامارات العربية ٢٣٤
مراجع الكتاب ٢٣٧